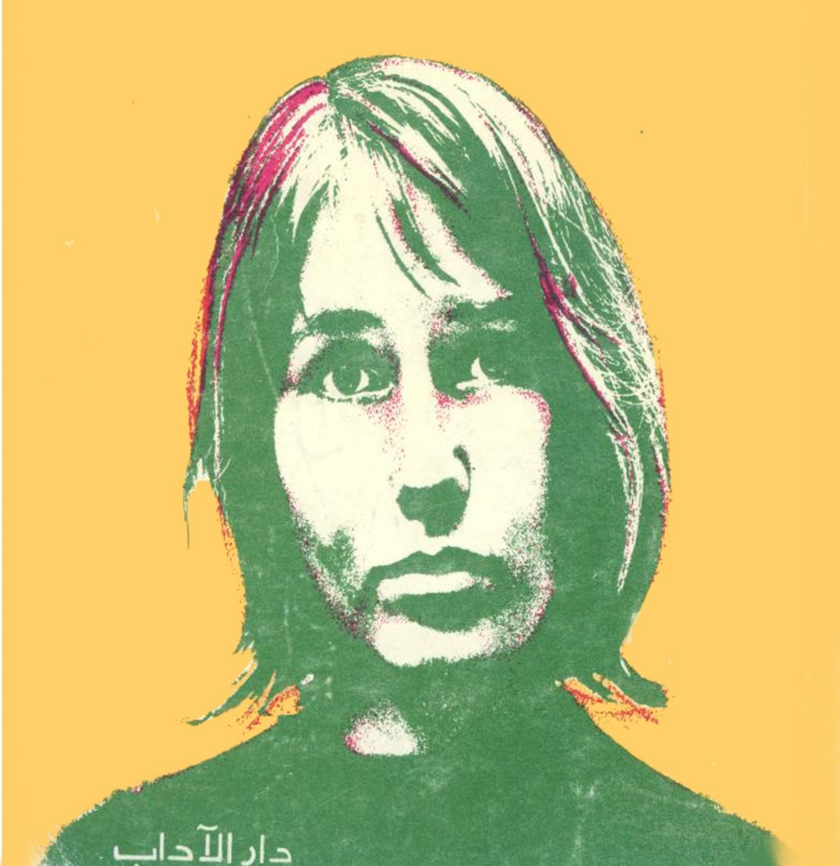
ريجيس دوبريه

# الثلج يشتعل

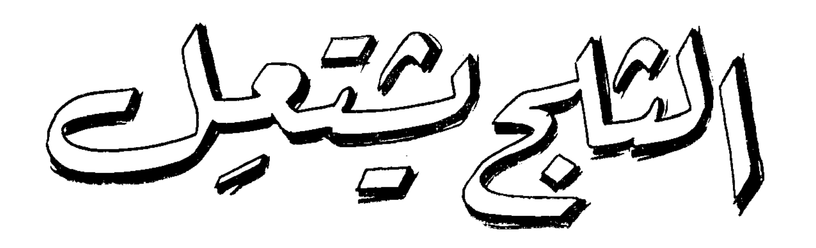
رواية

ترجمة الدكتور سهيل ادريس



دار الآداب

ريجيس دوبرية




نقله الى العربية

الدكتور سهيل ادريس

دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى

ايلول ( سبتمبر )١٩٨١

# الفَصـلُ الأوّل

كان ذلك في حدائق فندق كبير في ميرامار ، ضاحية هافانا . أما اليوم والساعة ، فأترك للمنجـّمين عناية تحديدهما. وسيجدون في ذلك مشقـّة : ذلك أن صُور البروج قاطعتنا منذ البداية . ولقد أجهدت ذاكرتي ، فلم أر إلا ّ بحراً هادئاً يُلامس ، بلا اقتناع ، خواصر شُرفة من الرنْد الزهريّ والنخيل. ولا زلت أسمع قرقرته بين الصخور المتكدـّسة في المستوى الأدنى من السدّ ، عند طرف الجون ، تجاه الأحجار القديمة الشقراء لقلعة اسبانية صغيرة . إن هذا الارتداد الموجيّ اللامبالي يُحدث ضجـّة عمقيـّة ليس لها عمر . وليس حفيف النخيل كذلك بالمؤشـّر المناسب . كانت الحياة هنا — بسيطة وهادئة . ولا بدّ أنها ما تزال كذلك . وستبقى هنا أبداً ، لا مبالية كأشجار جوز الهند ، تلك المنافض الريشيـّة العملاقة المغروزة من مقابضها في الخضير .

كان قيظ جزر الأنتي ينقعنا في مُلاح تلك الكآبة المضبّبة

التي تذوب فيها الأسابيع والشهور من تلقاء نفسها ، بدافع الجمود . السنة ؟ غير مؤكّدة . هي أيضاً ، على صورة تلك الحقبة التي غالباً ما تبدو فيها الكرة الأرضية وهي تتذبذب بين الحُمرة والسواد . تأرجحُ الأمل والكرب الذي كشَف في بضع سنوات ، ثم غطّى من جديد ، تلك القارّةَ التي أتيتُ منها والتي لن أذهب اليها بعدُ أبداً . لنقل ، إذا شئتم ، بين مصرع تشي غيفارا ومصرع سالفادور اللندي. إنني أتّخذ أعلى المسلاّت صُوىً ، ولكن على مضض : فذانك الاسمان اللذان ذاعا مؤخراً في كل مكان لم يكونا لنا رؤوس إعلانات أو فصول . لعلّ بامكانهما بين جميع الموتى الذن يعلّمون دربي بحجارةٍ صغيرة سوداء ذوّبها تخريبُ الزمن ، فغَدتْ غير مرئية للعين المجرّدة التي تكتفي بالمرور أو العبور — لعلّ بامكانهما أنْ يستوقفا لحظةً أوفر الأنظار تعباً .

ليس من اليسر أن يكون لامرىء تاريخٌ خاص حين يعوم على زمنه تتقاذفه المصادفات ، كفلّينة على الماء. والأصعب من ذلك أن يكون له قَدرَ ، ولا سيما إذا كان قصير البصر بعض الشيء ، وكانت ذاكرته تشكو ضعفاً في حفظ المواقيت أو الأحاديث المتبادلة عبر الأيام . إن الاستجابة لذلك الملقّن الذي يهمس في سقوف المسرح تقتضي أذناً مُرهفة وعيناً أوْسيّة ثاقبة . ولقد كنت مسدوداً بإحكام ، فلم أر تاريخي

مقبلاً عليّ ، أو أنه ، بالأحرى ، أقبل عليّ بخطوةٍ ذئبيّة ، فكان صديقي راوول القابع إلى جانبي هو الذي حيّاه قبل أن يواصل دربه من غير أن يراني . إن هذا التاريخ يشقّ الشمس مستقيماً أمامه ، وعلى كتفه ممسحة إسفنجيّة ، وشعره مشدودٌ في رأسيّة سوداء ، وهو يرتدي قميصاً مخططاً بالأزرق ذا أهداب معقودة على الخصر . هل أتيح لي وقت للتفكير « هوذا على الأقل تاريخ يعرف إلى أين هو ماضٍ » ؟

لقد تعوّدت . إن ملاحظة حضوري من الضعف بحيث أني أنا نفسي لا ألاحظه . إنني لم أخلق للأدوار الأولى، بل أنا أمضي في حياتي كيفما اتفق . إن دوري ، الشبيه بسكين ثانية ، وبلحظة غامضة ، وبنفعٍ قليل النفع أو عديمه ، ينحصر في تلقّي شظايا القصص التي تحدث للآخرين . حين يوشك أمرٌ ما فريدٌ بعض الشيء على التحقّق ، يحصل انحراف للحدث فينعطف على جاري ولا يصيبني بسوء . ولفرط ما ألامسه وأغازله ، يمكن أن يكون لي الحق ، كما يخيّل إليّ ، ببعض من قَدَر . حاولت كثيراً أن أحبّه ، ولكنه لا يحبّني . إن الصاعقة التي بهرتني غالباً ، تسقط كلّ مرة إلى جانب .

لم أغازل إيميلاّ قطّ . بل أنا لم أُولِ روحاتها وغدواتها كثيراً من الاهتمام . تلك الفتاة الطويلة المتحفّظة الشقراء ذات البُنية الألمانية ، لم تكن تحمل نجماً على جبينها . لم تكن

برقاً يجلجل الغيوم — كما هو شأن الشخصيات الروائية تلك التي لا تحسن إخفاء تمثيلها حين تدخل المسرح. لم تكن شرارةً تنبعث من الأنظار التي تتصادم . لقد حاولتُ طويلاً أن أنقّب ليلي ، أن أترصّد تلك الحياة الطويلة البيضاء التي لم تحمل لي نصيحة : ولكن بدلاً من أن تفقأ الظل ، إذا هي ظلّ ينبثق بهدوء من أعماق ضوءٍ ناعم ذي لمساتٍ صغيرة ، سالبة . إنني أرى طيفها يرتسم جانبياً ، شيئاً فشيئاً ، على هالة مزبودة : شمسنا الأولى . لقد عرفنا ، هي وأنا ، كثيراً من الشموس ، من نصف الكرة الأرضية إلى نصفها الآخر . عرفنا جميع أنواع الجنوب : جنوب « المدارات الإستوائية» الثقيل الدبق ، وجنوب الأودية الشيليّة المحتدم المشرّب بالسكّر ، في مطلع الربيع ، وجنوب السهول الأنْديّة المسنون كأنه من صوان ، وجنوب غابات بافاريا العليا الحامز المُزبد . يالها من مِزْلقة ! كلما صعد الانسان، كلما انشحذت الشمس وتخفّفت . وعلى مستوى البحر ، في مناخ الجنان السياحيّة ، يسبح المرء كأنه في الزيت .

هل كان « المشتري » في طالعها ؟ لم تكن أيميلا متفقة مع القمر الذي يُمسك الحسابات البيتية ، حسابات الطمث ونهايات الشهور . بل كانت تتبع مباشرةً « انتي» شمس «كاشويا » أرفع الآلهة « الأنكا » . هكذا كان يُسمّى رئيسها الذي هو أوّل من درّبها على خفايا التآمر البسيطة والصارمة،

قبل أن يسقط هو نفسه منطفئاً بقذيفة . ذات صباح مثلج من أيلول ، في لاباز . كان قَسَمُ ولاء يربطها بالمذكّر الخالد الذي كان قد جرّدها بالمقابل من الحجب والأبخرة الليلية التي تغطّي التقاليد بها نقيضه المؤنّث .

إن جمالاً نقيّاً ، على ما وُصف القاب ، لا يبتعث هذه الضروب المعطّرة من الهيجان ، ذلك الزبد المُقاق الذي هو أثر الحوريّات في المياه . من أجل هذا التقينا مرات عديدة من من غير أن يرى أحدنا الآخر : هي ، لأني عديم اللون ، وأنا ، لأنها لم تكن لها رائحة . لا سيما وأنها لم تكن تُرى قط وهي تعوم بين بابين ، أو تتأخّر على المائدة أو تتسكّع كالجميع في بهو الفندق . كانت تجري تحت أنفك ، مقذوفةً بمقلاع ما ، يحيط بها تركيزُ الشاردين ، تلك الهيئة المستغربة والغائبة في وقت واحد ، التي تجبرك على الاحترام مادامت لا تخصّ إلاّ العشّاق والمكلّفين بمهمّات . ليس لأنها تلجأ إلى تدابير الكبت ، تلك التي يتخذها سريعاً وجهٌ غربيّ عند اقتراب شخص مجهول ، ولكن هناك طريقة للاستعجال تحمي البسمات خيراً من جميع علامات البرودة . كانت تنزلق في الأروقة بوجه خشبيّ ولامبالاة مطاطة ؛ وعلى نحو عابر يعجز عن تذكيرك في اللحظة المناسبة بأنها كانت جميلة . أو أن الأمر لا يتطلّب كثيراً للايحاء بهذا الجمال : فهي تملك ذلك الشيء اليسير الذي لا يمكن التعبير عنه ،

ذلك التقزّح أو الترعّش الذي يحدّد ما يمكن تسميته امرأة جميلة . من الواضح أن لي أعذاري . لا سيّما أننا لم نكن نعرف أنه كان لها عشيق ، ولا علاقة تحزبيّة . حين يُسحب فيلمٌ شفّاف ، فلا بدّ من انتظار بضع دقائق حتى تتلون الصنيحة بمسّ الهواء . أما أنا ، فقد احتجتُ إلى بضعة أسابيع لأستطيع فكّ رموز شريكة المستقبل على ملامحها . ومن الصحيح أنها لم تكن تخرج كثيراً من غرفتها .

كنت أتردّد بانتظام إلى ذلك الفندق ، خاصة إلى الطابق الذي خصّصه « الأمن » للرفاق العابرين أو المتخفّين أو غير النظاميين . خليّة حقيقية . في النهار مرقدٌ ذو نخاريب مقطّعة ، ولكنه في الليل يأخذ في الطنين بالمؤمرات وخطط المعارك . وقد جئت أزور الرفاق في منظّمتي . أقول « منظمتي» لأختصر . والواقع أن الأمر كان أكثر تعقيداً . ذلك أن كارلوس ، أحد موسسي الحركة ، الوحيد الذي لا يزال حيّاً في الجانب البوليفي ، كان قد تأخّر . كان المفروض أن يصل من أوروبا ، وكنت أنا قادماً من التشيلي ، وكنا قد تواعدنا على اللقاء هناك ، في منتصف الطريق . أكانت قد وصلت أخيراً بعضُ أخباره ؟

ذلك اليوم ، لم يكتف راوول ، مسؤول الاتصالات ، بأن يجيبني بصوت مرتبك أنه لم يكن قد تلقّى بعدُ شيئاً .

بل حاول صرفي عن الموضوع :

– هل تعرف ميمي ؟

– أعرف واحدة تدعى بنسون . ولكنها « كليشيه » من بلدي فات أوانها ، وهي ليست قابلة للترجمة .

– يا لك من أبله ! أنا أكلّمك عن إميلا ... تلك التي تهتمّ بالإعلام .

– أتصوّر أنها هنديّة تعتمر قبعة مستديرة وسبع تنانير من قطن .

– لا : بل الشقراء التي التقيناها معاً ذلك اليوم ، قرب المسبح .

الذكرى الوحيدة التي عبرت خاطري عندئذ ، كانت طيف بطلة للسباحة . ربما ممرضة تحمل شهادة ، وعند الإقتضاء واحدة من الجهاز العسكري النسائي . لم تكن تملك هيئة المساعدات العسكريات ، ولم نكن بعدُ « جيشاً » ، ثم إن أقدامنا لم تكن بعد مستقرة كثيراً على « الأرض » . ومهما يكن من أمر ، فقد كان يبهجني أن تكون واحدة منا ، ولكن اكتشافي لها بهذا التأخير قد غمّني حقاً .

– صحيح ؟ ما كنت أظنّ هذا . الحق أنها ليست من طراز هندي على وجه الدقّة .

قال راوول : — لا تظنّ هذا . ليس في بلدي «شوليتاس» فقط بحجم بطاقة البريد . بل إن هناك آريات ذوات عيون زرق . لا تنس أن الجالية الألمانية تركت لها أحفاداً منذ وقت طويل . وأنها لا تختلط ...

— من أين هي ؟ وعائلتها ؟ من يعتني بها ، في المنظمة ؟ منذ متى ؟ متعاطفة أم مناضلة ؟ .

وأمام الأسئلة الخمسين التي كنت سأطرحها ، رفع راوول ذراعيه إلى السماء :

— إنك تسألني أكثر مما ينبغي ، وحتى لو كنت أعرف الأشياء ، فلا أستطيع أن أقولها لك . كل ما أعرفه هو أن كارلوس قد درّبها على « الإعلام » وأنها تجيد عملها :

عملٌ جهازيّ . وقد كان قسم « الاعلام » عندنا يتفرّع إلى قسمين : « إعلام مفتوح » ، أي صحافة وإذاعة ، من أجل الفرز والتحليل ، و « تجسّس » — تسمّع عند الخصم — لاكتشاف المؤامرات القادمة . نقيض « جبهة الجموع » : عمل خيّاطة تخاريمية ، براعة ومقصّ .

وأضاف صديقي :

— أنت تعلم أن ذلك قد أصبح بنُنيةً مُمَرْكزة . إنها تتبع مباشرة « للجنة المركزية » .

— سيزداد علمي كل يوم . حتى آخر أيامي .

– بانتظار ذلك ، تستطيع أن تساعدها . لا بدّ أنك التقطت أشياء هامة في التشيلي . والحقيقة أنها بسبيل اعداد تحليل للوضع يتخذه الرفاق أساساً للمناقشة .إنهم بذلك يصبحون أوثق اتصالاً بالبلد .

قلت وأنا أنهض : – ولِم لا ؟ .

وقد كنت أكون على خطأ لو انزعجت . كان ذلك في الطابق نفسه ، الباب الجانبي .

* * *

قدّمت لي الأريكة وجلست ثلاثة أرباع الجلسة أمام طاولتها . مكتب سكرتيرة حقيقي : آلة كاتبة ، سلّة للبريد ، ملفّات معدنية ، دفتر مذكّرات ، أقلام مبريّة . الغرفة كلّها مرتّبة ترتيباً مثالياً . على الجدار لوحة لهوشي منه ، بالأسلوب الشعبي ،وصورتان: لشي غيفارا ، وأنتي .بطاقات كثيرة : بوليفيا ، التشيلي ، الأرجنتين . مخطّطات على قياس كبير ، مرسومة باليد ، بألوان لبدية . ومن أبواب السطيحة ، كان الجون والبحر والسماء تغور في هذا المكتب الرسميّ أكثر مما ينبغي ، وكان الانعكاس يجعلني أقي وجهي بيدي ، كما لأنظر بعيداً .

ابتسمت لي في الشمس . قريبة جداً مني . بثياب رئيسة كشّافة : حذاء من مطاط ، بنطال أزرق ، وفوقه قميص

ذو كتفيّة منتفخ الجيوب ، من تلك التي يرتديها أفراد الميليشيا . بسمة من تلك البسمات الجاهزة ، « صريحة صادقة » لا توحي إلاّ بالقلق .

– أبلغني راوول أنك واصل لتوّك ، وأنك ربما كنت تملك أسراراً هامّة ....

اكتشفت سبب ضيقي : هذا « المراد » الذي يُزعج طبيعتها ولست أدري كيف أصفه . وحين تبتسم يرتسم في زاوية عينيها بعضُ تغضن : إنها تلامس الثلاثين .

– كما ترين ، أنا عائد لتوّي من التشيلي ؟

– وكيف يجري الأمر هناك ؟

– بين بين ، إنهم يُعدّون للانتخابات . وليس الأمر سيئاً بالنسبة لأ لندي والأصدقاء .

– هاه ! السعادة التي يحقّقها صندوق الاقتراع ... إنني أتمنى لهم كثيراً من المتعة .

– هذا ، على أي حال ، ليس مشكلتنا ، أليس كذلك ؟

– إنها ، مع ذلك ، مشكلتنا بعض الشيء . إذا سقطت التشيلي ، فلا أرى جيداً ما الذي ستنتهون اليه . ثم إنها المعركة نفسها .

– المعركة ؟ صحيح ؟

قالتها بلهجة من يقول : ولكن من يحسبون أنفسهم ، هؤلاء التشيليين الصغار الملمّعي الشّعر ؟ ليس في أوساط الطليعيّين افراطٌ في التواضع ، ولكن هذه الغطرسة كانت، في فمها ، ناشزة .

— إنهم يقومون بما يستطيعون . فاذا كان ما يستطيعونه قليلاً ، فمن هو المسؤول ؟

— أخبرني ... لقد كلمتني منذ لحظة بلهجة رسمية . ألستَ بعدُ من المنظمة ؟

— زلّة لسان . أعذريني : إنني شارد بعض الشيء.

أرتني رزمةً من قصاصات مدعوكة بعض الشيء كانت مشبوكة على أوراق بيض تحمل كل منها في أعلاها التاريخ والموضوع بحروف كبيرة بنفسجية ، وبرقيات وكالات بكمية كبيرة ومناشير :

— أتلقّى بين الفينة والفينة صحف لاباز متأخرة خمسة عشر يوماً في المتوسّط . أما الإذاعات فمن الصعب التقاطها. ولكن هناك تلكس الوكالات ، كل صباح : ليس من شيء مهم بالاجمال .

قلت بلهجة متأدّبة جداً وأنا أتصفّح الملفّ السميك:

— إنه عمل ممتاز حقاً ...

– أين كنت في التشيلي ؟

– في كل مكان تقريباً ... لا سيما في الشمال .

– لوقت طويل ؟

– لشهرين تقريباً .

– هل رأيت الرفاق ؟

– لا . لم يتح لي الوقت ذلك .

لا يمكن أن تقول الحقيقة لمن يستجوبك . سألتني مغتمّة :

– ولكن ماذا فعلت إذن ؟

– سباحة ، صيد ، حمّامات بحر . ولكني أفضّل هنا : فالماء أقل برودة .

بذلتْ جهداً لكي تبتسم : تغضّنت عيناها ، ولكنها لم تبتسم من قلبها .

– وأنتِ ، ألا تذهبين أبداً إلى شاطىء السباحة ؟

– لا مجال لديّ للهو والمزاح . قبل نهاية الاسبوع ، عليّ أن أسلّم الرفاق أطروحة . إذا لم تكن تريد مساعدتي ، فقلْ لي . سأتدبّر أمري وحدي . ولن تكون هذه المرة الأولى .

– لا تغضبي . بل إن بالامكان أن نعمل معاً في فرض العطلة الذي ينبغي أن تنجزيه . إذا وجدتِ ذلك مفيداً .

رأيت من اللياقة أن أحول دون خلاف ممكن في التقدير، فدعوتها للهبوط إلى المطعم – غرفة طعامنا في الطابق الأول. وكانت لنا فيه قاعات مخصّصة.

– هل تكفي شطيرة؟ كوب ماء أم عصير فاكهة؟

كان التلفون قد أصبح في يدها لتنادي «خدمة الغرف.»

– ما تُفضّلين.

وهكذا بقينا نمضغ خبزنا اليومي متبلّاً بماء معدني، فيما كنا نكتشف أصدقاء مشتركين في كوشابامبا، وسوكر ولاباز ...

واستطردت وهي تقطّب حاجبيها بعد أن ابتلعت لقمتها الأخيرة:

– وإذن؟ إن النظام في الدور الأخير من التحلّل، أليس كذلك؟ إننا لم نشهد من قبل أبداً مثل هذا الوضع الممتاز. هل تقرّني على ذلك؟

– بالنسبة لمن يملكون وسائل قَلْبه، نعم. وفي بوليفيا، لا يعوز اليمين العسكري مثل هذه الوسائل.

– ونحن، هل تظنّ أننا سنشبك أذرعنا؟ سوف ترى. إذا كانت الديكتاتورية ستعود كما من قبل ...

– لنبدأ ، يا ميمي ، برؤية الأشياء مواجهة .

انغمرت كلياً في تقرير طويل مفصّل عن ريح الوضع ، كما استطعت أن أتنشقها على الحدود . لنتجاوز التفاصيل . لم يسبق لبوليفيا أن أثارت اهتمام أحد في العالم ، ولا يملك الأشخاص الرصينون وقتاً يضيعونه في التفاصيل . وأن يقوم جنرالٌ قابل للمبادلة بحصد بضع مئات من عمّال المناجم والفلاحين بالرشّاش كلّ عام ، فوق هذا الهلال بين السماء والأرض ، إن ذلك لا يمكن أن يشكّل إلاّ تفصيلاً إضافياً. وأيّاً ما كان ، فان متوسّط الحياة ، في مناجم القصدير ، لا يبلغ الأربعين عاماً . فما العمل إذا كان عمال المناجم المصابون بتصوّن الرئة يفضّلون تبذير المئة والخمسين فرنكاً، راتبهم الشهري ، في المطعم ، على صرفها في الصيدليات – غير الموجودة على كل حال ؟ وهكذا، فاني لن أطيل التوقّف هنا عند هذه الترهات التي لا تعني الأشخاص الرصينين . ولم يكن ينقص إيميلا الرصانة . كانت قد أقامت وطنها على هذا النجم المذنّب الخشن المثلّج . بل هي قد اختارت أن تهتمّ بالغ الاهتمام بحاملي الرشّاشات وأن تنعزل في معسكر المرشوشين . ولكنها كانت هي أيضاً تنفر من التفاصيل .

قاطعتني بلهجة مُتعبة بعض الشيء ، فيما كنت أحدّثها عن الاتصالات التي كنت قد قمت بها مع أوساط مختلفة من المعارضة في المنفى ، فقالت :

— إن التناقضات داخل البورجوازية تسمح ، أيها الرفيق ، بهامش من المناورة أكبر . ولكنها لا تحلّ مشكلات الجموع . ولا بدّ أنك تعلم أن التناقض الرئيسي هو بين ....

نظرت اليها فاغر الفم . هي أيضاً : ربما بسبب جهلي المطبق .

— أفهم ذلك جيداً . ولكن السياسة لا تُمارس بالأمثال . إنها تصنع شهداء أو حماقات . أو الاثنين .

— ألا تؤمن بعدُ بالكفاح المسلّح ؟ أم أن المنظمة هي التي ليست بعدُ على المستوى ، في نظرك ؟

— بالعكس . الأفضل أن تهبط المنظمة قليلاً . لترى ما يجري في هذه الحياة الدنيا .

— القضية هي معرفة ما إذا كان المرء مؤمناً أو غير مؤمن بما يقوم به .

— وما الذي يُفعل الآن ؟

— تذكّرْ شيئاً يا بوريس : ليس ثمة من أفق لمن يبقون بمستوى الأرض ...

بالتأكيد ، أنا الذي لم أكن في المستوى . كانت «الثورة» التي كانت ترسم جانبيّتها في البعيد ، منبثقةً في مكان ما بين رأس هورن والأنتركتيك ، مجهولةً من علماء الجغرافيا

بقدر ما هي باهرة ، تتفوّق عليّ بكل شاقوليّتها الشبيهة بشاقوليّة جبل جليديّ .

نظرة أخيرة دائرية تمهيداً للانصراف . على الغرفة العارية ، المضيئة . وعلى الملفّات والخرائط الجدارية . على هذه الفتاة المحتشمة إلى هذا الحد ، المضيئة والعارية هي أيضاً. صدغاها المستقيمان ، أنفها المستقيم ، نظرتها المستقيمة . كان هذا القدر من الاستقامة يحيّرني . يقال إن المؤنّث يفضّل المائل . لقد كانت إيميلاّ تطرّق بكل قوّة المقرعة ، بوجه مكشوف ، من غير أن تخشى أن يُحكم عليها أو تُهاجم أو تُهزم . كما لو أني كنت أنا الغشّاش . وتلك الصراحة اللطيفة لطافةً غير قابلة للتفسير كانت تسحرني . عالمها المغلق ، ذو الجادّات المستقيمة والمقاسم اللامجدية ، عبثاً ما كنت أقول لنفسي إنه لم يكن من هذا العالم ، فقد كان يشقّ عليّ أن أغادره .

كانت توقّع ، منزعجةً ، على ملابس مُزرنخة لمسجل صوت . وارتفع فجأة في الهواء الراعش نغمٌ حلقيّ ، وأصبحت القاعة كلّها تدرّجاً ضوئياً كان الانتظار فيه يمتزج بالتنهّدات والغصّات ، والسماويّ بالجوفيّ . كان صوت أرجواني وأسود يصعد ويهبط من أخرويّة فيولونسيلات وفواصل — أكان تذكيراً أم تحذيراً ؟

— فيلا — لوبوس ، الباخيناس برازيليراس .

— هل تحبّين هذه الموسيقى ؟

— إنها تبعث فيّ بعض الخرف . ولكنها تترك عندي أثراً طيّباً . حين يُصبح كلّ شيء مفرط السهولة ...وأطير... أضع هذه الموسيقى ... فأعود إلى الأرض ...

أضفت بصوت خافت ، من غير تفكير :

— إلى الأرض أو تحتها ، سيّان .

كان كائن آخر ينظر إليّ . وقد بعثتْ هذه المجهولة رعشةً فيّ . كان وراء عينيها الزرقاوين المخضرّتين ، الشفافتين إلى حد بعيد ، أثر من ضيق انكماشي وأسود — بؤبؤ خفيّ خلف الآخر . لم يكن لي وصول إلاّ إلى عينيها العلنيتين ، عينيها النهاريتين. أكانت العينان الأخريان لا تنفتحان إلاّ في الليل ؟ أياً ما كان ، فذلك مِلْكٌ خاص محظورٌ الدخول اليه.

أُخذتُ على حين غرّة وأنا أحاول فكّ الحظر ، فلذت بالفرار منسحباً .

* * *

كيف ترانا قضينا على الضيق والإنزعاج ؟ تمّ ذلك بغير شظايا ولا ضربات فأس . لقد انشقّت من تلقاء نفسها ، حرفيّاً ، على مرّ الأيام ، تلك الأيام التي كانت تمضي دائرةً

بين شمس الصباحات الكئيبة والليالي المشرقة التي كنّا نحتسي فيها الروم تاركين نفسينا منزلقيْن الف عام إلى خلف ، في تلك الكآبة الهنديّة التي كانت تحملنا اليها أشرطتنا المسجّلة. قليل من « الكينا » — الناي الهنديّ المقدود غالباً من قصبة أحد اللامات — ، ومن مِصْفار طيْر ، وذلك الماندولين ذي الأوتار المنقورة على تِرْس أرمديل ، « الشارانغو » . يكفي هذه الرحلات فوق « الأند » التي يعود المرء منها مكتئب القلب ، ثقيل الساقين . كانت إميلا تشرب قليلاً ولكنها كانت آخر من ينطلق ، وقد أنعشتها هذه اللّقى مع موسيقى بلدٍ لم يكن بلدها بل كان أكثر من ذلك : مستودع أحلامها ، قصرها الثلجيّ ، هناك في الأعالي ، كوكباً ثابتاً فوق الدناءات. كنّا زهاء خمسة عشر ، وكانت هذه الاحتفالات المظلمة تنعش بيننا النار المشتركة . لم تكن نار معسكر ، ولكن الوان الوحدة كانت ، فيما نحن جالسون على البلاط حول زجاجة فارغة ، تذوب في تساوق وألفة ، كما في تلك المعسكرات الجبلية حيث يقعي رجال المقاومة المرتجفون في الظلام حول قدرٍ مليئة بحساءٍ رديء مركّز من الأرز والموز ، ولا يهمّ بعد ذلك الغذاء والتعب ما دام كلّ فرد يستطيع أن يتدفّأ بـ « النحن » القبليّة للجماعة . وقد أدركت أن إميلا ، بعدما عاشته في بلدها ، كانت لها حاجة ماديّة إلى هذه البدائل من الحياة المشتركة . كانت قادمةً من الوحدة والبرد ، أي

من حرب الغوار المدينيّة . وهي حرب بلا لباس عسكريّ تفصل المقاتلين أحدهم عن الآخر – كما يقتضي الأمن – وغالباً ما تضعهم في مواجهة أنفسهم أكثر منهم في مواجهة العدوّ . إن الاسم المستعار إلى الأبد . والحلّ الخاطف للمسلّحين بعد أصغر عمليّة . وفَصْل الوحدات .ودوران العربات والمنازل والافراد دوراناً غير منقطع . والمقاطعة المفروضة على كل فرد مع أهله وذويه وحيّه وأصدقائه . كل ذلك يضيع العقل ويجلب الجفاف . ولم تكن إيميلا قد عرفت من حياتها النضاليّة التي كانت بعدُ قصيرة . إلاّ خشونة المدن التي يتيه فيها المرء . تترصّده جميع العيون . ويحاصره جمعُ الأرصفة الهادر الذي لا وجه له . وما كان بعض الرفاق قد همسوا لي به عن ماضيها كان يجعلها في عينيّ أقلّ تعجرفاً . كنت أقترب منها . هي المتباعدة . إن المقاتل المدينيّ ناسك متوحّد في العصر . وهو يجعل من حياته صحراء يحجز فيها نفسه بشراسة حتى أنه لا بدّ من أن يرى في كل جدارٍ خَصاصاً . وهذا الجيش الطوعيّ لا يمارس كهنوته في ترافق يوميّ . كرجل المقاومة . ذلك الراهب القانونيّ . ولا يمكن لإيمانه أن يكون إلاّ تقشّفاً واعياً . إماتةً مستديمة . بلا شهود ولا زملاء . كان باب إيميلاّ . في رواقنا . أشدّ جميع الأبواب صمتاً .

حين كنت أنفرد براوول . كنت أقول له :

ـ صديقتك . ليست سوقيـّة جداً !

ـ ليس هذا خطأها . يا عزيزي . إن العمل هو الذي يفرض عليها ذلك .

ـ وخارج العمل ؟

ـ هذا شأنها . إن كل شخص يجرّب حظّه .

ـ أليست هي مع أحد ؟

ـ لا أدري . تحقّقْ من ذلك بنفسك !

فكرة سخيفة : كانت في منجى ، فظّة خلف بسماتها . أشدّ ملاسةً من أن تمكّن منها . لا تخفق أهدابها خفقة واحدة ، لا أحمر على وجنتيها ولا كحل على الجفنين . أبداً غائرة ، شفّافة . ولقد كان هذا التحفّظ يتبدّى شاذّاً كأنه تصرّف فظّ بين ذكور الفريق ذوي الصدور المنتفخة والأصوات المتعجرفة . ولكنّه كان يُبعد المفتّشين عن الغواني ويثبّط أدقّ المناورات . كانت تردّ سريعاً بالمثل على كلماتنا الخشنة ، وكانت طبيعيّتها تضع حدّاً للمجون . كان بوسعها أن تتباذأ عند الحاجة . وكان يكفيها ، كما يخيّل إليّ ، مجرّد بسمة حنوّ لتقطع أدنى أثر كهربائي في لقاء حميم . لم يكن بالامكان تصوّر امرأة أقلّ منها إغواءً ، ولا طبيعةً أقلّ احتداماً . إن القدر يطبخ ضرباته على مهل في الماء البارد .

لم يكن لكبريائي ، على أية حال ، أن تشكو من كبريائها أكثر مما ينبغي . وحين وقعت في يدي نسخة مصوّرة من تقريرها ، رأيت أن معظم ملاحظاتي ، التي احتُقرت في حينها ، كانت تمثُل في مكان جيّد من النسخة . وهذه المسرّة الصغيرة وضعت الكبرياء الذكوريّة جانباً ، فكان أن أصبحت أتردّد كلّ يوم على غرفتها . وانتقلنا من الثرثرة إلى المسارّة – على غير شعورٍ منا .

الرجال يتحدّثون ، والنساء يصغين . ولم نلبث أن قلبنا هذه الأدوار . أكانت بحاجةٍ إلى البوح ، وأنا إلى الصمت ؟ لم يكن مسموحاً ذكرُ الحاضر . هذا أفضل : فقد كان دَبِقاً . كان يبقى الأساسي : مِلْزمةُ الأصول ، وانطلاقاتنا المستقبلية . وقد رجع اليها ماضيها وهي تتحدّث ، وكانت تتوقّف عنده كلما أوغل في القدم . كانت تتحدّث عنه بلا لذّة ، ولكن من غير خجل : هذا ما صنعوه منّي ، قبل أن أتمكن من أن أصنع أنا نفسي . واكتشفت بفرحٍ أنها لم تكن ألمانية حقاً ، وإنما من كارنثيا ، بالقرب من فريشاخ ، في الألب الجنوبي – في قلب أوروبا . وقد قلت لها ذات يوم لأظهر أهميّة الأمر « ليس خبيثاً أن يولد المرء في النمسا » فأجابتني : « ليس هناك ما لا يمكن علاجه . لقد وُلدتَ أنت في فرنسا ». النمساويّ كان أباها ، وليست هي . وأمّها ؟ ماتت لا تدري أين ، بعد ولادتها بقليل . وأما هو ،

فمزروعٌ جيداً على ساقيه : في مزرعة ضائعة في قلب المفازة، غير بعيد عن الحدود البرازيلية . كان قد وصل إلى بوليفيا بعد الحرب ، حاملاً مداليات خدمة لامعة . قلت « كان يعاني بعض ألوان الضجر والضيق فأراد أن يبدّدها »؟ فغضبت وقالت مصحّحة «لا ، إفهمني جيّداً : لقد شارك في الحرب كالجميع ، ولم نأتِ مباشرةً بعد « الهزيمة »، ثم صحّحت ثانية : « ماذا تريد ، هكذا كانوا يقولون في العائلة » تقصد عائلتها : تلك التي لم تَختَرها . ولكنها كانت تعبد أباها المغامر . كان قد امتهن جميع المهن : مُرشد جبليّ ، بطل في التزلّج ، مستكشف ، رجل سينمائيّ ، ضابط ، قبل أن يتوقّف عند مهنة الرائد . وكانت هي في السادسة عشرة حين اصطحبها في مهمّة استكشاف عند تخوم بوليفيا والبرازيل . إلى اليوم الذي تعبا فيه من الجِذْعيّات [1] والناموسيات المثقوبة ، فبنيا بيتاً من الحجر في منطقة ضائعة من « البني» بين الغوابوريه والماموريه، توصف بأنها مستعمرة زراعية لم يكن أحد من المعمّرين يخاطر في دخولها . وعلى هذا النحو أخذ « المخاطر بكل شيء » يربّي الخنازير ، مع ابنته . من غابة إلى أخرى ، إجمالاً . طفولة بين أشجار التنّوب ، ويفاعة طويلة بين المعترشات والقابوق .

---

(١) الجذعية : زورق يصنع بتجويف جذع شجرة .

كانت ، وهي ترتدّ بالسنوات إلى الوراء ، تعود فتصبح صبيّة عفريتة أوشك أن أشدّ لها شعرها . كما لو أنها كانت تكتشف في وقت واحدٍ معي مذاق تلك الطفولة التي كان كل شيء فيها غريباً عليّ . مذاق « الريدلنغ » ، الحلوى بالقرفة . قلوب من كعك الأبازير مُزيّنة بزهور من السكّر الورديّ والأزرق السماويّ ، ملفوف بقليّ كان يوضع خريفاً في البرميل مع الكمّون . قطع لحم كبيرة وشُمرة تُنقع طوال الشتاء تحت حجرة ضخمة ليُصنع منها شُكروت [١] السنة . مذاق « الكنوديل » ، تلك الكريّات الدائمة من الحنطة والشحم المرشوشة بمسحوق الخبز المحمّص . وتلك الرائحة من الصمغ والكرز الحامز التي هي رائحة المقاصير النمساوية . المنزل العائلي الكبير التي تصفه بأنه « السكلوس » — لقاعات الصيد ، في النمسا ، ترتفع إلى سرّ « القصر » — بسقفه الكبير من القرميد الأسود المنحرف الزوايا ، وقُبّته المروّسة التي كان يرنّ فيها جرسُ الغداء ، ودرج مدخله من الخشب المفرّغ ، وأعمدته وشرفاته المصبوغة بزخارف سودٍ وحمر . من هناك ، كنا نتناول مفتاح الحقول . وكانت تأخذني في الزلاّجة لننصب الأفخاخ للمراميط والثعالب ( وكان أحدها قد ذبح وحمل في الثلج ليلاً الشادنَ الذي كانت تربّيه هي

(١) كرنب مخلل ومملح .

نفسها بالرضّاعة ) . كانت تأخذني إلى الكرنفال ، وكانت تمضي في الثلوج ، متنكّرة بزيّ الحمامة ، من بيت إلى بيت ، مع جميع أولاد الوادي ، لتجمع في سلّتها الفطائر بالمشمش والشلنات الصفر ما دامت لا تُعرف تحت قناعها . أو تأخذني إلى تلك الجنازة الجبلية ، تلك المأدبة الفاخرة حول الجثمان لمدة ثلاثة أيام ، في منزل المتوفّى ، حيث يشرب المرء الشنبص ويأكل شحم الخنزير ، قبل أن تبدأ العربات تطوافها البطيء حتى تبلغ المقبرة خلف الكنيسة ، حيث تجلس النساء في جانب ، والرجال في آخر . أما الجوقة المختلطة التي تلتقي أمام الكنيسة ، فتبتهج حول صاري الحلوى ، أعلى جذع عمود في البلد الذي يُزرع أول أحدٍ من أيار ، ثم يوضع في المزاد بعد الحصاد ، أول أحد من أيلول ، لا من أجل تاجه من لحم الخنزير ، بل لتقطيعه أجزاء . وتمرّ الأعوام ، وتكسر بيت اللعبة التي كانتها ، وهاهي ذي تخرج عند مطلع الفجر ، الغدّارة على كتفها ، إلى جانب أبيها الجنديّ القديم . وتتسلّ خفيةً ، برغم سنّها وجنسها . في أخَويّة الصيّادين . تكنّ الاحترام نفسه للطرائد ولطقوس الترصّد الشديدة الدّقة . وتتعلّم أن تمشي في الغابة صامتة ، وأن تعثر على دربها في متاهة المخارف والمسارب ، وفي تلك المنحدرات التي تغطّيها ، طوال ستة أشهرٍ على اثني عشر

شهراً ، جَزّة الحَمل تلك الثنائية اللون ، ذلك الزبد الصوفيّ الذي تمتزج فيه خضرةُ الأرزيّة الرقيقة بدُكْنة التنوب . وإن تباغت ديك الخلنج الأسود الأحمر ، عند شعاعات الفجر الأولى ، في مطلع الربيع ، جاثماً على أرزيّته ، هادلاً للموت . وأن تميّز اليحامير من الأيائل التي كان لكلّ منها ، في المزرعة ، اسمه الخاص وقصّته ونقائصه وقرونه السنوية التي يُعثر على خلائفها في الثلج فتُعلّق على الجدران . وأن تتعرّف عمر الأيّل وقيمته من عدد الشُعب في قرنيْه ، ومن لون العروق المتراوحة الاحمرار ، ومن بياض العاج في الأصابع ، ومن عدد اللآلىء في الأطرة . وأن تغذّيها بالجفيف والملح ، وأن تشدّها من جَوْشب الكتف ، إذا سمحت لها السنّ بذلك ، خشية أن تجرحها أو تؤلمها ، وأن تفرغها سريعاً بالخنجر ، تجنّباً الانحلال . حتى ذلك الصباح الذي قدّم لها أبوها أضراس أيّل مُسنّ في الخامسة عشرة :

ومنذ ذلك اليوم ، لم يبق لها ما تخافه ، وأصبح باستطاعتها أن تنطلق وحدها ، بلا وصيّ ولا حارس صيد .

كانت ترسم معي مرةً أخرى درب طفولتها وحداثتها ، ولكنها تبدو أكثر تفاجوءاً مني بنضارة ما كانت تعيشه ثانيةً وهي تروي . كانت تقول لي بلهجة عتاب : « إنها المرة الأولى . ليس لي ماضٍ ولا أريد ماضياً . لقد قاطعت أبي ، وربما لم يتغيّر عليّ شيء ». ولم أحصل منها إلاّ على شذرات

عن رحلتهم إلى أميركا . ولكنها تركت لي فقط أن أحزر
أنها عاشت زواجاً فاشلاً مع مهندس مناجم ألماني كانت قد
تعرّفت عليه في لاباز ، أثناء العطلة . كان يعمل لصالح
« كونيكوت كومباني » ، وقد ذهب الزوجان الشابّان
يقيمان في التشيلي ، في منجم للنحاس ، أو بالأحرى في
الأحياء المخصّصة للملاكات الأميركية والألمانيـــة :
غولف ، كرة مضرب ، مسبح ، مدارس خاصة للأطفال.
ولقد اكتشفت المتوحّشة ذات الأربعة والعشرين عاماً الحياة
المدنيّة دُفعةً واحدة : التمييز بسبب لون البشرة ، جدار
المال ، صراع أرباب العمل ، خضوع الآخرين ، فوارق
المواليد . وأنه كان أسهل عليها وأهون أن تواجه نظرة حيوانٍ
واقع في ضيق شديد من أن ترى بشراً يُذلّون أمامها وقد
خفضوا أبصارهم . وكان زوجها الشاب قد بدأ يُحبّ ،
في الأسواق البوليفية ، أن يقذف في الهواء قطعاً نقديّة ،
وسط الجموع ، لينعم برؤية الهنود وهم يرتمون أرضاً
متنازعين من يكون السابق لالتقاطها في التراب . كان هو
يضحك ويلتقط الصور ، بينما كانوا هم يتضاربون وقد
شدّوا على أسنانهم وسالت وجوههم بالعرق . أما هي ،
فكانت تصرف عينيها ، واضعةً هذه اللحظات الرديئة على
حساب السياحة ومباذلها . وقد أرادت ، في منجم «التانيانت»
اعطاء دروس لأولاد عمّال المناجم ، تزجيةً للوقت . لكن

زوجها أصيب بغثيان فمنعها من ذلك . كان يريدها حصراً لاعبة غوالف مُتخلّعة ، العصا على كتفها ، بحذائين واطئين ، وتنوّرة اسكتلندية ، وصدرة وقبعة من «التويد »، وهي تستدير برشاقة على عشب « البيض » . والصورة كانت تناسبها حقاً . وبعد فترة، ذهبت اليه في المكتب ، بعد حَبْسة « أزمة » شعرت بها ، فرأته يصفع بكل قواه عامل منجم شيليّاً مسنّاً . ويطرده خارجاً ، وهو هنديّ أعرج أتى يطلب منه عملاً للمرة الخامسة . على جاري عادته ، ليتظاهر أمامها بالقوّة ، أو ليريها كيف ينبغي التصرّف مع « هؤلاء البشر» ؟ إنها لم تطرح السؤال على نفسها . ولكنها أحسّت بالخجل ، ورفضت أن تخفض رأسها وتركته بعد ذلك بيومين . وبعد ذلك ، صمت مطبق . كان دربانا يتفرّعان في اللحظة نفسها التي كان يُفترض أن يلتقيا .

ماذا كان باقياً لها من هذا كلّه ؟

— أتريد حقاً أن تعرف ؟ إذن ، انتظر وأغمض عينيك.

دُرج ينزلق ، ومفتاحٌ يُدار ، وفتحت عينيّ . أخرجت إيميلاّ من صندوق خشبيّ صغير مُغلّف بجلدٍ مقلوب حزاماً رائعاً ذا حلقات من فضّة ، مرصّعاً بجواهرَ عاجية معلّقة هنا وهناك .

— النمسا ، لقد نسيتها . ولكن انظر : هنا سنّا الأيّل

اللتان أهداهما أبي إليّ يوم بلغت الخامسة عشرة . هناك براثن مرموط . وإلى جانب ناب خنزير بريّ ... إنني لا ألبس الجواهر ، ولكن هذا هو طلسمي . إنه ، حتى الساعة ، لم يتركني .

وماذا كان باقياً لي ، أنا ، من هذه الذكريات التي تتخذ شكل اعترافات ؟ ربّما ، ثقتها. شيء ما أشبه بتواطؤ جديد . كنا كلانا أوروبيين ، مجتثّين في سنّ متأخّرة ، وكانت مُدنُ شبابي تساوي ، على صعيد الغرابة ، غاباتها الكرنثينيّة ، كنّا أشدّ تشابهاً ، على نحو ما ، من أن يتألم أحدنا من الآخر ، من أن نتجاذب دُفعةً واحدة بشكل غير قابل للمعالجة ، أقصد : جسديّ . ولكننا كنا كذلك أشدّ تشابهاً من أن يستطيع أحدنا ، بعد الآن ، أن يولي الآخر ظهره بلا تحذير . أتراني كنت قد وجدت صِنْوي ؟ كان بامكاني أن أقول كذلك نقيضي : إن عالم الطفولة مُغلق دوني ، عالم الطبيعة الأكمد ، ولم أكن أنبس بكلمة عن الماضي . كانت أمامي النسخة الأصلية التي لم أكن إلاّ صورتها المزيّفة . الجوهر المتجسّد لكل ما كان ينقصني : ملكة الاضطلاع بالنفس،وأن يفرض الانسان نفسه على المصادفة والاتفاق وألاّ يخضع لتحوّلاته الذاتيّة . إن من البديهيّ أن صديقتي الجديدة قد استحقّت ما كان يحدث لها ، إن لم تكن قد أرادته حقاً . من هنا تلك الطريقة التي كانت لها بأن تحمل

عبر البلدان والأضواء هويّةً لا تتبدّل . في حين أنّ أية لغة جديدة ، أيّ عطر جديد ، أيّ شكل من أشكال الشمس . كل ذلك كان يوجع قلبي ويقلب عقلي رأساً على عقب .

* * *

بسبب لَبْسٍ بذلت كلّ جهدي لتبديده . كانت إيميلا قد ظنّتني منذ البدء قائداً . وكانت تصنّفني في عداد المختارين ، أولئك الذين يحملون في نفوسهم شيئاً مفرط العظمة لن يفلتوا من خطره . بينما كانت ترى نفسها هي مجعولة لتبقى في المكتب وتخدم على المائدة مدعويّ القَدَر . وأن أدلّ على أنها كانت ترى كلّ شيئاً بالمقلوب ، هذا ما بدا لها مزاحاً رديئاً من قِبَلي وعلامةً على تواضع يفوق قدرة البشر ! كانت بطبيعتها متواضعة ، ولكنها لم تكن تحتمل المزاح . كان ثمة في رأيها من هم مختارون ، والآخرون . ولم يكن في اليد حيلة تجاه ذلك ، وكانت محاولة إثبات العكس هي من قبيل التدنيس . أم أنها كانت أشدّ حشمةً من أن تقبل حقيقتها ؟ إن كلّ ما كان يمكن أن يَضعها في مجال الضوء يقلقها ويُحزنها .

أذكر أني ذات مساء ، ونحن على شرفة غرفتها ، قرأت لها بصوتٍ عالٍ عبارة تشي غيفارا المعروفة « اسمحوا لي أن أقول لكم ، حتّى ولو كنت أخاطر بأن أبدو مضحكاً ،

إنّ الثوريّ الحقيقيّ مقود بمشاعر حبّ عظيمة ». وقد كانت هذه البدهيّة ، في وضعنا ، صعبة على التفسير صعوبتها على التطبيق ، وتابعت وأنا أرفع صوتي ( وبعض تفخيم في الكلام لم يكن يضرّني عند الشمس الغاربة ) :

– إن الثورة ، لو تعلمين ، ليست من ديناميت ، بل من هندسة معمارية . ليست هي المأساة ، بل هي العيد والمهرجان . هذا هو تعليم التشي . مع الأسف ، حين يواجه المرء ساديين ، فيجب أن يحذفهم – ليبقى .

قالت بشيء من الكآبة :

– نعم ، رئيس الاستخبارات العسكرية ... لقد آن الأوان لسلخ جلده ، هذا الرجل .

– ترين إذن ، يا ميمي ، يجب تصفيةُ « انايا » بدافع من حب . من يستطيع أن يفهم ذلك ؟ هل تستطيعين أنت أن تُفهميه ؟ أتتصوّرين نفسك وأنت تشرحين ذلك لقضاةٍ أو لرجال شرطة ؟ افترضي أنك استطعت يوماً أن تطلقي عليه. إنهم يأخذونك ....

– لن يأخذوني ...

– ولكن افترضي ذلك ، يا ميمي ، على سبيل التمثيل ، يحقّ للمرء أن يتسلّى قليلاً . إنك تتخيّلين المشهد : المكتب ، الاستجواب ، رجال الشرطة تجاهك ...

– إذا أخذوني حيّة ، فلن يكون ثمة استجواب من هذا النوع . أنت تعرف أدقّ الحيَل : عارية ، وعلى رأسي الجبّة الكاغولية ، وعلى الفور إلى « البارّيا » ( العارضة المعدنية التي يعلّق عليها السجين ، متباعد الساقين ، لتمرير المجرى الكهربائي حتى ٢٠٠ فولت ، لأن ٢٢٠ فولتاً تعني الصعق المباشر بالكهرباء ، وأمثال « انايا » هم من المُرهفين الذين يعرفون أن يعيشوا ويقتلوا بهدوء ، آخذين ملء وقتهم ) وبعد ذلك يغتصبونني . أو قبل ذلك . ثم يحقنني الأطباء في الحلق بابرة الكورار[1] – تلك التي تخنق تدريجياً . ثم يصنعون بي ما يصنعونه بالجميع . وأكثر من ذلك بقليل . لأن «انايا» ذو طوطمهم المتنقّل . إنهم يجعلوننا ندفع ثمنه غالياً .

– افترضي أن يكون ذلك في أوروبا ، حيثما كان . في أوروبا شرطةٌ ممدّنة ، مع محامين ومحاكم وقضاة تحقيق. بل إن هناك تشريعاً خاصّاً للسجناء السياسيين .

– هذا أجمل من أن يكون حقيقة ، وأنت تسخر مني . حتى ولو كان ما تقوله صحيحاً . فان « انايا » ليس من نوع الذين يتسكّعون في أوروبا .

– ولكن افترضي ذلك ! انظري ، إنني أقلّد الأصوات ،

---

(١) مادة تستخرج من بعض النباتات استعملها هنود اميركا لتسميم السهام وتستخدم طبياً لإحداث الاسترخاء العضلي ( هـ.م )

أمثّل . قاضي التحقيق : « لماذا قتلتِ هذا السيّد ؟ إن هيئتك لطيفة ، فالأمر ، يا آنسة ، غير مفهوم »! أنتِ : « قتلتُه بدافع من الحبّ ، يا سيدي القاضي » ، هو : « ألا ترين ، يا آنسة ، أن بالامكان أن يحبّ الانسانُ بنفقات أقلّ » ؟ أنتِ : « إن المرء يفعل ما يستطيع ، يا سيدي القاضي .حين أحاوِل أن أفعل كما يفعل الجميع ، لا يُعترف بصنيعي أبداً». وهنا ، الاستشهاد بعبارة التشي . والتأثير يكون عظيماً .

إخفاق كامل . كانت إيميلا قد أصغت إلى كل شيء ، ولكنها لم تبتسم : بل كان وجهها كلّه أحمر . أخجلها أن يستطيع أحــد السخرية والاستهزاء بشيء في مثل خطورة إعدام جلواز أو عناق غراميّ .

ـ ميمي ، أتعرفين لماذا لا تحبّين مزاحي ؟

ـ لأن المرء لا يمزح مع الأمور الجديّة .

ـ أنت تخطئين هنا بالضبط . فبسبب أن الأمور جدّية ، فيجب المزاح معها . وإلاّ لم يكن هناك جدارة ولا استحقاق.

ـ إنك لمغفّل أكثر مما كنت أقدّر .

كان تفكيرها صائباً . ولكنني كنت أفضل المواربة على أن أقول لها الحقيقة فجأة : وهي أن الأمور الجديّة إنما صُنعت ، بعد فوات الأوان ، بالمزاح . كانت تعبد النِّسَب والأبعاد ، وكانت تعتبرني كافراً حين كنت أروي لها

بالتفصيل حرب عصاباتنا السابقة التي لم تكن تريد أن ترى فيها ، بسخاء النظرات المتعالية ، إلا حركة عمالقةٍ متماسكة. وعلى مستوى الانسان ، كان لا بدّ من التفصيل . كانت إميلاّ ترى أشياء الحياة الصغيرة مصغّرة ، وكانت تظلّ ترى الأشياء الكبيرة مكبّرة ، بدافع من سذاجة أو من احترام للمواضعات . فكان يترتّب عليّ أنا أن أردّها إلى الواقع بتذكيرها ، مثلاً ، بالاثارات الهزلية أو ألوان اللّبْس التي تدين لها بالبقاء على قيد الحياة والتي كان قد رواها لي رفاقها وهم يربتون على أفخاذهم .

ــ ولكن تذكّري هجوم الرفاق الأول على أحد المصارف حين كنت لا تزالين بعدُ في ذلك البيت الجميل في لاباز ، وأنهم كانوا قد طلبوا منك إخفاء الغنيمة في بيتك . ألم تكن تلك مزحة ؟ وما كدت تدخلين ، وفي يدك اليمنى بعدُ الحقيبة المحشوة بقطع النقود ، وفي اليسرى كيس الغولف وفيه الرشيشات ، حتى طرق جارك الباب ممتقع اللون ليقول « اعذريني ، يا آنسة ، لقد سمعت في الراديو أنه حدث هجوم مسلّح في الوسط ، وأن حالة الحصار سيعاد فرضُها وسيقومون بالتفتيش في كل مكان، هذه الليلة . ألا تستطيعين أن تأخذي منّي هذه الصحف وهذه الكراريس ... لهذه الليلة فقط ... أنت ، ليس لك أن تخافي شيئاً ... أما إذا

حطّوا رحالهم عندي ووجدوا مجموعة من صحف المعارضة.. فأنت تفهمين ...» وكان أن أخذت تطمئنين الرجل الذي تصطك أسنانه ثم اصطحبته إلى بيته « ولكن بكل تأكيد ... تستطيع أن تعتمد عليّ ... فهنا ، هنا بيت الله الرحيم ... أنت في مكان أمين ...».

وكان عندي أجمل من هذا ما أرويه لها عنّي ، أو أكثر مزاحاً . ولم أكن أحرم نفسي من ذلك دائماً . وكانت معجزاتنا القديمة الغريبة تبسط أساريرها قليلاً . حتى الندم النهائي :

– أجل ، ولكن نحن لم تكن الأمور جادّة في حسابنا . لم نكن إلاّ رجالاً ونساء .. جماعة ما ... أما أنتم ...

– بكناناتنا وقبعاتنا العريضة وشواربنا الطويلة المزيّتة... صحيح أننا لم نكن على الاطلاق رديئي المنظر . أما كفرسان مكسيكيين مشهّرة ، كما يُرون من هوليوود ...

كانت وقاحتي وقهقهاتي تمزّقها . وكانت ، وهي المتكلّفة الاحترام والقصيرة البصر ( الواحدة بسبب الأخرى ) تُحملق أمام هذه الصفوف من التماثيل الضخمة الأسطورية إلى حدّ ما ، التي كان البشر ينصبونها على طول طُرُقهم ليعطوا أنفسهم فكرةً أفضل عن أنفسهم . إن الأحياء ، الواطئين أكثر مما ينبغي على أقدامهم ، هم بحاجة لتكبير

أنفسهم ورفعها في ظلّ الأموات العظام . وقد كانت حركاتي واشاراتي الصبيانية تستطيع على الأكثر ، حين تؤخذ في هذا الإطار ، أن تُعتبر قفزات فجائية . كانت إيميلا تعتبرني شيئاً آخر غير بهلوان حبال غريب لأني كنت قد عاشرت نصف إله وبعض الأبطال الحقيقيين . وكنت أقسم لها بأنني لم أفعل ذلك تقصّداً . ما يهمّ : فقد كنت عائداً من الظل ، ممتزجاً بظلال كثيرة مجيدة إلى حدّ أن شمساً سوداء كانت تكلّلني في عينيها بهالةٍ غير مُستحقّة . كان رؤسائي يعون . بوصفهم محترفي المخاطرة . أني لم يكن لي كبير دخْل في الأمر . كانوا يعرفون بالتجربة أن السياسة كالحرب تكمنان في تنظيم ما ليس متوقّعاً والإفادة من العوارض. أما بالنسبة اليها . فان الطارىء لم يكن موجوداً . بحيث أن نعمةَ من كان رئيسنا كانت تعود فتفيض حتى على أصغر مرؤوس فينا . وإذ لم تكن تُفلح في مدّ جسرٍ بين القصص الحقيقية الصغيرة التي كنت أرويها لها على سبيل التسلية وبين قدر غيفارا الأسطوري « قائد أميركا » . كانت تختار اعتبار الأولى نزوات بهلوان . كيف كان لي أن أفهمها إنه يحدث للناس ، مصادفة ، أشياء أكبر منهم كثيراً ؟ وأن ليس ثمة من هو مسؤول عن الرجال العظام الذين يلتقيهم في الطريق ؟ كلّ ما كان يمكن أن يُتعلّم ، كانت إيميلاّ قد تعلّمته أو هي بسبيل تعلّمه : تفكيك المسدسات الرشاشة ،

حلّ الشفرة . مراقبة – مضادّة في المدينة . قوانين «الجدلية» الخمسة . وأن تكون آخر من يتكلّم خلال الاجتماعات النضاليّة . وكان باقياً لها أن تكتشف بؤس الأساطير . هذا التشبيك من الخفايا والارتجالات . هذا النسيج البئس من التفاهات الذي تقتطع فيه «الثروة» أجمل نماذجها . إن «التاريخ» يفصّل أثواب حفلاته من الصوف نفسه الذي يقصّ منه أثوابه المدينيّة . ذلك هو سرّ غير قابل للنقل لا يتركز نه يجري في الكتب ولا في معسكرات التدريب .إنه يُخرَج من الركام ويُحمل إلى الحفرة . والباقون على قيد الحياة – حين يكون ثمة باقون – هم أخبث من أن يرتكبوا الوشاية . ولكن ربما كان لؤماً مني – بعد كل حساب – أن أتصوّر أن إيميلا كان بامكانها أن تحتفظ بمثلها الأعلى إذا فقدت أوهامها .

* * *

كان أيلول يزحف . وليس من خبر عن كارلوس . ثم بلغتنا أخيراً برقية : دعوة مفاجئة إلى كوريا الشمالية . ولن يكون هنا قبل مرور شهر على الأقلّ . كانت البرقية تعلن : خمسة عشر يوماً ، ولكن بالامكان توسيع الفترة بإدراج قوس أو قوسين معقوفتين لجمعية الاستهلاك . وقد تنهّدت إيميلا : مستسلمةً للأسوأ «ولماذا لا تكون باريس .

ما دام هو فيها ! » فأجبتها « إنه يخطىء إذا حرم نفسه . إن ما ترقصينه يوماً أو تشربينه . ليس ثمّة أحد ينتزعه منك ». ألم تكن الانفلاتات في أوروبا الغربية مغطّاة بالحكمة نفسها التي يتبعها رجال العصابات في مآدب اللقاءات الجبليّة : التهموا ما تستطيعون التهامه ، كدفعةٍ على حساب ما لن تستطيعوا أكله فيما بعد ؟ ولكن المزعج أنه كان قد أُعدّ لنا ، لهذا الشهر بالذات ، تدريب صغير للتقنيّات المدينيّة. ولئن كان للاحتياطيين السويسريين فترة استدعاء ، فبامكاننا ، كارلوس وأنا ، أن نمنح نفسينا مثلها . وكانت السلطات قد حرّرت لنا ، نحن الاثنين ، قسماً كاملاً من أقرب معسكر للتدريب . واحتفظت لذلك الموعد بمدرّبين مختارين بدقّة. إن هناك دائماً ما يجدر أخذه ، حتى ولو لم يعد المرء حديث عهد بالانضواء . وفي الدقيقة الأخيرة ، اقترحتُ على الأصدقاء إحلال إيميلا محل كارلوس : ألم يكن لها تدريبٌ مُشابه على البرنامج — ولو أقــلّ تخصّصاً ؟ فالأفضل إذن تحقيق ضربتين بحجرٍ واحد .

مزاوجة بلا فكرة مسبّقة . أقسم أن اقتراحي كان متجرّداً . إن هذه التدريبات الإضافية تتيح المحافظة على الشكل . من غير أن ننسى أن هناك أشكالاً فارغة ، وأن الارتكاسات الجيّدة لا تخلق مقاتلين جيّدين . وهذا النظام، إنما كنت أفرضه على نفسي لأشدّ ثانية نوابضي . وأعاكس

تحفّظاتي وتردّداتي . إن من كانت له مغريات ثقافية ينبغي أن يرشح ، بين الحين والحين ، بشحم القراءات النتن . وتقلّبات الفكر وانعطافاته ، وهي لوالب تلتفّ بلا نهاية حول غاية الاشتراكية ومعنى الحياة في المجتمع ، فتفقدك الصواب وتضلّلك عبثاً . وحين أبلغ الرفاق إيميلاّ أن عليها أن تغيّر قريباً طراز حياتها ، أطلقت لفرحتها العنان . وسرعان ما راحت ترهقني بالأسئلة عن البرنامج ومحتوى الدروس. وكان لا بدّ للمسكينة أن تكفكف من ذلك حين رأت الحماس الضعيف الذي باشرت به علاج القضاء على التسمّم .

كان شغفي الغبيّ بالسلاح قد غادرني منذ وقت طويل. ولكني لم أكن أنفر من استعماله : كنت أستسلم لذلك . لنقل إني كنت أحسن استعماله . أما هي فلا — أو فقط من أجل الردع . وقد استعملت ذات يوم غدّارة . والغدّارة — وهي م٢ أميركية — استعملتني لتقوم بما تقوم به الغدّارات حين تسدّد فوهاتها على بعد خمسة وعشرين متراً إلى مجهول لا يراك . كان ذلك قبل خمسة أعوام عند طرف غابة تلك « الحالة من الحرب الداخلية » كما يقول القانونيّون المزيّنون بشرائط الذين يحرّرون المراسيم ، في ذلك البلد ، حين كنّا نرى النصر في متناول البندقية . ليس في الحرب جريمة قتل ، ولكن ليس أشبه بالاغتيال بعدُ من كمينٍ أول . في الوقت الذي ليس العدوّ فيه بعدُ إلاّ لباساً عسكرياً مجرّداً ، شبحاً

مخضرّاً يمشي عكس التيّار . قدماه في الماء . وسط منفرج بين جبلين . أجل . كنت قد رأيت ذات يوم . وأنا مشدوه بسماع الانفجار على هذا القرب الشديد . وما تزال السبّابة متحيّرة على الزناد – رأيت بين الأشجار غريباً يسقط في خطّ تسديدي . فتى بلا وجه ما كان لي أيّ حقّ في احتقاره. أو بالأحرى : ما كنت أستطيع أن أحقد عليه إلاّ إذا فكرت وحاكمت . ولم تكن لي في ذلك رغبة . والأسوأ من ذلك، في نهاية النهايات : أن أذهب لألتقط . أمام الذين كانوا لا يزالون أحياء ، وأذرعتهم في الهواء . ذلك الجسدَ الذي كانت تهزّه الشهقات . وألتقط أيضاً ، بالاضافة إلى بندقيته وأمشاطها ، حذاءه وكيسه وحمالته . ليس من اليسير انتزاع حذاء من جثّة . إن حركات السالبين . في تلك اللحظات . هي في مثل تصلّب حركات المسلوبين .

كنت ، بالاجمال ، قد أكلت حقدي قبل أن ينضج . ولم يكن مذاقه جيّداً . أما إيميلاّ فقد كانت تُنْضج الأمور . وذلك أحكم . إن الحَبّ أثمن من أن يُحصد بخفّة. إن الحقد يدفّيء قلوب المتوحّدين ويصنع من تضحيتهم قرباناً خافقاً كفعل حبّ . فاذا غاب ، أصبحت المعركة حساباً ، وأصبحت الحميّة غليان رأس . إن طلقات الإرهابيين النّارية هي بالنسبة لطلقات الثوريين بمثابة الاستمناء بالنسبة للجماع . ولقد كانت إيميلاّ . تحت جِلْد المشغوفين البارد

تنتظر الصيف ، مغلقة الفم ، وتنتظر لحظة أن تحبّ حبّاً حقيقياً .

من أين تراها كانت تستمدّ هذه الطاقة الممركزة ، هذا الشغف ذا الشحنة المفرّغة ؟ أيّ دم سلفيّ كان عليها أن تثأر له ؟ عن أيّ « اتاهوياليا ، خانه الاسبانيّ » الملتحي ففُسخ بين أربعة جياد أمام شعبه المتجمّع ، وعن أيّ الملايين من الأجواد الذين التهمتهم أحشاء مناجم « بوتوزي » ، وعن أيّ « توباك أمارو » منزوع اللسان كانت مسؤولة ؟ إن القسوة لا تُرتجل بين ليلة وضحاها . وإنما تنطلق البنادق وحدها ، بأيّ ثمن ، عندما يأتي البارود من أعماق العصور. إن هناك قضية وأملاً يُعتنقان . إن بامكان المرء أن يرافق لحظةً شعباً يثور ... أما هذا الجنس البرونزي ذو الظلال العريقة في القدم ، فكيف أمكن لإيميلاّ أن تتزوّجه ؟ إن لم يكن في عرسٍ صوفيّ أكثر مما هو جسديّ ؟ إن هناك فرقاً كبيراً بين « العذراء » الساذجة التي تُرى طوال دروب النمسا الصغيرة ، مرسومةً على خشب الكنائس الأبيض ، وبين التمثال المفخّم الذي يسحق ، في الزياحات الهندية ، أكتاف الرجال الذين يرتدون البونشو[١] . تمثال من كتلة حجر

---

(١) معطف في اميركا الجنوبية مصنوع من غطاء مثقوب الوسط لاخراج الرأس منه ( هـ م. )

واحدة : مبرّج بصورة العذراء ...

إن أحقادها ومحبّاتها لم يكن ممكناً أن تزدهر إلاّ بقوة القبضة . ما أمكن للارادة أن تحلّ محلّ ذاكرة الأجسام... والسرّ الذي كنت أسيء شرحه لم يكن هو التزامها بقدر ما كان تصلّبها وعنادها . إن الجميع يلتزمون في العشرين من عمرهم قضيةً تتجاوزهم ويواجهون ، مرة على الأقل في حياتهم ، مجازفة كبيرة . أما أن يشيخ المرء وهو مضطلع ، أن يعيش المجازفة القصوى على مسافة طويلة — فتلك قضية أخرى كلياً . لم تكن إيميلاّ في العشرين من عمرها بعدُ . فماذا إذن ؟ متعصّبة ؟ لا : لم تكن مسكونة بفكرة . كانت أقلّ من ذلك وأفضل : يُعتمد عليها لأنها أمينة وفيّة . أشدّ ذكاءً من أن تعتمد على الافكار : فليس للنظريات نظر . إن المرء لا يمكن أن يكون وفيّاً إلاّ لوجه — ولفكرة ، على الأكثر — إلاّ عبر كائن من لحم ودم . وبالمصادفة — وعن طريق راوول — عرفت الاسم الحربيّ لوفائها . كانت تُسمّى « إنتي » الذي كان هو نفسه الساعد الأيمن لتشي الذي كان كارلوس ساعده الأيسر منذ وقت طويل . سلالةٌ لا تُقاوم من المضحّى بهم ... وهي التي آوت « انتي » في لاباز ، حتى عشية اغتياله . ما الذي كان قد حدث بينهما ؟ لست أدري . ولكنه كان قد مضى ذات مساء إلى مخبأ مجهول « ليحرّرها من حضوره» كما قال لها وهو يمضي . وبعد

يومين . عُثر على جثته في إحدى الضواحي . وحيداً في غرفة بلا ماء ذات جدران من الجص العاري ، مبقور الصدر . وثقب صغير أحمر في صدغه . ولم يسبق لها أن قالت لي أي شيء عن هذه الحادثة ، وأنا نفسي لم أعد أفكر بذلك قط . وهي أيضاً ، بلا ريب .

كان لنا ما يشغلنا أفضل من التفكير . كان أمامنا ، بين الثامنة والعاشرة ، « توثيق » : أوراق مزوّرة ، طوابع ، أختام . ومن العاشرة إلى الثانية عشرة ، اتصالات ومخابرات : راديو ، شفرة ، مورس . وعند الظهر ، غداء الجندي العاديّ على صينية من زنك. قيلولة حتى الساعة الثانية . وبعد الظهر ، أعمال تطبيقية . من الثانية حتى الرابعة : متفجّرات وألغام . من الرابعة حتى السادسة : قنابل ، بازوكا ورمي مختلف . من السادسة حتى السابعة : تفكيك الأسلحة المستعملة وتنظيفها . الساعة السابعة : حمّام وارتداء الثياب والعودة إلى المدينة . كانت السعادة لنا من الصباح حتى المساء .

أقصد : مزيّة جوّ على الجلْد ، تلك الخفّة الهوائية الخاصّة بسحر الأصباح ، حين لا يثقلُ شيء ولا يَصْمد ، وحين يلعب المرء مع حياته بالدولاب ، لأن جوف الهواء ورديّ ، ولأنه لم ينم نوماً كافياً . إن المستقبل يجري بخطّ مستقيم ، على عجلة حُرّة ، والأرصفة مقفرة ، والأعداء

ينامون في أسرّتهم . وقد استمرّت هذه الساعة الخادعة لنا أكثر من شهر . لقد غرزنا اللامبالاة في الجسم بقسوة ، بضربات العصا ، بالسير المرهق ، بالأكياس على الظهر مملوءة بالحجارة ، حتى نكاد نلامس الإغماء . السعادة في فوهة الأستون ، سراب الزرقة السرمديّ . أكانت إيميلاّ ترسم خططها بشكل واضح ومنتظم ، كما يتعلّم المرء التسديد ؟ إن خطوط التسديد هي كلّها مستقيمة ، من أجل هذا يكثر عدد الرصاصات الضائعة . لا يربح الكثير إلا من عمد إلى المواربة .

ولكن المرء يصاب أحياناً بتلك الضروب من النسيان . وقد كان نسياننا ذلك من طراز نضاليّ ، متحزّب . كانت كل حركة من حركاتنا صرخة كشفيّة « أوهيه ، أيها الأصدقاء ، الطريق سالكة ومستقيمة ، على مدى النظر ! فلننطلق » ! ومن جميع الجهات ، كانت الصحراء. ليس ثمة أصدقاء ليسمعونا . كانت عزلتنا قاسية ، وخروجنا محدوداً : سبب أولى اطلب النجدة . لست آسفاً على هذه العودة إلى الشباب التي تذوّقناها معاً كقعر زجاجة غير مأمول . غير أننا لم نكن بعدُ متطرّفيْن . كنا نعرف جيداً أن لكل حركة عواقب ولكل كلمة وزن ، وأن دخول السنّ الراشدة ليس هو امتحان اختبار ، وإنما هو امتحان جسديّ . ولقد كنّا قدّمناه ، هي وأنا ، في تاريخين مختلفين . إن الشبّان يحوّلون

رغباتهم إلى استيهامات ، لأنه ليس لهم ثأرٌ يأخذون به: إنهم يستطيعون أن يناموا إلى الضحى . أما نحن ، فقد كانت لنا حسابات نصفّيها بأقصى السرعة . والتفكير في المبارزات القادمة النفس كآبة . واستعداداتها تجعل المرء دقيقاً وواضحاً . إنه لا يستطيع أن يشخص بنظره كالأبله حين يكون العدوّ مواجهاً له . كنّا ننتصب واقفين عند الفجر ، واعيينْ أن الخبز والورود لن تُقدّم لنا مساءً على صينية ، بالمجان ، وأن المرء لا يستطيع أن يعرّض جسمه للبرودة والخداع من غير أن ينال عقابه . إن الغضب وتعلّم التقنيّات الدقيقة يطبع الأحلام بسرعة شديدة . كنّا نحلم مُطلْقي العنان ، على حصان محتدم .

ميقات عسكريّ . في الساعة السادسة تماماً من الصباح ، كانت سيارة جيب عسكرية تعبر حاجز البستان ، ولم أكن أغادر ، بلا عزاء ، مقرّ ذلك العظيم المجنون الذي كانوا قد أنزلوني فيه : قصر فيكتوري قوطيّ ، ثمرة تزاوج خيالٍ مريض وازدهار سكّريّ مفاجىء في مطلع القرن ، مجاوبٍ دون ريب كما هو من اسكتلندة بالباخرة . كل ذلك وسط حديقة مزروعة بخضير محلوق تنبثق فيه الخبيزة وافرة ، والعندم الهنديّ والجهنميّات . كنت أضع يدي بحرص على هذا القصر الفارغ الذي كان يرنّ بالأصداء من أجل رجل واحد ، ولكنه كان يقي من السائلين والمزعجين . وبعد

ذلك . كان السائق يمرّ فيأخذ إيميلا من فندقها . كانت تبدو لنا من بعيد مستقيمة . في المكان نفسه دائماً . عند زاوية الشارع المقفر . وكنت في كل مرة أتظاهر بالانحناء عند الباب لأترك لها المقعد الأمامي . فكانت ترفض عرضي بحركة صغيرة من يدها وتجلس على أرجوحة المؤخّرة . تاركة للرجلين المقعدين المحشوّين . وعلى زاوية شفتيها بسمة لامبالية .

كان الهواء يطفو فوق المدينة المفتوحة كقماشة وهميّة . ليلكٌ لا مسؤول . ملتفّ . ولم تكن تتكلّم قطّ . لأن لدى كل منا عدداً مفرطاً من الأسئلة يطرحها على الآخر . وأمسية الأمس . وأحلام الليل . وعلى الدرب الذي يحاذي البحر . كانت الريح تزيل تجعيد وجهينا . كان مغروران يجيلان . في وعورة التلال ذات النخيل . كبرياء قادةٍ أرقين — كبرياء أولئك الذين يقومون بالتفتيش على المتاريس بينما يشخر البورجوازيون وينخرون . ربما كان العدوّ . همّنا الأوّل . أقلّ إرهاقاً لنا من تلك النشوة الفائقة الشفافية التي يمنحها الشعور بأن يكون المرء مزوّداً بيقظة مقدّسة . على غير علمٍ من الجيران . وأعترف بأني استسلمت طويلاً لغرور الصباح المبكر . إن إنساناً يسبق بساعتين نهار معاصريه يعتقد بأيسر مما يعتقد الآخرون أنّه مكلّف بمهمّة غير عادية . وأنا لا أومن بعدُ بالمخلّصين . وأقلّ من ذلك بالمهمّات الجسام .

ولكنني لن أكفّ قطّ عن الإيمان بالصباح .

كانت هناك أيضاً سعادةُ المساء ، حين كان يُعاد إلى منزل المدنيّين جسمٌ سرّيّ ، مجيد ، كانت التوصيمات والكدمات في الكتف تُفتّحه على ممرّ الأيام . كنّا مغمورين بتلك الحياة المخطّطة ، المليئة بالأوامر والضغوط ، على إيقاع محدّد ومفروض من الآخرين . بلا أوقات ميتة ، ماعدا الوقت الذي كان فيه سعيرُ الظهر يَضع على الأصداغ محاجم القيلولة . قادةٌ خاضعون على نحوٍ لذيذ ، متطوّعون مُعبّأون كالساعات المنبّهة . كنت أتشمّس في كسل وأمثّل دور المنهمكين في الأعمال فيما كنت أقوم بالعَزْل داخلياً . إن في هذا الضرب من التنسّك هدهدة ، وفي استنفاد المرء قواه على نحوٍ منظّم أفيون أرستقراطي يعدل كلّ أفيون آخر . وليس أكثر تنشيطاً للذهن من تلك الأمكنة التي ليس للمرء فيها أن يفكّر بما يفعل أو بما يقول ، بل عليه أن يتعلّم كيف يحارب أو يتلو القدّاس أو يقفز من عل . إذ ذاك ، في ذلك الخَدَر ذي الأظافر الواضحة والشعر القصير ، والقفاز السافيّ والتفكير القائم على الحاكيات الصوتيّة ، يملك المرء أخيراً كل المجال للنزوع نحو الجوهريّ .

ولما كنت أجهل ممّ هو مصنوعٌ مستقبلنا ، فقد كان الجوهريّ هو هذا النزوع نفسه ، هذا الخضوع لهدف مجهول.

أن نصبح « عمليّاتيين »[١]. كان ذلك يشغلنا بما فيه الكفاية حتى لا نضيف إلى ذلك الانشغال بالعمليات التي كنّا نرصد لها أنفسنا. لقد كنت أتشرّف دائماً بأن أضحّي بالميتافيزيقا لصالح الرياضيات، ولم يكن الأمر لدى إيميلا تضحية، بحيث أنه لم يكن ثمة أيضاً ما يطرح علينا سؤالاً، لأننا لم نكن نملك جواباً على شيء. كان ثمة، في اكشاك المحطّات فدائيون يدربهم مدربون كلّيّو القدرة على خطف علماء ذرّة في الغرب. وفي المسرح، ما فتيء ثرثارون منذ قرون يتناقشون إذا كانت الغاية تبرّر الواسطة، وإذا كان الأفضل أن يكون للمرء أيدٍ قذرة أولا تكون له أيدٍ على الإطلاق. أما في نظرنا، فقد كانت الوسائل تبرّر أية غاية — وتنتهي هنا المناقشة. وقد كانت وسائلنا تُسمّى: حصر الهواء في الرئتين، مراقبة الفخذين، تثبّت المعصم (من أجل المسدس) فقرات ظهريّة وثيقة (من أجل الرمي المضطجع) وكانت وسائل تكفي لسعادتنا. أن يَهب المرء نفسه لقضية، هو أولاً أن يُشبع حدوده، أن يستمتع بنفسه. وتكون غايتنا الوحيدة آنذاك: أن نتخلّص من الزوائد لنستحقّ، إذا حان الوقت، نهاية خاطفة، بلا بُقع ولا رماد. إن أحذق الحِذْق

---

(١) ذوي علاقة بالعمليات الحربية (هـ. م.)

هو أن يستعمل المرء حياته كما يستعمل خرطوشة حربيّة ... أن يستطيع يوماً أن يقذف الرجل الذي شاخ كما يقذف غلافاً مستعملاً رثّاً . أن يثقب مرماه ويختفي ...

* * *

أودّ أن أنسى بعض الظلال على اللوحة . بعض أمسيات يتقشّر فيها طلاء هذه الحياة المفرطة البساطة . بعض لحظات كانت تستولي علينا في طريق العودة . وطبلةُ آذاننا ما تزال ممزّقة بجلساتنا الطويلة في الرمي . كان ذلك البُخار الذي يُصعّده الجون أمامنا ، وذلك العطر الجمريّ الذي يطفو على المدينة ، وصخبُ النيون على واجهات جبين البحر — كل ذلك كان يبعث فينا مزاج الشمبانيا ، مع توثّبات فرحة كان من المستحيل كبحها . كنت أرى عيني إيميلا تلتمعان ، كما لو أنها استردّت أنوثتها من غرفة الملابس ، خفيةً . كان الأمر يكون مفرط الجمال أن يُشقي المرء طوال الصيف وأن تلتهم حرارةُ النهار حتى المساء أجساماً مجلّدة ، ذات اندفاعات مكسورة ، وحركات جافّة . كنت أحبّ هذا التفه النشائيّ بيننا . ولكن كيف السبيل لمقاومة مدينة كبيرة حين يهبط الليل ، ويصعد النّسغُ في الأعضاء ، وينمّل الجلد ؟ ماذا يصنع المرء بالرغبات التي يراكمها الاحتقار في صمت ، وبتلك الشراهة كلّها التي كان تحفّظنا قد غذّاها ؟ كنت أنا أختفي في المدينة حيث كانت لي بعض أشغالي ،

كجميع الناس . ووداعاً يا ميمي . إلى الغد ! وكنت أوثر ، وأنا أحدس بالنتيجة . أن أتركها في الطريق . أن أدعها لمصيرها كأميرة صغيرة جذلة في موكب راقص .

كان التهتّك . بالنسبة إليها . أصعب بلوغاً منه بالنسبة إليّ . كانت تعود إلى فندقها فتصعد إلى غرفتها لتغيّر على عجل خِرقها العسكرية وخُرجها الكاكي بلباسٍ مناسب : خُفّ من جلد . بنطال — تنوّرة . بلازر أحمر ذو طيّات عريضة . كانت تربط شعرها بشكل تُنّة[1] وتلفّه دُويرات على الأذنين . وكان خدّاها مطلّسين بشكل خفيف ، وعلى جفنيها ظلّ خفيّ : أناقة رياضيّة . متكلّفة بدقّة . بلا ثياب كاشفة ولا تَطْرية بكل معنى الكلمة . لم تكن ياقتها المقوّرة . ولا منديل رقبتها الحريريّ المعقود على طريقة رعاة البقر . ولا نظرتها الأكثر عمقاً تكفي لإضفاء هيئة سوقيّة عليها ، بل مظاهر آنسة أكثر غموضاً . ازدواج شخصية مذهل كان يتنبّأ جيّداً بقابليّاتها السرّيّة ويمكن أن يفاجىء الناس . ذلك أن مراهقة الخمسينات كانت مستعدّة لكلّ شيء . وإيميلاّ الماجنة المتعجرفة بعض الشيء . المعتدلة في مجونها ، لم تكن أقلّ ممارسة لفجورٍ مكشوف بلا ندم .

---

(١) طريقة جمع الشعر المعروفة بذنب الخيل ( هـ. م. )

لم يكن لها أن تضع نفسها موضع المطاردة . لم تكن تفتقر إلى المرشّحين الذين كانوا يضعون عند قدميها جميع علامات السلطة والرجولة ، ويتنافسون في التبختر . ولكن الإثم ، في الوسط اللاتيني ، يُفسد الجوّ ، ويدبّق الأنظار ، ويزحف تحت الطاولة . والرجال ، في الأرض الإسبانية ، لا ينظرون إلى النساء في عيونهنّ . أما هي ، فقد كانت ، على العكس ، تفعل ذلك . كان انعدام التوازن هذا يغيظها . كان يجعل منها امرأة شريرة لأن الأسلحة لم تكن متكافئة . ومن غير أن نتكلم عن رفاق المنظمة الذين كانوا يخجلون من أجلها ويديرون رؤوسهم ( والحقيقة أننا ربما كنّا مسرورين أن نعاني : فأن تنحطّ هكذا بين الحين والحين ، كان ذلك يكسبنا بعض المقام تجاهها ) كان السياسيون والعسكريون الذين يعرفون من هي يدعونها أحياناً إلى العشاء ، ولكنهم كانوا يسعون إلى منفعتهم بشكل موارب ، فيقدّمون رِجْلاً ليُؤخّروا يداً ، مكتّفين الضيق بدل أن يبدّدوه . ومهما يكن من أمر ، فقد كان ذلك بلا أمل بالنسبة اليهم . ذلك أن إيميلاّ الأميرة لم تكن تستطيع أن تنام بحشمة إلاّ مع سائقها . خاصّة في هذه البلدان التي حين تقول امرأة فيها « نعم » لرجل ، فليست هي مومساً فحسب ، بل في وضع المحميّة المنتظرة والخاضعة. لم تكن القيم الكاستيلانية قيمَها ، وقلّ ما كانت « هيبتها » تهمّها . ولكنها لم تكن تحبّ أن

تنتظر ، ولا أن تعترف بالضعف . لهذا تبنّت عادةً سليمة ، وكابتةً على مرّ الأيام ، أن تختار شركاءها من خارج وسطها : صحيح أنها كانت متقلّبة ، ولكنها موسوسة . ولم تكن تخلط بين الأصدقاء والعشّاق ، بين حياتها النضالية وحياتها الخاصّة . وقد قالت لي يوماً ، بعد ما أشرت إلى مجانات رفيقةٍ كانت هي أيضاً تثير فضيحة في وسطنا الصغير : « ماذا تريد ، أنا كذلك لم أستطع قطّ أن أكون مناضلة وامرأة في وقت واحد . من أجل ذلك ، أناوب » وأنا أعرف الأغنية جيّداً . وإذن ، فقد كنّا اثنين نزدوج ، نتفاهم وكلانا يدير ظهره للآخر . كانت حين تخرج ، تفعل ذلك من غير أن يراها أحد ، مع موسيقيين زنوج — عازفي التومباس أو الساكسو — أو مع مغنّ بوهيميّ بعض الشيء ، أو حتى مع جنودٍ بلباس مدنيّ .

وقد التقينا ذات سبت ، مصادفة ، في مرقص شعبي حيث كانت مغنيّة زنجيّة ، سماوية ببساطة — ذات وركين متموّجين ، وفم رشّاف ، وعينين رُمْحيّتين — تقبض على عالمها من معِدته بصوت شيطانيّ يصعد من بطنها : حيوانيّاً ، خشناً ، مطوّقاً . وكانت إيميلا ترقص ، متنكّرة بلباس « كارمن » ، بصدارٍ حمّصيّ ، وتنوّرة داخلية كبيرة ذات دوائر وشعر مرفوع فوق الأذنين بملقط . وجلسنا نحن الأربعة إلى الطاولة نفسها : هي ، ورجل قويّ

حالم بعض الشيء له هيئة مهرّج في وجهٍ تبغيّ اللون .وأنا .
وخلاسيّة تلتزم صمتاً فاتناً لم أكن أشكو منه . كل رجل
مع صاحبته . إلاّ بمناسبة رقصة دعتني هي اليها . وما أزال
أذكر اللازمة . وقد همست في أذني « أنها استهلاليّتي .
هل عرفتها »؟ وكيف تراني لا أعرفها وهي التي كانت
تدمدم بها من غير انقطاع في معسكر التدريب . وسط
المحاضرات والانفجارات .

أنت ترحل لأني أريدك أن ترحل

في الساعة التي أريد أن أحتفظ بك

أنا أعرف أنك بحاجة إلى حناني

لأني . شئت ذلك أم أبيت . حبيبتك

إن الكلمات . من غير الإيقاع . بليدة . ولكن الموسيقى
تَعِدُ بلذائذ الجحيم وتفي بوعدها . وقد استطعت أن أؤكد لها

من أجل ذلك . سأرتدّ على أعقابي

وسأمضي مع الشمس . حين يموت الأصيل

وفي النهاية . قلت لها . وقد استرخيت بتأثير شراب
الخِطْميّ حتى كدت أفقد توازني على الحلبة :

ــ إنني حقاً معك ! كما لو كنت أرقص مع أختي !

– كيف تعرف . ما دمت قد قلت لي إنك لم تكن لك أخت ؟

– بالضبط . أنا أكتشف ذلك .

– إذا كنتَ . بالاجمال . مخطئاً . فلن تكون لك أية وسيلة لتعرف .

ولما كنت غير أهل للايمان بالقدر . فاني لم أؤمن قط بأن ارتكاب المحارم أمرٌ لا مفرّ منه . ومن غير أن نستدعي ذلك . أبعدناه بتصميم . لصالح دورة جديدة من « الدايكيريس » . وترك أحدنا الآخر كأفضل صديقين في العالم . وأنا أعرف قواعد اللياقة . من أجل ذلك . امتنعت صباح الاثنين عن أن أطرح علينا أسئلة عما أمكن أن يحدث بعد ذلك . ليس الناس من خشب . حتى بين الأخ والأخت.

وكنت مفرط السرور أن أجد ثانيةً مناضلة الأسبوع : مستردّةً انتصابها . نقيّة ونظيفة . بوجهها المُغفْل . بلا آثار ولا قناع . ولقد آثرت دائماً . بيننا . هذا التواطؤ الخشن بعض الشيء . على تواطؤ أمسيات السبت . كان التدريب يميل إلى نهايته : وكانت قد تكوّنت عاداتنا . ومنها عادة الصمت . ليس من كلمة واحدة طوال الرحلة .

وحين وصلنا إلى الساحة . أخرجت من جيبها برقية إحدى الوكالات تحمل تاريخ عشية الأمس :

ـ خـذ ، الأفضل ان تعرف ذلك على الفور .

في لاباز ، كان مستودع اسلحة قد سقط لنا في العشية خلال غارة كبيرة . ولم يكن هو الأوّل ، فقبل ذلك بأسبوع ، عرف مخبأ آخر المصير نفسه . وقد حملني هذا على التذمّر :

ـ أقسم ان الشبكة سوف تصبح ألهية سياحية ! سينظم رجال الشرطة زيارة في السيارة كل أحد . . .

كانت تقيسني بنظرها ، ويداها على خاصرتيها ، ساخرة :

ـ هل نهمل الأمر إذن ، يأساً من النجاح ؟

ـ لقد ضجرتُ من الأخطاء ، كما تقولين . الأخطاء نفسها . إننا لا نتعلّم شيئاً .

ـ الأخطاء هي مشكلتنا جميعاً . وانت مسؤول عنها بقدر مسؤولية الجميع .

واتجهت بخطى بطيئة نحو مستودع الأسلحة ، ولكنها استدارت فجأة لتقول :

ـ بالتأكيد . ليس من أحد يجبرك . انك تفعل ما تشاء ... ولكني أعتقـد أنّ عليك واجبات ، أليس كـذلك وماضيك هو ما هو ؟

ـ تجاه من ؟ تجاه أصدقاء ؟

ـ تجاه أعداء أيضاً . إنهم يخافونك . فلا تخيبّهم اكثر مما ينبغي .

– يكفيني الرفاق !

– بالضبط لا ! انت لا تستطيع ان تقول : الرفاق ، وأنا . لا بدّ لك من ان تكتفي بالقول : « نحن » . يجب ان يتقمص أحدنا المنظمة كليّاً . الى حدّ ان يفقد ماهيّته ، عند اللزوم . أن يصبح كلّ عامل ، كل عاطل عن العمل ، كلّ مقتول بالبندقية . أتستطيع أن تفهم هذا ؟

– ربما لا ، الى هذا الحدّ ، ايتها الأخت الصغيرة ... ولكن لم يسبق لي قطّ أن غسلت الثياب القذرة الاّ داخل الأسرة.

– لاتَنْس أن المرء لا يستطيع ان تكون له عدّةُ أسر . أسرة واحدة ، وليس له من منفذ ليترك في مكان آخر روحه أو ماله . هذا هو الإكداح [١] : إكداح الملاكات يابوريس – وتهجّت واحداً واحداً مقاطع هذه الكلمة – الأمر التي أصبحت لنا مفتاحاً عمومياً – منذ فترة – هذا ، وليس شيئاً آخر .

– تجعلينني أضحك ، ياميمي . إن المرء منا يغطّي يديه بالشحم الأسود طوال النهار ، ولكنه مساءً يجد نفسه في قصر . انه يكدح طوال الأسبوع ، ولكنه يذهب في نهاية الاسبوع ليتسمّر على الشاطئ .

---

(١) تحويل فئة من المنتجين المستقلين الى الوضع الكادح او البروليتاري (هـ.م.)

— اطمئنّ يا صاحبي . عمّا قليل سنرحل . فلماذا تعتقد أننا نرهق أنفسنا هنا بصليْ البندقية وتفريغها ؟

قالت ذلك وهي تشير الى صفّ كامل من الأسلحة التي كان علينا ان نستعملها في النهار . زهاء عشرين بندقية ومسدساً ورشاشاً كانت مصفوفة على المسند .

كانت تكرّس . في هذه الأيام الأخيرة . للرمي على سبيل الحصر . مع ذخائر كثيرة . وكانت تفرغ منها صناديق كاملة . وفي ذلك اليوم . كان خصامنا قد أسخطني . فتحولت التمارين الى مبارزة ثنائية . ولم اكن أصوّب تصويباً رديئاً . ولا هي . كنّا نعدّ النقاط . وعددناها بحذر . كنا متوتّرين . مسودّين بالزيت والعرق . تحت سماء مبيضّة بالقيظ الشديد تصطفق فوق رأسينا كأنها قماشة . وقد ربحت بالمسدس الرشاش . على مسافة خمسين متراً . وانتصرت بالمسدّس . على مسافة خمسة وعشرين متراً . لاسيما وأن مسدس الكولت ٤٥ كان يقفز في يدها . وتحدّيتها على بعد ثلاثمئة متر بـ «الأك ٤٧» البندقية الآلية الشهيرة بأخمصها الخشبي ومقبضها المسدس . ولم تكن هناك حاجة لمنظار مقرّب . كان الهدف اذا أصيب . أصدى الصنج في الجانب الآخر من التلّ . وقد ربحت بفارق قليل . ضربة بعد ضربة . اما بالرشق . فلم تكن هناك مشكلة . لقد سلّمِ الشرف .

فيما بعد . عاد المزاج الطيّب . مع نسمة رطبة كانت تصعد من البحر . وانضم الينا فيديل . الذي كان يمرّ من هناك . مع حاشيته . واتخذوا الوضع العسكري . فمتح صندوق من الخرطوش ذي الرصاص المزرقّ ـ الخطاط ـ فكان المهرجان : الجميع مصطفّون . رمي متشابك على صنج الجار . بأسلحة مختلفة . وكانت الخطوط الفوسفورية . في المساء البنفسجيّ . تتلامس . أو تتقاطع او تتباعد في أسهم نارية كان بوسع كلّ منا . بمجردّ حركة من معصمه . ان يشكلّ أو يفك عربساتها . وعلى ضوء هذه الباقة النهائية غادرنا فردوسنا وسط صخب مُصمّ من الصفير والانفجارات والمُصلصلات والشتائم .

هنّأ القائد العامّ ايميلا على دقّتها وبراعتها في الرمي . فاحمرّت اعتزازاً وذراعاها تتخطران : كان تراجع الأخامص قد جعل كتفها مزرقاً كل الازرقاق . ثم ذهب الجميع يشربون على السطيحة بيرة بالعلب . ويتبادلون بعض المُلح وهم يتأرجحون في الكراسي الهزازة . وذكرني هذا الاحتفال الصغير المرتجل بنهاية العطلات الكبرى . كأنه مُعترضة تنغلق بهدوء . وبعدها لا يمكن الاّ أن تبدأ من جديد صلاة الشقاء . وحين قلت لإيميلا « الى اللقاء » . عند زاوية الفندق . داخلني شعور أني أودع شخصاً لم

يتّفق لي حتى أن ألقاه . وانا كنّنا ، نحن الاثنين ، قد فوّتنا الوقت .

* * *

كان كل منا يجد نفسه من جديد في زاويته بلا موعد ، عاطلاً . وانقضت أيام لم أرها فيها . أتراها كانت تقاطعني ؟ ووجدتني ، بعد ظهر أحد الأيام ، أتسكّع في الفندق . واذ مررت بغرفتها ، وكنت قد أخذت عادةً استوائية في النزول ارتجالاً على الناس ، طرقت بابها . من أجل لا شيء . لكي اقول صباح الخير والى اللقاء . ليس من جواب . وكنت أهمّ بالذهاب حين أثار شيء ما ظنوني ، نوع من الانين بين النحيب والنشق . وانفتح الباب من تلقاء نفسه تقريباً .

بعد فوات الاوان . كنت قد رأيت ، وكانت قد رأتني . كانت جالسة على الأرض ، مُسندة ظهرها الى سريـــرها المدعوك ، منهمرةالشعر . وكانت تبكي . وأومأت برأسها نفياً لتسدّ عليّ المرور . زهرة دلبوث ذابلة كان الحزن قد حفر تجاعيدها ودارتي عينيها .

ــ ماذا هناك ، ياميمي ؟

تمتمت وهي تفرك عينيها وغصّات صغيرة تهزّها :

ــ لاشيء . أُعذرني .

– ماذا تفعلين هنا ؟

– لا شيءُ ...

– لماذا تبكين ؟

– لا أبكي ... كنت فقط أنظر بعض صورٍ قديمة ...

وكنت أتساءل ما الذي ألت اليه الآن ... أتفهم ؟ ...

وأرتني وهي محمرّة خجلاً مجموعة من الصور الحائلة بعض الشيء مبسوطة أمامها : « حين يأخذني الحنين ، أغلق الباب وأتخفى . وما كان ينبغي لي ان أترك الباب مفتوحاً . هذا كلّ شيء . »

كانت تتمتم : ضد ذاتها ، وقد كنت أودّ ان اردّها الى وجه ذاتها . وكنت ما أزال اكثر ارتباكاً منها أن أرى هكذا يقيني الكلّيّ ، آسرتي ، فارسي من غير لأمته ،– متربّعةً عارية ، مجروحة ، تحت رحمتي . وجلستُ ، فرسمتْ على شفتيها بسمة، وأشرتُ الى صورة من الصور :

– مَنْ هذا الشيخ ؟

– أبي .

– هل هو في صّحة جيدة ؟

ـ أظنّ أن نعم . ليس لديّ أخبار .

ـ الا تريْنه بعد ؟

ـ هو الذي لا يريد ان يراني بعد ... منذ أن عرف أني كنت أعمل لصالح المنظمة ...

ـ وهذه الصورة .. أهو دبّ صغير ام قرد ، هذا الذي تحملينه بين ذراعك ؟

ـ لا أذكر . هذا حين كنّا نكتشف معاً « النبي » .

ـ وهذه .. هل انت امام مدرسة تبُنى ، ام ماذا ؟

ـ لا . ميتم ... مع صديقة طبيبة . في لاباز . كنا قد حاولنا انشاء مؤسسة للأطفال المتروكين .. وكانت الضرائب تجبى من نوادي الأغنياء ... هذا سخيف ، اليس كذلك ؟ لاحظْ أنّ هذا قد خدم المنظّمة ، فيما بعد ...

ـ هل تحبّين الأطفال ؟

فأومات برأسها إيجاباً .

ـ لماذا ليس لك أولاد ؟

ـ فات الاوان . أشياء في البطن . أمر معقّد . لا أستطيع أن أشرح لك .

ـ هل يجعلك ذلك حزينة ؟

ايماءة خضوع ، لا تكاد تُرى .

وظللنا نتحدث بصوت خافت عن أشياء الماضي ... ورويداً رويداً ، كانت تستعيد هدوءها وتتدارك نفسها . وقالت لي أخيراً ، رابطة الجأش :

ــ لا تذهب بك الظنون بعيداً . ليست لي مشكلات شخصية . ولو كان لي مشكلات ، فلن يكون لهذا أيّ شأن . إن الثورة لا تُصنَع بالمشكلات الشخصية . أليس صحيحاً ، أيها السيّد ؟

رنّ التلفون عند هذه اللحظة بعينها . كان كاراوس ، من باريس . أبلغها أنه قادم بعد يومين ، عن طريق مدريد . من كلّ بدّ ، هذه المرّة . ولم تعد ميمي تجد كلماتها ، وكانت عينها جافّة تبعث الشرر . ثم تمتمت في السمّاعة :

ــ آن الأوان ... لقد طال الأمر ..أتعرف من يكون الى جانبي ؟ بوريس !

غمزتني بعينها ، ثم وضعت يدها على السّماعة ، وكرّرت لي الجواب :

ــ لديه عمل ، بوريس ...

ــ ماذا ؟

ـ ترجمة جديدة لدون كيشوت ، بلغه كيشويا ...
طبعة شعبية .. رواية مختصرة ...

ـ لأيّ وقت ؟ إسأليه .

ـ لا وقت بعد للضياع . يجب الإسراع . سنرحل على الفور ...

لم أكن أعرف ان كانت تصيح فرحاً ـ ام لكي يمكن ان تُسمع . وحين أعادت السّماعة :

ـ ومن يقوم بدور سانشو ؟

أجابتني وهي تقهقه : ـ أنت بالتأكيد !

ومن غير ان تتوقّف طويلاً عند توزيع الأدوار :

ـ ترى أن الامور تتحسن ، بمجرد ان نتحدث عن المستقبل .

والواقع أن ركام الذاكرة كان قد جعلها تتعثر ، فكانت مخابرة كارلوس تكنس الدرب بلمحة عين . كان وجهها مُشعّاً .

ـ عِدني بشيء ، يابوريس . لن تقول لأحد ـ وخاصة لكارلوس ـ إنك رأيتني أنتحب .

ـ ولكن الدموع شيء رائع . إنها تنظّف . انظري الى

نفسك : لقد استعدت سحنتك ، سحنة الصبية . لقد التقيتُ «ميمي» منهوكة ، مصدوعة . وبعد ذلك بساعة : ها هي ذي بحالة جديدة .

– شكراً . هذا يقيم بيننا سراً آخر .

لم أفهم علامَ كانت تشكرني ، ولا لماذا تشكرني انا بالذات ، ولكن حين خرجتُ من غرفتها كنت أنفخ صدري بخيلاء .

لست بقويّ الملاحظة ، كدأبي دائماً ...

* * *

أحدث اقتحام كارلوس ، بعد ثمان واربعين ساعة ، أثراً أشبه بسكبة نفط على نارٍ هامدة . كان هو « دارتانيان » ناقصاً شاربين وتبجُّحاً . وما كادَ يقفز من الطائرة أرضاً حتى أقبل يقيم في مقصورتي المتكلفة التي استيقظت ، بين ليلة وضحاها ، على فوضى اركان حرب عامّة . . كانت لُقى جديدة حارّة بين شركاء متواطئين . وقد أضحكنا حتى البكاء القليلُ الذي رواه لنا عن البلد الذي قدّم منه . أجل « نحن » : كانت ايميلا ، بناءً على طلب كارلوس ، قد تركت الفندق على الفور ، وانتقلت الينا ، في غرفة بالطابق الأول ، مجاورةٍ لغرفته .

لم تدم الضحكات الاّ فترة . كان لا بدّ من « التخطيط »

ـــ وبسرعة . وكان كارلوس يردّد ، في كل مناسبة ، « ليست هناك لحظة نضيعها » كما لو أنه كان يريد ان يستدرك تأخره وسفراته العجيبة . « ان « الثورة» لا تنتظر ، فهذه هي الفرصة والاّ ضاعت الى الابد ...» . وكانت قامته الطويلة التي كانت تذرع الغرف الفارغة كهبّات ريح تلذعنا بأكثر من رشقة شتائم . كان بارعاً في التحليل ، عصبياً في العمل ، فكان يبدو عجلاً ، ولكن بلا خشونة . هكذا كان مخلوقاً : كانت محرّكاته تدور بأقصى سرعة . كان ينام خمس ساعات في الليلة ، وينزل الدرج أربع أربع ، ويتجاوز إشارات التوقّف ، وينظر الى ساعته بلا انقطاع ، ويقلب الأطباق على المائدة . وقد امتصّنا هذا الهياج ـــ حرفياً .

لم تكن نصائح الحذر والحصافة تنقصنا ، وقد زارنا عدة مرّات أعلى سلطات البلد للاطلاع على مشاريعنا . وكان كارلوس يتجاوز جميع الاعتراضات ، فكنت أتبعه على مضض . كنا عصبيين نصغي من غير ان نأخذ وقتنا لسماع ما كان يقال لنا . وقد جعلته رقّة ضيوفنا الذين لم تكن الحكمة تعوزهم وكانوا قد تعلمّوا ان يستعجلوا على مَهَل ـــ جعلته ينحني . كنّا بعد كل حساب وحدنا المسؤولين ، حرّين أن نتصرّف وفق هوانا . وسرّعنا استعدادات السفر .

خلال تلك اللقاءات الليلية الطويلة ، كانت ايميلا سكرتيرة

بسيطة تلتزم غرفتها ، وكان النور يظلّ مضيئاً حتى ساعة متأخرة تحت بابها . وكنا نسمع طقطقة آلتها الكاتبة، ونلمحها أحياناً تذرع المطبخ بقدمين عاريتين . أرِقة ومتكبّرة ، واثقةً من نفسها . وقد زادت جمالاً بالتواطؤ الذي سرعان ما قام بينها وبين كارلوس . وكنت أحث خطوي حتى لا أُسبق . ولكن عبثاً : فقد كان ثلاثيُّنا أعرج . كانا يتحدثان في البستان بين عيون أربع . ويتفاهمان ايماءً في جلسة المناقشات . وكانت الأروقة تنتعش ليلاً بالاصطفاقات الصامتة والابواب المنغلقة خفيةً والنداءات المخنوقة .

ولكي نتصبر في انتظارنا ، كنا نخرج أحياناً الى الحقول المجاورة حتى نبلغ مربط خيل موءقّتاً كنت أعرف مديره . لم يكن أحد منّا قد عرف مدرسة للفروسية . وكنا نمتطي بلا احتفال الجياد نصف المتوحّشة الشبيهة بأفراس السهول الاميركية البرّية . كانت ضروباً من العدو السريع المتوثب يكاد يقطع الأنفاس على طول الشواطئ المقفرة . كنا ندفع المطايا بأقصى سرعتها في الأمواج . وكان الزبد يرشنا حتى الصدور . كنا نشتم ونسوط ونهمز . وكنا نمثل «وسترناً»(١) بالتسايف ، وكنا نتعب رئاتنا بالصراخ والهتاف . وكانت هذه السباقات التي لاهدف لها تعيد التحالف بيننا : نحن الثلاثة : الخليّين

---

(١) فيلم نشأ أولا في امريكا يروي مغامرات الرواد ورعاة البقر (هـ.م.)

الفَرِحين ولكن المتعبين ايضاً الذين قوّست التشنجـات سيقانهم .

واخيراً ، حان يوم الرحيل . مقصدنا : التشيلي. المقفزُ الأخير قبل الوثبة الخطرة . وكانت النوابض في كلٍّ منا مستعدّة للعمل .

# الفَصلُ الثاني

وانطلقت من جديد ، كتلة واحدة ، متمحورة بعزيمة على « الايجابي » ، مع مثابرة في النشاط جديرٌ بها مبشر أنجيليّ . نحو « الغرب » المعقد طرت بأفكار بسيطة . ولكنه كان ذهاباً آخر ، بينما كان عليّ ، أنا المناضل المجدّد ، أن أشعر بعزاء الإياب . في تلك اللحظة ، لم أحسّ هذا الفرق الضئيل ، واستشعرت أقلّ من ذلك عواقبه الكبيرة . كنت عازماً تماماً على الا أشعر بشيء قط ، وخاصة بالفوارق الدقيقة . إن الفارق الدقيق هو ، عند رجل الفعل ، بداية النهاية . إن من يبدأ بالدقة ينتهي بالخيانة .

والواقع أن أيميلا هي وحدها من كانت قد جعلتني أعزم ، ومن نبهتني . كان انجاز العمل هذا ، بمساعدة من الذكورة ، قد أفلت مني . منذ أن هجرت الآلهة خصوماتنا ، أضحت المعارك ملتبسة . ومع الأسف ، ليس ثمة من معركة مشكوك بنهايتها ، ذلك أن المرء لا يموت من أجل « نعم ولكن » ،

وحين يشكّ . لا يحارب قطّ . إن الايمان من الأنوثة ، ولكن الله والحرب يظلاّن ، لسبب غير معروف ، من الجنس المقابل . يُقال : مجنون إلهي ، صاعقة حربية ، ولكن لا يتكلم أحد عن نساء حربيات ، ولا عن نساء آلهيات. وهذه العادات النحوية التي لا تدين بشيء للمصادفة . كانت تغرقني في دوري وتحجب عني دورها . حين تنتسب امرأة الى أكبر منها ، فهي امرأة واجبٍ أو ذوق أو إحسان أو بيت وكاهنا أعمال تافهة تصغّر ضحاياها . اما أنا فكنت قد قُرنت الى امرأة كانت تغذي ، من غير ان تكون « من » الشعب ، نزعاتٍ أعنف . امرأة من جلد وفولاذ ، صلّبتها أعلى اليقينيات ، وهي مرصودة لبساطة الانتصارات الكبرى أو الهزائم الكبرى . انني مدين لها بكل شيء ، ابتداءً من هذا الفراغ الذي كنت قد صنعته في داخلي وحولي ، على طريقة المقامر السيء الحظّ الذي يكنس رُقعة الشطرنج بظاهر يده . أو العجوز الذي يقول «كفى !» للحياة .

كنت أستيقظ نَشيطاً أخضر من شتاءٍ طويل كانت ذكراه تخجلني . ليس الأخضر لوني ، بل هو لونها — لون عينيها ، لون أجدادها ، لون صنوبراتها الضائعة — إن لم يكن لون أسمالها الناحلة . إن هذا اللون الذي يصفه الرسّامون ، مصادفة ، بأنه مكمّل للأحمر ، لايخلو عادة

من غباوة . ولكن أخضرها هي لم تكن رقيقاً : ثوب من نسيج قطني سميك أقرب الى السبانخ منه الى اللوز . كان الأمل عندها قد غَمق لونه ، فتحول الى عزم داكن .

إن الجرذان المسنة تسترد شبابها حين تُطعَّم في صُلبها بأنسجة الفئران . كانت براءة جديدة تروي عروقي ، ولم أكن أسمّيها « سذاجة » . كنت محقاً ، فهو الإيمان . كانت الأسابيع التي قضيناها معاً في التدريب تَعدِل إقامةً في عيادة الدكتور بوبوف ، علاجاً « بالجيروفيتال » أو بحمامات البحر . كانت ايميلا قد بعثت حيويتي من جديد . كانت قد أجرت لي ، على غير معرفة مني ، حقنةَ حميّا ، عملية ازدراع للأمل شديدة الدقّة . وبفعل التخدير ، لم أكن قد أحسست بشيء . إن هناك نحتاً للحبّ عن بُعد لا علاقة له بتجميل الروح ، بل هو يمتّ الى جراحة الأعصاب — بالمنافسة التلقائية . لم أكن أحسبني أُصبت بالعشق ، فانا لم اومن بذلك قط . تحدث في الأعماق أشياء وأشياء ... حين يأخذ المريض يشبه طبيبته الجرّاحة ، فتلك بالأحرى علامة سيئة . لقد كان كل منا ، ايميلا وأنا ، يتجاوز الثلاثين ، ولكننا نحن الاثنين كنا في الخامسة عشرة . كانت هي في سنّ اهتدائها ، سنّ المتناولات الأوليات . وبنوع من النعمة اللامباشرة أو التعميد الجديد ، أضفت عليّ البراءة .

والى جانبها ، أخذت عمرها وقوّتها . قوة الكريتيد[1] ذات العينين الطفلتين .

حين هبطنا (وكان المفروض ان يلحق بنا كارلوس بعد خمسة عشر يوماً) في مطار سانتياغو دو شيلي ، بالقرب من شاطىء الباسيفيك . على بعد ستة الآف كيلومتر الى الجنوب ، ذُرعت جميع دروب جزر الأند الى أقدامنا . وفي مرتفعات « الكورديير » ، كان الثلج يتلألأ في الشمس . فلتة مُسكرة على أيام البرد والنار الآتية . واذ بلغنا المدينة ، أزالت ريح دافئة وربيعية ما كان قد لحق — بنفسينا من تجعيد . كانت سانتياغو في تشرين ، تشبه بألوف فاتناتها المرتديات الجينز الأزرق ، المتسكعات تحت اشجار الدلب المزدهرة ، وبمضخاتها النفطية المغلقة ، وباصاتها المتوقفة بسبب الإضراب ، وقنابلها المسيلة للدمـــوع ، وبورجوازييها الشبان المقنعين بمناديلهم الساخرين بالحكومة الشعبية — كانت تشبه الى حدّ اليأس باريس في شهر مايو .

كانت التشيلي هي فرنسا في منتصف الطريق : اكثر مما ينبغي او أقل من الكفاية . وأما ايميلا فقد كانت تجد نفسها عند قدم الجدار ، جدار « الاند » . الأفضل قبول التحدي

---

(١) تمثال امرأة يتخذ بدلا من عمود في مبنى ( هـ . م . )

وبدء التصعيد من غير تأخير . وبعد ذلك بأسبوع ، غابت في الطبيعة . كانت قد استعارت مزاليج من صديق مجهول ، وقصدت وحدها ، بطريقة الانتقال الايقافي ، الى «فالارون» ، محطة الرياضات الشتوية على بعد ساعتين من طريق العاصمة ، فوق المدينة . نداء القمم : مستحيلة مقاومته . مباشرة الى الأعمال التطبيقية . وابتدأت بركض حتى نهاية الشوط . لم يكن ذلك خفّة . ولكن ما كان فيها الأرض : الاجتذاب من علٍ . كانت تتدرّب على القتال عند حواف القمم ، فتسترد هناك نَفَسها . لابدّ أن الثلج والثورة كانا في عينيها شقيقين . وكان منخراها يزاوجان بين المذرّة والذرور . .

السقوط نحو الأعلى . إن الرصانة لدى البعض تنافس قانون الجاذبية . وقد كانت ايميلا موهوبة بهذه القوّة المدوخة : سقوط الأجساد التصعيدي . هذا الذي اصطنع منه المسيحيون الاوائل علماً روحانياً — وهو ما نجح معهم منذ ذلك الحين نجاحاً لا بأس به — واصطنع منه بعض الملل الاشتراكية مذهباً أخلاقياً ، كانت تعيشه أولاً لنفسها ، ليس كتضحية على الاطلاق ، وانما كامتلاء جسدي . كان جسمها الأشقر ، الذي صلّبه الارتفاع ، والذي تدرّب على رزانة الحركات بتخلخل الهواء يستقيم ويتفتح بين الألفين والخمسة الآف متر فوق مستوى البحر ، وهو ما يعادل الارتفاع المتوسط للهضبات البوليفية .

لقد ابتدأت العمل في منظمتنا بالصعود من السهول الحارة للحوض الأمازوني نحو « البونا » على ارتفاع أربعة الآف متر . كانت قد ارتادت هندسات التآمر البـــاردة بصعود شوارع لاباز وهبوطها ، تلك الشوارع الضيقة ، المبلّطة بالحصى المستدير الزلِق ، الوعرة كأنها سلالم بلا درَج . وقد انتهى الأمر بالعمل السري ، بمراتبه ونظامه ونَسقه الدقيق، الى مزج صرامتها بصرامة مناخ الجبل العالي . ومن هذا التألـّق الذي كان يذوب فيه الاستشفاء بالهواء، ووسواس النظافة التطهري وربما حنينٌ الى الخلاص الفردي أيقظه وضمنه القحطُ المحيط ــ من هذا كله ّ اتخذت ايميلا لنفسها خطّ سلوك .

إن السّهب المنقط بباقات « الياريتا » و « التولار » ، والسماء الصافية فوق مياه « التيتيكاكا » الشفّانية ، وتاج « الفوجيما » الذي يحيط برأس السائر في الغاب ويتألق طوال النهار فوق سقوف لاباز ــ كل ذلك كان يمنح هذه الجغرافية الخيالية حدّة لا تردّ : حدّة الهواء المثلج الذي يحرق الحلق والرئة . وهذا السّكْر الجاف يشفي من التسمم ، واذ ذاك يشيع زواج التنشق الصافي بالنزعة الثورية ، الذي يظلُ لدى معظم الناس خيالاً في الرأس ــ يشيع هذا الزواج في الجسم كله ما يشبه كأساً من العرق .

اني أفهم خيراً الآن (آنذاك كنت بعيداً عن اكتشاف

توالي الأسباب والنتائج) التحرير النصفي الذي بسط ملامحها منذ أن وضعت قدمها في سانتياغو ولمحت «الكوردير» فوق رأسها. هذا العزاء أن تخلف وراءها ازوجة «المدارات» والرطوبة المفسدة، هذا الكون من المياه الآسنة، ذلك النضج والزخر اللذان يصعب على الارادة أن تتمدد فيهما وحيث تحض الأرجوحة على القيلولة، والهواء الاسفنجي على تهدّل الأطراف. إن الجسد، على مستوى البحر، المناخ الإستوائي. يتبرجز والذهن يسيخ في الطين. وفي هذه الفيزيولوجية الحلقية المنتشرة اكثر مما يُظن، تتشابك في شعار شيطاني واحد هتافات الخلجان وتلوث الحواضر ومتاهات السياسة السيئة.

كانت حين قصدت الثلج —من كان يظن؟— قد ذهبت بخطّ مستقيم تتلقح ضد الالتباسات والظلال الفارقة والتسويات التي كانت تضفي آنذاك على المجتمع والحياة التشيلية اللون المتحير للسماء التشيلية، هذا التشوش القلق الذي يفقد الزمن: بدء العالم ام نهايته؟

كانت قد تركتنا في المدينة، تحت، لماطلاتنا وشكوكنا. كان اللبس يغمر كل دقيقة من الوجود، وكل طاريء، فيبدو سائداً في كل مكان —ولكن فقط في الوقائع والرؤوس، لا في القلوب. وقد كان اللبّس، بالنسبة لايميلا، مُريباً

بطبيعته : خلاف معنوي لم يُفصّل فيه بعد بين النبيل والحقير ، بسبب من خطأ أبطال القضية . لم تكـن صديقتي تحبّ الأشخاص المترددين ، ولا البروق في الضباب ، ولا المواقف التي لا تُلتقط ، وكل ما يتموج أو يتمورّ أو يتغير . إنها لم تكن تحترم الا الأفكار أو الأشخاص ذوي الزوايـا المستقيمة .

وهناك في الأعلى ، استردّت خطوطها العمودية — وتوازنها . كانت الوحدة والشمس الناضجة وسماء « الأند» الناصعة تجعلها في منجى من أوبئة اليومي والرتابة . ولكن ألم تكن السعادة بحاجة الى مذاق تخمّر ؟ إن الخمر والخبز والجبن ، لاتقود ، بعد كل حساب ، إلى الحياة الأبدية ، ولكنها تحارب بما فيه الكفاية ضيق الأيام . ان توابل الحضارة تلك الثلاثة الناشئة عن فساد الأجسام وعن تعفّن ملطّف جداً ، لم تكن تُسيل الماء في فمها ، بالرغم من أنها ألذ في التشيلي منها في مكان آخر . وكنت بدأت أتساءل اذا كان هذا البحث المجنون عن اللامتلوّث لن يفضي في الواقع الى نوع من البياض المأتمي ، الخانق .

عادت بعد خمسة عشر يوماً وقد نحلت ونظّفها سفع الشمس . وقد اصطنعت البرطمة ، بدافع من اعتزاز . كانت النزهات اقرب الى الرداءة ، وكان رفاقها جماعة من البنات الصغيرات ، والدروب قصيرة اكثر مما ينبغي

على ارتفاع ألفي متر ، كان جبل البقر . كان المرء يتنفّس تنفساً أفضل في أعلى « الايليماني » الذي يشرف على لاباز من ارتفاع ستة الآف وخمسمئة متر . أن تصعد ، أن تصعد دائماً . وكنت أعترض عليها بأن الإفراط في إرادة خرق السقف سيؤدي الى افتقاد الهواء . ان النقاء يمكن ايضاً أن يخنق . هزّت كتفيها . لم أكن أستحق الثقة ، سقف اكثر انخفاضاً مما يجب ، بالاجمال .

كان هواء « فارالون » قد أكسبها وجه فلاّحة ألمانية قاسياً بعض الشيء ، ضعيف الميل الى التمحلُّك . كانت قد عادت الى بيت جدّها التيرولي ، وكانت تضع كدَرات العلف في مستودع الحصيد ، وقد شمرت عن ساقيها ، في انتظار الخطيب الذاهب الى الحرب. كان التصعيد والثورة يردانها ، في الحقيقة ، الى ينابيعها الجرمانيّة . ولعلها كانت ، في إغرابية عمليات السطو المسلّح للمصارف والرحلات عبر « الاند » ، تشبع مطلباً تاسُّلياً [1] . ليس فقط النظافة ، ولا صقل الاولاد بالخمّان ولا تلميع الأرضيات الخشبيّة ، بل « الثورة » كنظام أعلى ، كآلة قاسية وأبوية حيث كل شيء ليس الاّ اقتصاداً وهدوءاً وسلطة . لم يكن شيء أقل شبهاً بصورة المخرّب الأشعث

(١) التأسلية : ردة وراثية ، او عودة الى اطباع الأسلاف التي ابتعدت عنها الانسال السابقة » ( هـ. م. )

من إمرأتنا النمساوية، التي تفوح صابوناً مرسيليا وصنوبراً، من متزلجتنا التي يشبه وجهها البيضوي النقي وجه مترهبة. إن الطيران المحلق لاعلاقة له بالتخريب الذي يزحف ويأتي من تحت: ففي هذه المنطقة من البراكين والزلازل. لم يتخذ الثوريون الخالْدَ طوطماً، بل اتخذوا النسر الأبيض والاسود، لا الشعر الرماديّ، بل الريش. كانت ايميلا تتعلم ان تطير بجناحيها الخاصّين.

هذا التزهُّدُ المجفَّف، كنت أشكُّ في ان يستطيع ان يحل عندنا محل السياسة. علاوة على ذلك، كان المطر يهطل على سانتياغو فيشوِّه المنظورات. كنا في مطلع الربيع. كان اعتدال الجو ممتلئاً بالأخطار. في أوائل السبعينات، كانت التشيلي بكرومها وصفصافها، وبأصواتها المغنّية، وبآفاقها المحنيّة، وبسلالها اللأى بمحار «بيلون» الشهيّ، وبفصولها الدائرة وسقوفها ذات القرميد الروماني، كانت أكثر بلدان اميركا اللاتينية تحضراً. أمزجة ومناخ من شدةّ الاعتدال بحيث لا يمكن، في عيـــون أصدقائي، الاّ تصيبهم عدواها خفيةً. وبالرغم من التضخم، والصفوف الطويلة امام الدكاكين، والتجار الذين كانوا يخفون السلع، والقنابل الموضوعة تحت الأبواب، وعمليات الاغتيال التي يقترفها يمين متطرف مطلق الحرية، فقد كانت الرفاهية وعذوبة الحياة ما تزالان سائدتين – وغير محتملتين. كان

النقاء الحقيقي هناك في الأعلى . وغائراً خلف « الكوديير » : في بوليفيا ، التي تجاور شمال التشيلي ، نحو داخل القارة.

كانت فكرة العودة الى تلك المرتفعات المحزنة تثيرني أقل مما كان متوقعاً . وقد حسبتني أجد تسوية مشرّفة بين ميلي الى الحسوات [1] وواجباتي السياسية ، فرحت أذرع البلد جيئة وذهاباً من الشمال الى الجنوب ، مستغلاً هرب ايميلا وغياب كارلوس. وكان أصدقائي في « الجبهة الشعبية المحلية » قد طلبوا مني بعض الخدمات الصغيرة . فقبلت راضياً ، مع بعض العزاء تقريباً . كانوا يكتشفون ، بعد أن ظنّوا أنهم في السلطة ، أنهم لم يكونوا إلا في الحكومة — هذا العجز المصنوع مؤسسة . حين يكون على حكومة شرعية أن تعمل على هامش أجهزة الدولة لتدافع عن « دولة » التخريب . فان الارادات الحسنة ليست فائضة ، حتى ولو كانت قاصرة على الاستعلام عما يجري على كيلومتراتها الأربعة آلاف طولاً . كانت خيبات الأمل التشيلية ، كما يخيّل إليّ ، تعنينا جميعاً — وعن كثب .

— على الاطلاق . لقد أسأتَ التصرّف كثيراً !

هذا ما قاله لي كارلوس حين وصل فحدّثته عن عملياتي

---

(١) الحسوة : هي البيئة الملائمة لزرع الميكروبات ( هـ. م. )

الحروبيّة . لم يكن وارداً أن نشوي أنفسنا مع هؤلاء المتوحّشين الذين أصبحوا واحدى رجليهم في القبر ...

— إذا تبعتها الرِجْلُ الأخرى ، فنحن الذين سنتبع. إن مصيرنا مرتبط .

— نحن هنا في الاحتياط ، بانتظار أن نكون في بلدنا . فلا تحشر نفسك ، يابوريس ، في وكْر الزنابير هذا ...

أجبته ببعض الحماس أن هناك رُكاماً يستطيع المرء أن يرى فيه الأشياء بوضوح ، في حين أن هناك صحارى من الثلج تُعمي عينيك .

قذفني قائلاً مع ضحكة سيئة :

— ذلك أنك لن تستطيع أبداً أن تفهمنا .

— أن أفهم ماذا ؟ أنكم سجّلتم شهادة « الثورة » ... وأنكم تريدون أن تحصروا بكم طابعها ؟ إذا كان الأمر كذلك فأرجوكم أن تتعاملوا مع التشيليين . إنهم يستنفدون قواهم بحثاً عن الصيغة الجيّدة

— لن نكتفي بأن لا نقول لهم شيئاً ، بل سنحمل الصيغة معنا . بعد خمسة عشر يوماً ، سنكون جميعاً قد ذهبنا . لقد تلقيت تقريراً ممتازاً . إن الشروط ، في « لاباز» ، ناضجة.

— أأنت وحدك تقرّر ؟

— لا ، سنعقد اجتماعاً عاماً « للقيادة » ، ولكن أنت

تعرف ما يعني ذلك ... إن الرفاق سيكونون موافقين .

والواقع أني كنت أعرف ما عساها تكون المشاورات ، بعد أن يكون قد اتخذ قراراته .

– أن نرحل من هنا مباشرة ، من غير مواربات ، ولا فترة انتقال ؟ إن ذلك سوف يُعرف ، وسوف نوقع التشيليين في ورطة .

– هذا شأنهم .

– وهو شأننا أيضاً . قد يُغضّ النظر عن غسل أيدينا مما سيحدث هنا ، أما أن نوسّخ أيديهم هم ...

وأقنعته بأن يبلّغ « أللندي » . فأتانا الجواب سريعاً بواسطة « م » رئيس فرقة المواكبة الرئاسية ، وهو صديق قديم مشترك : سيبذل سلفادور كل ما في وسعه ليسهّل لنا الخروج ، بل سيتدخّل لدى الدول الصديقة لييسّر لنا عمليات انتقال سرية ، ولكن لم يكن وارداً « اجتياح » بوليفيا من الأرض التشيلية . ينبغي ألاّ يخرج أي رجل أو أي سلاح من البلاد سرّاً . وبالمقابل ، لم يكن ثمة مثل تلك الألوان من الحشمة ، وقد كان يعرف ذلك ملياً ، ولكن هذه كانت له مسألة مبدأ .

دخل كارلوس في غضب مقدّس ، وانطلق في محاضرة

تاريخية طويلةعن انحطاط النزعة الأممية وعن مصائب المغامرات الفاشلة . كان يرى كل شيء بالأحمر والأسود وظلال الفوارق الآنية . ولم يكن سُلّم الألوان برمّته ، من الورديّ حتى الرماديّ ، يدخل في حقل رؤيته . وكنت أنهك نفسي في توسيعه أو مَسْخه ـ عبثاً . بل لقد قمت بدور الوسيط بين « أللندي » وبينه ، وهما غير راغبين قط في الالتقاء ، وحرصت بما فيه الكفاية على إزعاج الطرفين ، إلى أن قرّر كارلوس ، وقد نفد صبره ، أن يُلحِق بي مندوباً أشدّ إقناعاً ليحاول أن يهدّىء غضب « الرفيق ـ الرئيس » .

* * *

ـ ماذا فعلت بمظلتك الورديّة ، يا عزيزتي ؟

ـ أليس هو احتفالاً في بستان ؟ أم أنكم جميعاً تعتبرونني عاهرة ؟

هذا ما أجابت به إيميلا بجفاء وهي تهبط عليّ بثياب المظليّين : بنطال كاكي ، وصدرية صوف مضلّعة ، ومداسان . من غير ظلّ على الجفنين . ولا سوار في المعصم ، وفي شعرها خصلة عدوانية .

ـ وليست هي كذلك نزهة في غابة . لم يكن يُطلب منك أن تُخرجي تنانيرك المسلّكة المنتفخة . ولكن لا بأس بثوب من قطعتين ...

ـ أنا ، يا بوريس ، خفيفة خفّة لا يمكن إصلاحها ، كالعادة . ...

مرةً أخرى . كانت تفضّل قلّة الأدب ، خشية أن أن تكون متذلّلة . بِذْلة مستعارة لم تكن حتى مدروسة . كانت عصيّة على الدبلوماسية ، فكان أن قاومت دور الملاطِفة أو سفيرة الإغراء ، إذ كانت تعتبره دوراً محطّاً لها .

كنّا نقصد « توماس ـ مورو» ، المقرّ الخاص للرئيس. وقد جاء «م » ، المسؤول عن « فريق أصدقاء الرئيس » وفقاً لاسم المعمودية الذي كانت الصحافة قد أطلقته على فرقة المرافقة المسلّحة المؤلفة من مناضلين مدرّبين تدريباً حسناً والذين لم يكونوا يفارقونه قيد أنملة ـ جاء «م» يصطحبنا بعد العشاء . وكان بالامكان أن نعتمد على كتمانه . لم يكن من سرّ بين « أللندي» وبينه . تلك الحميمية اليومية ، البعيدة عن التعالي والتزلّف ، التي كانت تشدّ ، من فوق أربعين عاماً من فارق السنّ ، رئيس الدولة ومناضلاً شابّاً مجهولاً ، كانت تزداد قيمة على قدر انعدام الأسرار تقريباً بين «م» وثوّار البلدان المجاورة ـ كان ماضيهم المشترك ما يزال طريّاً ـ ، وكان لا بدّ له من كثير من اللباقة ليذهب ويأتي من قطب إلى آخر . وفي الطريق ، تحدّثنا عن كل شيء وعن لا شيء . وكانت إيميلا تصغي ، من غير كلمة ، إلى مزاحنا

وتورياتنا . كانت كثيراً ما عنّفتني بسبب من عشراء السوء، وكان يروق لي أن أرى على وجهها علامات الفضول تتنازع من ذلك القرار التحقيري الذي كانت تؤكّده .

أمام حاجز الدخول الضخم ، اتخذ قربينيّو مركز الحراسة وضع الاستعداد ، ومن غير أن يسألونا شيئاً ، فتحوا لنا المصاريع باحترام عسكري . كان يصعب عليّ دائماً ، إزاء هذا النوع من التّبْس ، أن أحافظ على رصانتي .

كان الوقت منتصف الليل تقريباً ، وكانت الكوّات على الحديقة مضيئة كلّها .

لم أعبر البهو قط من غير أن أتوقّف عند لوحة قماشية كبيرة ، مرسومة بلطخات سود وحمر ، يستطيع المرء إذا نظر من بُعْد يسير أن يتعرّف عَبْرها وجه شي غيفارا . كان مستحيلاً ألاّ يلاحظ المرء ذلك . كانت تغطّي الجدار كله . مقابل باب الدخول . ما هي الأفكار التي كان ذلك الشعار يوحيها إلى الجنرالات الذين كانوا يجيئون فينتظرون قبل الدخول ؟ كان «أللندي» أكثر من هاوٍ متذوّق : كان له شغف بالرسم ، وهو فنّ حسّي ولمسيّ هو بطبيعته تحيةٌ للحياة ، بعكس الموسيقى التي ترافع للموت والتي كان أقلّ تذوّقاً لها . كان مقرّ « توماس — مورو » متحفاً ، وكنت أحب أن أقصده لا لشيء إلاّ لأتأمّل لوحات «ماتا» بالفوشين

الشفّاني ، لون زهرة الزينة . ولوحات « سيكيروس » بكل السلّم اللوني للمغرة . ولوحات « ميرو » الزرقاء والصفراء. ولوحات بيكاسو... أما « م » فقد مرّ بلا نظرة أمام الروائع . ومرّت هي بلامبالاة .

في مكتب ذي أثاث خشبيّ بسيط . ومقاعد سويدية عريضة — من التيك والجلد — تحيط بها مجموعة جميلة من الفخّار القبكولومبي ، كان « الدكتور» ، كما كان يدعوه خاصّتُه ، مستغرقاً في لعبة شطرنج مع أحد حرّاسه . وقد علّق اللّعب حين رآنا قادمين ، مفتوناً برخّ كبير سيتيح له أن يستأنف الهجوم بمجرد أن نرحل . كان يرتدي صدرة خضراء من جلد الأيل وكنزة بياقة مبرومة ، وقد استقبلنا فرحاً ، محبّاً وطريفاً طرافةً لا تقاوم ، لا بصفته الرئيس ، بل بصفته « الشيشو » الذي يملك تلك الطيبة الخشنة بعض الشيء التي كانت تبدّد كل أنواع الضيق . وبروحه الفكاهية الساخرة ، وبالبشاشة العامة ، سقط سلاح المرأة الحرون التي ما لبثت ، بعد عشر دقائق ، أن طرحت مظلّتها . كانت قد بدأت تفقد بعض تعاليها . ولكن ليس ثقتها بنفسها . وبعد عشرين دقيقة ، أخرج من خزانة قبعة تيرولية فأدخلها في رأسها : « لكل مقام مقال . من أجلّك أنت اشتريتها . يمكن أن تخدمك. » كان هو أبوياً ، أشبه بطفل طيّب ، كما ينبغي أن يكون الأعمام ( أم لعل هذا إسقاط مني ، بما أملك من

روح الحميد )؟ وكانت هي في نصف مزاح ونصف تعال ، كما ينبغي أن تكون اليتيمات اللواتي لا يعرفن على أيّ قدم يرقصن ... وبعد نصف ساعة ، بلغنا مرحلة المقارنة ، ونحن نلعق كؤوساً بلّورية صغيرة ، بين الكونياك المحلي والكونياك الفرنسي . وبدا لي أن إيميلا ، التي كان أبوها قد طردها ، ستجد أخيراً الوصيّ الذي كان لها الحق فيه .

ومن غير فترة انتقال ، باشرنا الأمور الجادّة .

ـ هكذا إذن ، تريدون جميعاً أن ترحلوا ؟

قالت : ـ بل نعود إلى بلدنا .

ـ لا أريد أن أعرف إلى أين .

ـ على أي حال ، ليس لك أن تعرف ذلك .

ـ كل ما أعرفه هو أنكم لا تستطيعون أن تذهبوا من هنا .

كانت هي في وضع الشبوب ، منذ ضربة المهماز الأولى. وكان هو مبتسماً أمام هذه القحة الكبيرة ، سلاح الضعفاء. أما أنا ، فلم أكن أعرف أين أتموضع ، وقد قدم « الدكتور» اقتراحات عكسية واضحة : وثائق ، تواريخ ، خطط سير ممكنة . وأجابت بدرس منهجي عن الكفاح المسلح ، عن حالاته المستعجلة وعن ضروراته . وكان لا بدّ لها ، بالاضافة إلى ذلك ، من أن تستعين بي شاهداً في هذه المناظرة

ـ لنتجاوز التفاصيل ـ بين قوانين عدم التدخّل ومبادىء التضامن الأممي . ولما كان الامران قابلين كليهما لأن يُدافع عنهما على قدم المساواة . فان الخيار لم يكن يمكن أن يصدر في الوقائع إلا عن قرار بمطلق الحق . وتلك المرة ، تركت العواطف جانباً . فتركت إيميلا ، على مضض ، ووقفت إلى جانب رأي الدكتور الذي لم يكن يملك السلطة وحدها ، بل المنطق والعقل . ففي الوضع الذي يجد فيه بلده نفسه ، محاصراً من كل جهة ، وبالنظر إلى علاقة القوى التي هي طبعاً في صالح المعسكر الآخر ، كانت ضيافة « أللندي » أكثر من هدية جميلة . فان يُطلب منه أكثر من ذلك كان أمراً غير معقول . وان يُطلب منه من غير أن يُقال له قبل ذلك شكراً للباقي ، كان بكل بساطة نذالة . وذلك المساء ، تبادلنا إيميلا وأنا نظرات نارية أكثر من عشر مرات . من غير أن يتغلّب أحدنا على الآخر . وفي آخر المطاف ، أخرجت العلم الأبيض ، من غير أن تعتبر نفسها مهزومـــة . سوف تنقـــل نقلاً أميناً مضمون هذه المقابلة إلى رفاقها الذين سيقررون أي موقف يتخذون . وقطّب أللندي حاجبيه قائلاً : « حذار ! ليس هناك من مفاوضة بيني وبينك . إنني أبلغك ببساطة قرارات لحكومتي ... وبكلّ ودّ ... لأن أحدنا يعرف الآخر جيداً . هذا كل شيء ».

واقترحت أن نشرب كأس ويسكي . فقد آن الأوان.

قال الدكتور بعد أن جعل قطع الثلج ترنّ في كأسه :

– أعتقد ، يا إيميلاّ ، أنني أحسدك .

– لا يبدو الأمر كذلك ، أيها الرئيس .

– بلى . لأنك تستطيعين أن تفعلي ما يحلو لك . هذا شكل من الحرية لا أملكه بعد. ولكن عليك كذلك أن تفهمي وضعنا ، وإذا لم تفهميه ، فهذه مع الأسف غلطتك .

– بل أنت الذي لا تفهمنا ، يا رئيس . أن نعود إلى الكفاح ، ذلك هو عهدٌ ينبغي أن نلتزم به . لو كان « تشي» موجوداً ، لفهمنا .

قلت لأنهي النقاش :

– لست على يقين إطلاقاً أنه كان فهمك . لا يمكن إنطاق الموتى .

ومن النظرة التي رمتني بها ، أدركت أنها لن تنتظر مني بعدُ شيئاً غير الصمت .

تأملنا الدكتور باسماً ، ثم نهض وسحب من مكتبته نسخة مدعوكة بعض الشيء من « حرب العصابات ».

– أنظري يا إيميلا . عندما التقينا لأول مرة ، أنا وتشي ، أهداني هذه النسخة ، وتستطيعين أن تقرأي بنفسك الإهداء.

فتحت إيميلا الكتاب بحذر : « إلى سلفادور أللندي الذي يسعى بوسائل أخرى ، إلى القيام بالشيء نفسه . بكل محبة . تشي . لاهافانا ، ١٩٦٠ .

وكرّرت بصوت خافت المكان والتاريخ . وأعادت له نسخته وعليها هيئة من يقول : « آسف ، ياسيدي ، ولكن أذونك بالثأر للنفس أصبحت بالية ».

واستطرد الدكتور : – ولماذا لا تبقين هنا ؟ إن في الشيلي مكاناً لأشخاص مثلك ...

وأضاف وهو يغضّ عينيه بلطافة :

– لقد دمجنا آخرين أشدّ تمرّداً منك .

– إن القصر ، حولك ، ممتلىء ، يارئيس ، وأخشى كثيراً أن أضيع فيه . إن بلدي الذي نقاوم فيه والسلاح في يدنا ، موجود هناك .

لم يكن ثمة ما هو أكثر من ذلك عجرفة وتعاظماً . ونهض أللندي . من أيّ مستودع للصبر أستمدّ ذلك القدر من الودّ لمصاحبتها حتى الباب ؟ وطلب إلى «م» أن يرافقها إلى بيتها. ورجاني أن أبقى لحظة . ولم تقل لي إيميلا إلى اللقاء .

كانت تبدو عليه الآن هيئة تعب عميق . كما لو أنه التقى ثانيةً الشيخوخة والمشكلات ، دفعة واحدة .

إنهم أطفال ... يلعبون أدوار جنود الخيّالة ، ولكن ليس لهم من مطايا ... فليفعلوا كالجميع : قدم على الأرض، وخطوة خطوة .. وأضاف ببسمة غامضة :

ـ هذا إذا أرادوا حقاً أن يبلغوا الهدف .

ـ إنهم لا يقدرون الرهانات حق قدرها .وليست هذه غلطتهم .

ـ إنني ، سياسياً ، آخذ عليهم ذلك . أما إنسانياً ، فأفهمهم . كل شيء سهلٌ بالنسبة اليهم ...

كان يبدو وكأنه يحدّث نفسه، ثم استدار إليّ ، واستعاد ثانيةً صوت الجهير الأول المنكّد :

ـ وأنت ، يابوريس ، ما الذي ستفعله ؟

ـ سأحاول أن أشرح لهم . ولكن بلا أوهام : إنهم يريدون أن يرحلوا على الفور .

ـ إذا أرادوا أن يرتكبوا هذه الحماقة ، فليتدبّروا أمرهم وحدهم . إنني لا أستطيع أن أفعل لهم شيئاً . إن كل شخص مدين لشعبه ، لبلده ( كان الآن يطرق بقبضته ذراع مقعده ) إن معركتنا هي هنا . ولن يكون الأمر سهلاً . إننا نُخنق في صمت .من غير قصف ولا إعلان حرب ... وصديقتك إيميلا التي لا ترى في ذلك غير النار ...

كان صوته يقاوم أشباحاً ، وحين كان يقول « نحن » . فانه كان لا يزال وحيداً .

– هل شرح لك « س » ما يحدث في الشمال مع بوليفيا ؟

– سنتحدث في ذلك . سنحاول أن نفعل شيئاً . على أي حال . الخطر قائم في مكان آخر ..

رفع ذراعيه نحو السماء ، كأنما ليقول « كل يوم يكفيه همّه.لِنُسلْسل القضايا » ثم أخذ يلعب آلياً بقطع الشطرنج أمامه . وكان الجميع قد ذهبوا للنوم . فأخذت مكان اللاعب الذي اختفى . وبعد عشر دقائق ، كان الملك قد خسر معي .

– أنت تتقصّد ذلك ، يابوريس .

– لا يادكتور : كان الوضع ميئوساً منه .

– كفى ، كفى ! ليس ثمة على الاطلاق وضع ميئوس منه . ليس ثمة إلا أوضاع ينساق فيها البلهاء إلى اليأس .

رافقته حتى أسفل السلم الذي كان يصعد إلى غرفته . وبعد أن ارتقى بضع درجات ، التفت وقال بصوت خافت :

– قل لهم أن يتخذوا على الأقل الحيطة والحذر ...

* * *

كانت الكرة في معسكرنا . ودُعي مجمعٌ إلى الانعقاد سريعاً ، من غير تعيين موعد لاختتامه ، في أحد الأملاك

الكبيرة بجوار سانتياغو ، كان صديق تشيلي قد تركه لنا فارغاً ، وفيه برّاد مليء حتى الشفة . كنا محبوسين لبضعة أيام .

والحق أن كلا منا كان محبوساً في ذاته بذلك الإحكام المحفور على الوجه بصفة وراثية . كان زهاء خمسة عشرة كتلة حجرية قد اصطفوا حول طاولة كبيرة للمطبخ : من البازلت ، والسبج ، والفلدسبات ، وكلهم ذوو لون بركاني منطفىء ، رماداً أو نحاساً قديماً . أما إيميلا ، فكانت تشذّ عنهم ، مذهّبة على حياء ، بوجنتيها الدراقنيتين ، وكانت قد حاولت عبثاً أن تتصلّب ، فكانت أشبه « بغرنفا » من البندقية ضائعة بين تماثيل من « جزيرة عيد الفصح ». « هاهم إذن أولئك الذين قرّرت أن تتطابقي معهم »! هذا ما فكرت به على حدة ، وأنا أتأملها على الجانب الآخر من الطاولة ، متطاولة واحتفالية ، كأنها زنبقة . لم تكن هي المرأة الوحيدة في الفريق ( الذي كان يضمّ امرأتين أخريين ) ولكنها كانت الوحيدة البيضاء البشرة . كانت في جلستها الغائرة ، مقابل كارلوس تماماً ، تسعى لأن تتصاغر فوق مقعدها ، ولأن تخفي شُقرتها ، وعالمها المفرط الغنى ، ذلك الإرث من الحليب والسكر الذي كانت تحمله على جلدها كما لو أنها كانت تريد أن تتقلّص إلى عظام ، أن تصبح حجراً بين الحجارة .

كانت هي المرة الأولى التي أراها رسمياً وسط أخويّتها ، أسرتها بالتبنّي ، عشيرتها المختارة ( ولكن من ذا الذي اختار من ؟ ) ، تلك الوجوه الهادئة المحشوّة بالحماسة حتى الشفة ، كما يُحشى المدفع البارود الأسود ، ذلك النوع من العدوانية البليدة . كانت تعرف خيراً مني ظلالها ، ومستعرضاتها المزيّفة ، وحيلها. هؤلاء الرجال الذين هم في قامة الأطفال ، القصار السمان ذوو الصدر العريض والشعر الأسود الكث ، القساة كالصوان ، لم يكونوا قد تغيّروا ، إذا هبطوا نحو البحر ، حتى في ملابسهم : خفاف من جلد ، وبناطيل مشدودة ، وصداري مرتّقة مئة مرة ( كانت تتراكب أو تنزع لتصبح معطفاً أو سترة أو منامة أو تبّاناً ) . كان الوجه منهم عَظْماً كلّه : خدان مقعران ، جبين محدّب ، وجنتان ناتئتان ، عينان نصف مغمضتين تشقّان حتى الصدغين الشكل المتوازي السطوح لحزّة رمادية . مزرقّة عينان قاتلتان تدور فيهما حدقتان صغيرتان سوداوان ، لا يُنفذ إليهما ، ترقبانك مواربة .

في اليوم الأول ، تكلّم البعض منهم فقط : مندوبو الداخل ، واحد أو اثنان مسؤولان كنت قد عرفتهما في هافانا . لم تكن ثرثرتهما المرخّمة تعوّض عن بَكَم الآخرين ، بل كانت تكثيفاً له . كان الصمت في فمهما يُدحرج حصى صمّاء ، ثم يتوقّف فجاة : إذ ذاك ، كانا يبتسمان كما

ليعتذرا ، فكانت شفاههما اللحمية تكشف الهيكل : تلك الأسنان الهنديّة التي تستبدل بالميناء العظم . وكانت إيميلا تجد هناك مزيّة ذلك الصمت الذي كانت تحبّه ، والذي كانت تُسمع فيه المفاصل وهي تقرقع ، ويُحَسّ فيه الغضب وهو يمطّ سُلاماه في الظلام . ليس هو الحقد تماماً ، ولا العداوة أو الضغينة اللتين لا تفعلان إلاّ أن تمسّا الجلد ذات لحظة . بل هو ذلك الحَذَر الكتيم ، العصيّ ، الهائج على غير ما توقّع ، المصنوع من إذلالات وخداعات واغتصابات مترسّبة في ذاكرة العِرْق ، ومُعَدّنةٍ على نحوٍ ما في داخل الجسم . إن عدّة قرون من الوحدة متجمّعة خلف تلك الجبهات تضفي على الصمت كثافة من رصاص ، وتمرّ الدقائق بين العبارات كأنها ساعات . إلى أن تتراخى الشفاه أو بالأحرى الأفكاك من جديد ، فاذا هي الكلمات التي يبدو وكأنها تنتهك محرّماً كأنها صَدْع يشقّ جداراً مقدّساً .

في اليوم التالي ، انتعش النقاش ، فانطلقت الألسن من أسارها . وإذا الصمت الثقيل المُسدى بكثير من الأيدي العقداء ، والخناجر المعقودة ، ينفرج فجأة بمنافسات من الخطب والجهر بالعقيدة . ولم يلبث كارلوس الذي كان فيضُه اللاهث يغطّي الاجتماع ، أن استعان بلينين ، مما أيقظ المنافسين . وأوردت إيميلا حديثها مع « أللندي » . من غير

أن تخفي « حزنها العميق » إزاء سلوك الرفيق بوريس . لا إزاء تساهله ( الذي كانت تستطيع أن تعذره بل حتى أن تفهمه ) بل إزاء تواطؤه الواضح « مع المواقف الرجراجة التي كان يقفها الرفيق – الرئيس » وقد أقرّها الجميع ، باستثناء كارلوس الذي كان يلبس قفاز الحَكم . وإذ ذاك بدأ توزيع العلامات التصنيفيّة ، رقصة المقاطع الغنائية الواعية . كان بعض الرفاق الذين سبق لي أن رأيتهم ، في أماكن أخرى ، محتدمين غزيري العصارة ، يُغرقون براعتهم في النظريّة ، كما تُغرق في أعماق البحار الرواسب الإشعاعية . كانت تعيث في هذا النوع من الاحتفالات عدوى الامتثالية التي تحوّل المداولة إلى تمرين في الأسلوب بالمقلوب . ما إن تنبثق فكرة حيّة بعض الشيء حتى تُذوّب سريعاً في الايديولوجية لجعلها « كما ينبغي » . كان معظم المتناقشين يبدون مرتاحين أن يتكلّموا كالكتاب ، كالخطيب السابق ، كما تكلّم الناس عشرات الألوف من المرات قبل ولادتهم .

إذا وضعنا التفاهات جانباً ، فقد تبدّى أن جميع هؤلاء المنفيين لم تكن لهم أية رغبة في انتظار التفاصيل التي طلبها « أللندي » ، ولا وقت الحصول على السمات وأذون الانتقال من بلدان أخرى – هي كلها مُفرطة البُعد – التي ستُثبت على جوازاتهم . كان رفاقي شجعاناً : فحين عزموا على العودة إلى بلادهم ، كانوا يعرفون أن ذلك قد يكلّفهم

حياتهم . أترى الرهان لم يكن بعدُ هو نفسه بالنسبة لي أنا الذي كنت أتردّد في المجازفة بكل ما أملك ؟ أم أن الشجاعة كانت تعوزني بكل بساطة ؟ لم أرد أن أتراجع من غير أن أكون قد عقدت بعض المناقشات . عبثاً : فقد كان لمناقشيّ كتابٌ مرجعٌ للوقاية ، وكمامات مُستنسخة ، فهم إذن مُحصّنون منيعون . انني أحترم الانحياز للأمل احتراماً مفرطاً يمنعني من أن أمثّل بلذة دور الأطباء المكدّري الصفو . وقد جهدت وأنا في حزن عميق ، أن أوحي ( وأن أوضّح موقفي في الوقت نفسه ، ولكني كنت أتوجّه إلى إيميلا بقدر توجّهي إلى نفسي ) بأن السياسة حين تنحطّ إلى علم روحانيّ ، فان المرء يوشك أن يربح السماء بأسهل مما يربح الأرض . وأن هذه الطريقة بمواجهة الثورة التي يُطاب بها من الجميع ومن كل مواطن أن يتحولوا على الفور إلى شهداء « للقضية » لم تكن تبدو لي الطريقة الأوفر يقيناً وأماناً : فربما لم يكونوا جميعاً ، بعد كل حساب ، موافقين . إن الحجج القديمة — من مثل الأولاد ، والعائلة ، وكسب العيش ، الخ —معروفة ، ولكنها إذا كانت حقاً قديمة إلى هذا الحدّ ، فلماذا لا يُحسب حسابُها منذ الآن ؟ ما عساهم سيفعلون بكل هؤلاء القليلي الذكاء الذين لا يملكون الا بمقدار النصف حسّ الواجب والذين لم يكن يقدّم لهم خيارٌ آخر غير الخيانة العظمى أو التضحية القصوى ؟ هذه الدروب المتوسّطة والمتعرّجة على

نحوٍ ما ، لم أكد أنتهي من رسمها حتى كانت تبدو لي وقد تلوّت وتذبذبت في فاصل مشبوه .

كان كارلوس مجرّداً سيفه ، قاطعاً وواضحاً . وكان حسابه الواثق ، الذي كانت نتائجه تبدو دائماً بلا بقيّة ولا عوامل خطأ ، يتطابق مع المزاج العامّ تطابقاً أفضل من محاولتي الجبريّة التي تُفسح مجالاً للمجهول . ولم تكن إيميلا ، الشديدة الإعجاب به ، تغادره بعينيها . ولو منحتني نصف تلك النظرات لاستطعت أن أحاول ترجيح الكفّة إلى جانبي . ولكن مجرد التفكير بموازنة الحسنات والسيئات وبمقارنة كفّتين لا بدّ أن يبدو لها تسويةً مع التردّد .

وقد بدأت مفارقاتها ، من غير أن تفاجئني ، تزعجني على نحوٍ جديّ . كان كلّ تعقيد ، بالنسبة اليها هي الذكيّة ، إظلاماً ، وكل محاكمة عقلية مماحكة . وهي الصبور ، كانت تشمّ في كلّ تحوّل مصالحةً وتسوية . والسرّ الشفّاف ، هو أن كارلوس كان في نظرها أثقل مني وزناً . وكانت الكائنات عندها فوق الأفكار . وهذه كانت نقطة الضعف عندي . فأنا أيضاً ، آثرت دائماً أن أخطىء مع الذين أحبهم ، على أن أكون محقّاً مع الآخرين . وكان ينبغي لي أن أتغلّب على كبريائي لأدرك بوضوح أنها حين كانت تتكلم ، فانما كانت تتوجّه إليّ كما تتوجّه إلى الجميع وإلى كارلوس خاصة .

لا شأن للسياسة بالأفراد . فهي تبتّ « بشكل عامّ » ، وجميع الكائنات هي بشكل عام ، قابلة للتبادل . كانت إيميلا بالنسبة إليّ فريدة ، وأن أسمعها تحدّثني في السياسة ، كان ذلك يؤذيني جسدياً . أما مع كارلوس ، فقد كانت ، بالكلمات نفسها ، تتحدث عن شيء آخر .

كنت أراقب لعبتهما فيغمرني ، شيئاً فشيئاً ، إحساس مشؤوم : إن « بصورة عامة » لا قيمة لها . كنّا بسبيل أن نمزّق أنفسنا من أجل لا شيء ، حول لا شيء ، جوهريّ . كان كل منا يؤمن بما يقول ، فكانت الخيارات واضحة في كل جانب . ولكن الناس لا يُختارون وفق آرائهم . إن ذلك مفرط السهولة . والدليل : أن المعسكرات مرسومة مقدّماً . وكنت قد حسبت ، وأنا أدافع عن مواقعي ، أني أبسط كل شيء ، في وضح النهار . ولكني كنت أحسّ الكبت والسواد من تحت . كنت أحزر فيهم هذا الظلام ، كما أحزره في نفسي ، مزعجاً كالصدى حين لا يعرف المرء مصدر الصرخة . كان يأتيني من عمق متاهة ، ولن يكون لأية فكرة أن تعطيني خيطه ، وسيزيد المرء ضياعاً أن يعارض الحجّة بالحجّة ، والواقعة بالواقعة . الافضل الانتقال إلى الطابق الأعلى ، حتى بلوغ ذلك السرداب الذي حفرته الذاكرة تحت أرضية الكلمات التي تجعلها تُصدي بالنسبة لكل انسان على نحوٍ فريد ، بحيث أن العبارات نفسها لاتقول

لأحد الشيء نفسه . وفي هذا السرداب ، حيث كل شيء ذاكرة ، وحيث لا تهبط الذاكرة قط ، إنما تمارس كيمياء التناغمات والتنافرات بين رفاقي وبيني عملها — وليس في الطبقة الأعلى ، طبقة المساطح والميول .

ماذا كانت ردود فعلهم على تقرير مندوبي الداخل الذين لم يكن يَسَعهم أن يتجاهلوا فجواته وخفّته ، بصفتهم منفيّين ، مرتاحين للعودة غداً إلى بلادهم وقد أنهكتهم مذلاّت المنفى وأن يكونوا قد أعتُبروا « هنوداً » كريهي الرائحة وحمقى بعض الشيء من قبل جيرانهم في الطابق ، أولئك البورجوازيين الصغار البيض الذين كانوا يعتبرون أنفسهم بريطانيي أميركا الجنوبية الأكثر تميّزاً . أيّ خطّ مستقبلي كان يقترح كلّ واحد حول هذه الطاولة ؟ كان « ايفان » ، المدرّس في المناجم منذ عشرين عاماً ، يُلحّ على أن يكون تجميع المسلّحين في منطقة المناجم ( وقد كان على حق في ذلك ) . أما « فابريسيو » الذي كان من الشمال الأرجنتيني ، فقد كان يرى إقامة القاعدة الرئيسية الخلفية في « ترتاغال » على حدود بلده . وأيّدت إيميلا مشروع إقامة رتل ريفيّ شمالي سانتا كروز ، بالقرب من مصانع السكر ، بالرغم من أن الأرض غير مناسبة : فهناك كانت مزرعة أبيها التي عاشت فيها . أما كارلوس ، القائد الطلابي القديم الذي وُلد في العاصمة ، وكان لفترة طويلة معبود « الجامعة » المركزية ، فلم يكن

يرى مبرراً لشنّ العمليات المسلحة من خارج « لاباز» ، مع احتمال الانسحاب بعد ذلك إلى الجبال المجاورة . وهكذا دواليك .

الرجال العامّون ، ليست تلك غلطتهم : فمعظمهم أصبحوا عامّين لأنهم أخفقوا في حياتهم الخاصّة . وكان رفاقي أيضاً ، بالرغم من كونهم في المقاومة السرّيّة ، قد غشّوا وخادعوا : كانوا يريدون بكل بساطة أن يتلاقوا مع أسرهم ، فيما وراء « الكوردييز » على بُعد مئة كيلومتر . بطلان المناظرات ، وتضليل المجابهات المجرّدة . هناك شيئان في السياسة : الاستعراض والمعركة . وقد كنت أريد أن أخوض مرة أخرى مخاطر المعركة ، أما بصدد استعراض الكلمات ، فقد كنت أفضل الانتقال إلى صفّ « لاشيء للتصريح » .إن مناقشات الأفكار تضجرني بعمق . وحتى إذا كنت معانداً مصرّاً ، فقد تعلّمت بما فيه الكفاية بطلان ذلك . إن حبّة الجنون واللحظة المناسبة هما اللتان تؤمّنان النجاح . أما في السياسة ، فالاخفاقات وحدها منطقيّة — باعتبار أن الانتصارات هي بطبيعتها مخالفة للصواب ما دامت تولد من لقاء مصادفة بشغف . كانت إيميلا والآخرون يملكون الثانية ، وتعوزهم الأولى . إذن ، فما جدوى أن يصفّ المرء البراهين والأطروحات والاستشهادات ؟.

هل تراني أجرؤ على قول ذلك ؟ إن الأفكار لا تبتّ شيئاً . إنها تستطيع على الأكثر ، في أحسن الأحوال ، أن تجعل الانسان ذكياً . ولكن من سيكون هذا الرجل حين تأتي دقيقة حقيقته ـ تلك التي سيجد نفسه فيها مدعواً للتوفيق بين حياته وأفكاره ؟ هذا ما لن تقوله تلك الأفكار أبداً . إن القرارات الوحيدة الحاسمة في قراراتنا هي تلك التي تأخذنا من خلف قبل أن نكون قد فكرنا فيها ؛ لأنها ذات طبيعة أخلاقية ، أقصد : ماديّة . إن الصدق مع النفس ومع الأصدقاء ـ المقياس الوحيد والأخير ـ لا يتعلّم في معجمات الايديولوجية العديمة الطعم . إن المرء يملكه في عروقه أو لا يملكه . إن قائمة « المواقع » لفلان أو فلان ، على الخارطات السياسية ، لا تستبق الحكم على الدرب الذي سيسلكه عند المفترق الحاسم .

أكان الناس قد سخروا بما فيه الكفاية طوال أعوام من « أللندي » ومن رفاقه المرحين ، واستهزأوا بالإخفاقات الانتخابية والارتجاجات وزجاجات الويسكي ومناورات الأروقة ؟ ولكن حين أقبل ذلك الصباح الرمادي من يوم ١١ أيلول ١٩٧٣ ، كانوا جميعهم تقريباً هناك ، إلى جانب رئيسهم وصديقهم ليـُصلْوا معه رشّاشات القصر الثلاثة تحت طائرات المطاردة . إنهم لم يسحبوا كثيراً من الصكات على « الثورة » ، ولكنهم حين آن الأوان دفعوا نقداً كامل ديْنهم .

في حين أن آخرين من أصحاب المواقع الحاسمة والصوت المرتفع ، كانوا في الساعة نفسها ، واليوم نفسه ، يختفون في الطبيعة ... فكيف للمرء أن يعرف ؟ كان ذلك الرجل يملك ، من غير أن يعرف ، حسّ الشرف ، وهو قمرٌ قديم مضحك لم يكن يظهر في مؤلفاتنا عن التربية النظرية . أما ذلك الآخر ، الذي كان واسع المعرفة ، فلم يكن يملك ذلك الحسّ ... كان هذا يؤمن بالسماء ، وذاك لم يكن يؤمن بها ... فماذا تُجدي الاعلانات والمذكرات والاجتماعات ؟ إن غايتها أن تقنّع خطوط التشقّق ، وأن تَخْدع بالكلمات .

لم يكن أصدقائي من أولئك الذين يوقّعون عبارات بلا رصيد . ولكني كنت ، بدلاً من أن أصغي اليهم ، أرقب وجه كل منهم لأكتشف على ملامحه ، وتحت طلاء الصيَغ ، الوجه الآخر ، وجهه النظيف ، ذلك الذي لم يكن هو نفسه يعرفه ، والذي سيكون له غداً ، وبعد غد ، وحيداً أمام « أنايا » عارياً ، ويداه خلف ظهره ، أو في الساعة الخامسة صباحاً ، في صمت بيت منعزل ، وقد استيقظ على أصوات القنابل اليدوية أو الرشيشات . أو ببساطة وجه السيد — جميع الناس حين لا يكون قد شرب منذ ثلاثة أيام ، ولا يستطيع بعد أن يضع رجلاً أمام الأخرى ، وحين يتداعى في الوحل تاركاً صفّ الرفاق يمضي بعيداً في الغاب . لم أكن أحقد على المتسلّل أو على المخبر الذي كان

مختفياً بيننا على الأرجح والذي سيتيح عملٌ عقلي من الاستنتاجات والتحقيقات التعرّف عليه بلا شك ( متأخراً بعض الشيء ) . لم أكن أطارد الخصم المجهول ، بل أخانا الخفيّ . كنت أحقد على ذلك المواطىء الوحشيّ الذي نحمله فينا والذي سيقفز عاجلاً أم آجلاً على حلقنا وينتزع أقنعتنا. كنت أحقد على عدوّنا الأشدّ حميميّة . على كل واحد منا. على نفسي . كنت أودّ أن أشعر على وجهي ثِقَلَ النظرة نفسها ، نظرة المحقّق الذي كان سيساوي بيننا . ولكن النقاش كان يبقى على وجه الكلمات . فكنت أصمت ، شارد الذهن . أما إميلا المتنبّهة لكل شيء ، فقد كانت تنظر إليّ وهي تقطّب حاجبيها . كانت تحقد عليّ الآن بسبب صمتي ؛ حقدي عليها بسبب خُطَبها .

كنت أردّ أحياناً ، لأعتبر نفسي حاضراً ؛ ولكن بغيابات مفاجئة ، وبثقوب كان يتسرّب منها غبارٌ من روائح مخبوءة ، ولازمات منسيّة ، ومذاقات بلهاء ، لا أدري مصدرها . وفي وسط نزعاتي الفكرية ، كانت هذه العوْدات ترفرف رشقاتٍ في رأسي : رائحة دخانٍ وأوراق ميتة كالتي تشمّ في الضاحية ، في أمسيات تشرينية ، مذاق قدح من خمر التفاح الطازج ، أسمطة النّزل ذات المربّعات الحمر والبيض ، صوت « ايف مونتان » الحارّ في أغنية « زمن الكرز » ؛ هديل الحمام وسط سيّدات حديقة اللكسمبورغ ،

لحن اكورديون، وما يدريني أيضاً، أيّ شيء سبق أن نُقش، على غير علمي ، في أطراف أعصابي . كان هذا الرمل الرديء يتسرّب في أسوأ لحظة ، فيعضّ على دواليب جدليّتي الصغيرة ، ويجعلني أتلعثم فجأة ، وأتقهقر . وكنت أحسّ بالخجل . على نتيجة هذا النقاش وذلك الاقتراع ، وعلى القرارات التي ستتخذ هنـــا ، كانت تتوقف حيـــاتنا جميعاً بعض الشيء ، أو كل الشيء بالنسبة لمعظمنا . كنت أردّد كل خمس دقائق ، وأنا أقرص جسمي : « عصبيّ » ولكن الخلايا العصبيّة لم تكن تعمل إلا على هواها، وكانت تقاطعني : « أنت تريد أن تُضحكنا ، أيها الجواد العجوز البجير ! خيرٌ لك أن تصمت ، واستمع الينا ، تنشّقْنا ، جُسّ وراقب ! إنها هناك ، حقيقتك : في الخلف »! والخلايا العصبية لها حكمتها الخاصّة .

في نهاية يومين ، كان في خانة ديوني عددٌ محترم من الهفوات والعوائق . وللمرة الأولى ، كنت أعاني خـَرَق المنفيين . أولئك الذين لم يكونوا بعدُ « هناك » ، ولن يكونوا أبداً « هنا » . إن هذه المنطقة المحايدة تُطارد الارتكاسات وتورث البلادة . إن لسانك يزلّ ، وتتعثّر قدماك بالبساط ، وأصابعك بالأبواب . أما هم ، فكأنهم كانوا في بيوتهم . وأما أنا ، فما أن أريد المجازفة ، حتى كنت أخاطر بنفسي ولا أحصد إلا ما يثير السخرية . كنت أخسر على طول الخطّ . وأخيراً ،

تراجعت وقررت ذات صباح ألاّ أحضر الاجتماعات بعد. ولكي أتأكّد من أنهم لن يأتوا لاصطحابي ، كنت أذهب لأمضغ ضيقي خارجاً ، مُحرجلاً في شوارع سانتياغو .

وتبدّت لي المدينة بوجهها الحقيقيّ : كئيبة ، رطبة ، مبتذلة . مع ذلك الطابع الجديد والبالي في وقت واحد ، المتهدّم قبل الأوان ، والذي لا ينتمي إلاّ للمدن التشيلية . وتهت حول « المونيدا » ، في تلك الرقعة الشطرنجية من الخنادق الرمادية التي تسمّى « الوسط » ، وتسكّعت قرب « سانتا ــ لوسيا » حيث تتلّوى كالأفاعي شوارع صغيرة سرّية شبيهة ببعض شوارع باريس . وعلى الهضبة نفسها ، في الحدائق ، كانت طالبات يرتدين الزيّ المدرسيّ ، بصدار أبيض وتنّورة سوداء ، يركضن مثرثرات ويستثرن الفتيان . كانت السحائب منخفضة ، قطنيّة . إن سانتياغو ليست مصنوعة للمتسكعين . ليس ثمة حتى مقهى يفرغ فيه المرء فنجاناً ، ولا شرفة يقرأ فيها صحيفة. كانت الأحزاب وحدها في ذلك الجوّ من الحملة الانتخابية ، تُبهج الجدران وحباك الإعلانات والجدرانيات المنمنمة بالألوان الزاهية، والعبارات المرسومة ، والنقوش الأثرية الفكاهية . وكان شعار جديد قد ظهر من جهة الأحياء السكنية ، وانتشر في كل مكان على الجدران « غداً موعد جاكارتا » موقّعاً بصورة عنكبوت أسود ، رمز التنظيم الصداميّ « للحزب الوطني ». ولكن

من كان يستطيع أن يفكر جدّياً ، بالرغم من تبجّحات هؤلاء الأشخاص ، بأنهم سيحوّلون التشيلي ذات يوم إلى أندونيسيا ؟ .

حين عدت ، وجدت أمام بابي « مساعد » كارلوس ، سائقه أو حارسه ، لا أدري ، الذي حيّاني بسرعة وسلّمني مغلّفاً من غير أن ينبس . كان كلمة قصيرة من إيميلا : « المثقفون عاجزون عن بناء حزب . هذا كان معروفاً من قبل . ولكن ليأتوا على الأقل للإفصاح عن رأيهم ». رددت لها ورقتها بعد أن خربشتُ على قفاها : « اللجنة المركزية تحدّد الخطّ . والوحدات المقاتلة تطبّقه . هذا ما تعرفينه أيضاً . ولقد تحدّد الخطّ على يد كارلوس الذي هو وحده اللجنة المركزية . إذن ، لا جدوى من النقاش . أما المجيء لأشرح لكم لماذا لن أطبّقه ، فهذا فوق طاقتي ، لأن عليّ أن أفعله باللغة الإسبانية » في صباح اليوم التالي ، ورقة صغيرة أخرى ، تحت بابي هذه المرة ( في آخر الليل بلا شك ، بعد انتهاء اجتماعهم ) : « كذّاب ومتكيّس . اعتراض مرفوض » الامضاء : إيميلا .

كنت قد بحثت عن هذا : إن للحقيقة المحض هيئة مريبة. ولكن ذلك لم يكن مزاحاً ولا مَهْرباً . تلك اللغة الاسبانية الزاجرة والمتقوّسة كانت تتحوّل في فمي إلى مطّاط . أشبه

بعضو مستعار ، طُعم كانت حنجرتي ستلفظه . لم أكن أحسّني بعدُ مرتاحاً مع هذه اللغة التي كنت قد سكنتها وقتاً طويلاً . فقرعاتُ الطبل نفسها ، والمصوّتات اللطيفة نفسها التي كانت منذ عهد قريب تفرقع عند حلقي، كانت اليوم تتعجّن على نحوٍ مزعج . كانت ثمة لغة أخرى تأتي على طرف لساني : لغتي . إن المرء قد يُحسن تعلّم لغة ، ولكنه لا يتعلّم العالم الذي يصاحبها ويجعلها وحدها مألوفة . ومع ذلك ، فليس ثمة عالم ، ليس ثمة إلا طريقة جيدة أو رديئة لالتقاطه . مع سائقي السيارات العمومية ، ومع خَدَم المطاعم ومع حنفيّات الحمّام . مع أيدي النساء ، ومع الهمّ ، ومع الزمن الذي ينقضي . إن تلك الطريقة قَبْولاديّة . إنها في الخلايا العصبية ، والخلايا العصبية لا تعرف من أمرها شيئاً ، في مسام الجلد ، والجلد لا يُحسّ شيئاً . إن بلد الانسان ، حين يكون هو فيه ، إنما هو ذاكرة تنسى نفسها وتسقط لدى كل ضربة .

ولفرط ما كنت أحسّ الوخز في كل مكان ، وتمتنع عليّ الكلمات بالاسبانية ، انتهيت إلى أن أفهم أنه كان لي ، في مكان ما ، وطن . وكان قد انقضى وقت طويل من غير أن يكون ثمة من ينتظرني فيه . أنا الذي كنت ، طوال هذا الوقت ، أنتظره من غير أن أعرف . أم أنني تظاهرت بأني أحقد على بلدي ، كجميع الذين يحبّون بافراط ؟ كنت،

على العموم ، مكتئباً ، وكانت لديّ كالآخرين رغبة في العودة إلى بيتي . كان مسكني الحقير ، مسكن المرابي ، قد أخذ يلتمع في الأفق كنارٍ بنغالية ، كقصر مسحور . بلدي : الزاوية الوحيدة في « العالم القديم » التي مَن يدري إذا لم يكن يختفي في كل فجرٍ من أفجارها « عالمٌ جديد » ، في كل امرأة نلتقيها في الشارع ، ضلال ، في كل شخص ، شاعر ، وفي كل مفترق طرق ، متراس . أقصد : فرنسا. إن الذين لم يعيشوا المنفى قط لن يعرفوا عمّ أتحدّث . إن هذا شأنهم .

في النهار ، كنت أتنزّه في سانتياغو دخيلاً . ولكي أتجوّل ، كنت ألبس جلد سائح مدقّق ، فأتأمل باعجاب « الأكونغاغا » الذي يُعرّيه أحياناً شعاع من الشمس ، وأتذوق بيدين عاريتين توتياء البحر اليوديّة في السوق المركزية ، وبسمة الفتيات الشبيهات بـ « لوليتا » ، ودخان الباصات المقزّز. ( حين تسير ) . وكنت في المساء ، أعود إلى الحظيرة في شقتي الصغيرة المسدلة الأستار . كان هذا كما لو أني كنت أغيّر طول الموجة على غير معرفة مني : كنت أخيراً على الذبذبة الجيدة ، فكنت أتلقّى الإرسال . صفير ، حفيف مياه حيّة ، صوت ينبوع أو شلاّل . كانت فرنسا تدمدم فيّ ليلاً كنهرٍ من الطفولة — ولكني لم أكن أعرف ذلك بعد . إن لكل انسان في أحلامه خارطة بلده ، حتى وإن

كان يجهل كل شيء فيه . ومهما حاول المرء ، فهو لن يسكن حقاً إلاّ ما يلازمه . كانت أميركا قد كفّت عن ملازمتي . وكان السحر قد بطل. وفكرت ثانية بعبارة «أللندي»الصغيرة ، بتلك الحجّة التي لم يكن له أيّ مبرّر للنطق بها وكان قد دقّها دقّاً كأنها تحدّ بعد رحيل إيميلا : « إن أي انسان يلتزم أولاً بشعبه ». إن ما كنت قد اعتبرته قاعدة للخلق السياسي لم يكن إلاّ قانون الثِقَل . ربما كانت إيميلا تُفلت منه . أما أنا ، فلا . إن التفاح يلتزم بجذع شجرة التفاح ، في شهر أيلول ، حين يكون ناضجاً . فاذا لم يفعل ما يلتزم به ، تجعّد أسود قاسياً في طرف غصنه . وانصرف عنه الجميع . إبقوا في الهواء ، يا أصدقائي ، فستتعفنون قبل الأوان .

الحقيقة أني كنت قد أخطأت بدافع من كبريائي . كنت قد أردت أن أصطنع لنفسي روحاً صغيرة بديلة ، بوسائلي الخاصة ، كجنديّ غير نظامي ، بعيداً عن مسقط رأسي . كما لو أن المرء يستطيع أن ينتزع أمعاءه من غير عقاب ! إن المَعِدة لا تسافر . إنها تتركك تمضي ، ثم تلحقك وتقبض عليك ذات يوم فتشدّ زمامك . في ذلك اليوم ، تأخذ بتلابيب الحيوان حاجةٌ للعودة لا تُقهر . إنه سيفعل أيّ شيء ليذهب فيموت حيث وُلد . إن هذا حقّه في السعادة ، وليس من يستطع أن يمنعه ذلك . إن كل منفيّ يستطيع أن يعود فيردّ الروح إلى القرية التي أعارته إيّاها . وأولئك الذين يهتمون

بحقوق الانسان ينبغي أن يفكروا بــذلك ، لأن الانسان هو أيضاً حيوان — إن له على الأقل هذا الحظّ ؛ ولن ينتزعه منه أحد .

إن هناك بدواً سعداء ، وقد التقيت بعضهم : إيميلا مثلاً . وهؤلاء قد نجحوا في تغيير جلدهم من غير أن يضيّعوا أنفسهم . ذلك أنه ليس ثمة ست وثلاثون طريقة لتغيير الروح في أثناء الطريق ، ليس ثمة إلا طريقة واحدة : أن تجد بلداً يناسبك كما يناسب القفّاز اليد . ولقد بحثت عنها طوال عشر سنوات ، تلك الأرض ، من شمالي أميركا إلى جنوبها مروراً بالوسط : من غير أن أستطيع الرسوّ على نحوٍ جيّد . لم يحن الأوان لرواية المحن التي عاناها مشرّد عن وطنه مُفرط الوطنية . وإذن ، فإني أبدأ من النهاية وأقول إنه ينبغي أن ننتهي ذات يوم من هذا النوع من الحكايات التي تعضّ ذنبها . أقول إن لنا جميعاً في الضفيرة الشمسيّة راداراً ، ومضاً يضيء حين نقترب من عتبات اللاعودة . أقول إن وامضي قد أضاء في تلك اللحظة الدقيقة ، وليست هي غلطتي إذا تطابق مع إشارة الرحيل التي أصدرتها « اللجنة المركزية ». أقول إن المرء لا يستطيع أن يقامر بروحه ضدّ بلده . إن هذا كل شيء أو لا شيء ، مغامرةٌ بكل شيء . وحين شعرت أنني سأخسر الأمرين دفعة واحدة ، قمت بقفزة قطّ .

حدث ذلك في القبو ، خارج نفسي . بلا كلمات كبيرة ، وبلا أفكار . حدث بالاهتزازات ، من النوع الهرتزي أو ما تحت الأحمر . وحين فهمت ، كان العمل قد أنجز . لن أذهب إلى بوليفيا . لن أذهب بعد إلى أي مكان آخر . إن جميع رحلاتي ستكون بعد الآن رحلات عَوْدة .

لماذا كانت كبرياء إيميلا أوفر نجاحاً ؟ كانت قد قالت : « سيكون بلدي حيث أقرّره ». وكانت قد قرّرت . كانت قد حطّت على قدميها ، عند متقاطرات مسقط رأسها . تركت النمسا التي كانت تعيش فيها خافضة الرأس ،وزوجها المهندس وأباها الضابط ، فاستردّت نفسها . تمّ ذلك من غير تهكّم ولا ضغينة ( يكنّهما عامّة رعايا البلدان الصغيرة الذين يعطون الانطباع بأنهم لا يستطيعون الافلات منهما إلا بالاستهزاء بمدينتهم الصغيرة ) وكانت مغامرتها تردّ مغامرتي إلى وضعها الصحيح . فمن غير أن تخاصم صنوبراتها وبلدها المحايد ، كانت بكل بساطة قد قطعت الاتصال لتتصالح مع الوجود على أفضل وجه : بأن تنسى نفسها ومن أين كانت آتية . كان حظّها أنها تملك ذاكرة قوية وذكريات قليلة — وهو ما كان يتيح لها أن تمتلك أربع لغات وأن تلعب باللغة الإيطالية . في حين أني إذا كنت قد تركت فرنسا ( لأعمل كما لو أن ذلك قد حدث لي ) لفوتّ نفسي .

لا كما يفوّت المرء رغيفاً أو بطاطا مقليّة ، بل كما يفوّت قطاره ، أو حظّه . أو حياته .

بعد بضعة أيام ، نُقل إليّ بالطرق العادية الإشعار الذي كنت أتوقّعه : إذا لم أكن « هناك في المرتفعات » ، من هنا إلى شهرين ، فسأكفّ عن أن أكون مناضلاً في التنظيم . قرار الأركان العامة . أسوأ من تنزيل رتبة على جبهة الجيوش.

لقد كانوا إذن يرحلون ، وعلى الفور ، من التشيلي نفسها . لا يمكن للمرء أن يرضي جميع الناس وأباه .

وعيّنت لي إيميلا ، برقياً ، موعد لقاءٍ بعد ثمانية أيام، عند جدار حديقة سانتا لوسيا . كانت تريد أن تسمع من فمي جوابي على الإنذار الذي كانت قد أشّرت عليه .

* * *

لماذا تراهم أرسلوها ، هي ، من أجل قرار المحكمة ؟ وبذلك اللباس ؟ بزينة سنونوة على سفر ، ذبابة مايو على حافّة بركان ... في تلك اللحظة الملعونة ، كنت أودّ او أنها كانت امرأة شرسة ، امرأة شريرة . امرأة مترجّلة هادرة ، سوداء من حقد وسُخام . حرّاقة شديدة الخشونة ، خنثى ، أيّ شيء إلاّ تلك التي كانت تتقدم نحوي من بعيد . كان قاضيّ يقترب لَبَنياً وعذْباً في ضوء المساء . ولم يكن

قد سبق لي أن رأيتها ضامرة إلى هذا الحدّ ، شبه هشّة ، منزوعة السلاح ، فأخذتني الرغبة أن أهرع اليها لأشدّها بين ذراعيّ . كانت إيميلا مجهولة تتلامح في الممر ، بتنّورة خفيفة كانت مشيتها تطيّرها ، وبصدار زبدي ، وبذلك النوع من الوشاح المسرّد الأسود الذي كانت تردّه عليها وهي ترتعش .

مختفياً كان صَممُها والطريقة التي كانت بها تختبىء ذهبها تحت ظواهر مصقولة . تبخّرت الفتاة الطويلة التي كانت تحتمي بتصلّبها حتى لا تروق للناس . كانت الشمس التي تعفّر شعرها تبدّد هالتها من العتمة والصرامة، وتُبرز ذلك الجمال الذي كان جمالها ولم يكن بعدُ . كان شيء ما قد أطلق كلّ الألق الداخلي الذي لم تستطع ضرباتها الممحاتيّة أن تمحوه ، وكان نورها الذاتي الآن يفلت منها ، ويتبخّر من جميع مسامها حتى ليجعلها تومض تحت الغصون إذ كانت تمرّ في ظلّ شجرات الدراق البرية ذات الأوراق الشقر . وكما تُبرز الممسحة طيفاً ممحوّاً على لوحةٍ قديمة شربت قماشتها الزيت ، فان يداً مجهولة كانت قد جدّدت ذلك الجسم الأكمد الذي كان طلاؤه يورثني الدوار . كان ثمة بدل الأشواك ، عذوبةٌ في كل مكان : كان التربيع قد وجد أخيراً دائرته . لم أكن أعرف لمن ولا علامَ ، ولكن إيميلا كانت قد قالت نعم ، بكل جسمها . وكان ذلك أشبه

بجديلة شعر محلولة ، بذئبة طالعة من نبت الحراج .

ـ نهارك سعيد ، أيتها الأخت الصغيرة .

ـ لست إلا رفيقة، يا بوريس . أو على الأصح ، كنت رفيقة ... حتى اليوم . لأنني بتّ أعرف ما سوف تقوله لي.

كانت عن قرب تُرسل رائحة عسليّة عنيدة .

ـ إذن ، نهارك سعيد ، أيتها المواطنة ! ليس لي بعدُ . لو تعلمين ، إلاّ أن أصمت .

كنا نمشي جنباً إلى جنب بين الأشجار . وقرّرت ألاّ أنظر اليها بعد . ولكن تلك الرائحة ، ذلك المخدّر من الخزامى والقرفة ... الأفضل ألاّ أتنفّس بعد . الأفضل أن أصغي فقط .

ـ إنك بالاجمال تعود إلى بلدك ، وتنقض عهدك ...

هي أيضاً لم تكن تدير رأسها . كانت تقول ما كان عليها أن تقول ، باللهجة الملائمة . كمن يُسمّع درساً أحبّ نصّه .

ـ لنقل إني لا أجدّد التطوّع . نهاية الاتفاق . نقطة على السطر .

ـ انك تنكر رسالة تشي ، وتجحد « أنتي » ، وتتنكر لنفسك أنت بالذات . كل هذا منطقي . إنه تغيير اتّجاه.

ـ لا دروس أخلاقية . من فضلك ! إن ما هو موجود الآن لا علاقة له بما عرفته . فباستثناء كارلوس ـ وماريو بعض الشيء ـ جميع القدامى ماتوا أو تراجعوا . استيبان ؟ إنه يسكر حتى ينسى نفسه ، هو والباقي . رامون ؟ لقد أعلن للرأي العام ، بواسطة الصحافة الرسمية ، أنه سيكرّس نفسه بعد الآن لعمله ولعائلته ، بصفته مواطناً صالحاً يحترم القوانين.

ـ لا تحكم على القطيع من شاتين جرباوين . التنظيم ، شيء آخر .

ـ شيء آخر ؟ من أصل ستة وثلاثين رفيقاً في القاعدة ، لم يبق إلا خمسة ، بينهما الخرقتان اللتان ذكرت . هل تجدّد شيء ، هل جاء آخرون ؟ حسناً . ولكن هذه ليست هي عائلتي» . انني لا أعرف نفسي فيها بعدُ . لقد فعلتُ ما قلته لي ، فحاولت أن أقول : « عائلتي» : بلا نتيجة .

ـ لا تبحث عن معاذير. أنت تتركنا لأنك فقدت ثقتك.

ـ ثقتي بأيّ شيء ؟

ـ بالتنظيم ، بنا . بنفسك .

ـ بنفسي ، ربما لا . بكم ، بكل تأكيد . بالتنظيم ، هنا يتوقّف على ما يفعل . أنا لا أملك علم الحرف الأول من الكلمات .

– تعرف أن البنية التحتيّة كلّها في البلد قد أعيد تشكيلها ؟

– نعم ، مع آخرين لا أعرفهم .

– مع أشخاص مثلك ، يكون جميع الرفاق الذين سقطوا منذ سنوات قد سقطوا في الفراغ . ماتوا من أجل لا شيء .

– هل تذكرين إهداء تشي لـ « شيشو » ؟ إن هذا شكل من التراث ، أيضاً .

– أنت تمزح .

– لا . بل أنتظر . لقد أصبحتُ صبوراً ، أيتها الأخت الصغيرة .

هزّت كتفيها وتوقّفت على الفور . واستدرت : كنت مجبراً على أن أراها مواجهة ، بعكس الضوء . سفينكس جميل برأس ميت ، كتلك الفراشات الأرجوانية التي تطير جامدة في الشفق . كان الجمع بين المتطوّعة وبين اللامبالية المحاطة كلّها بأوراق الشجر وبالرقّة يخلق مسخاً لا تمكن مقاومته : عينا كاميكاز جامدتان ، وفم مناضل تحقيريّ . وثديا امرأة وبطنها . كنت أمسكها عند طرف أصابعي ، متوحّشة – مُدجّنة ، ملاطفة – متصلّبة ، معطاة – ممتنعة ، في شعاعات المساء الرمادية ، وكان السرّ يتركني مذهولاً .

قالت أخيراً بصوت أصبح فجأة بهيماً بعض الشيء :

ـــ إنه لأمر مؤسف أن تتخلّى . كان عندي خبرٌ لك. الحقيقة أنه خبرٌ لي ، وليس لك . ولكني لم أكن أريد أن تعرفه من آخرين .

لهجة البوح القديمة . أشبه بعودة مفاجئة للتواطؤ . ولم تكن ثمة حاجة لأكثر من هذا لمنح جناحين للرجل البليد الذي كان يجرّ ساقه إلى جانبها ، غارقاً في عقلية القرويّ الديكارتية.

همست لها وقد نشرت جناحيّ المختلجين ، جناحيْ الملاك الحارس :

ـــ أخبريني الخبر على كل حال .

ـــ كارلوس وأنا ننتظر ولداً . أقصد ، أنا أنتظر ولداً صنعه كارلوس ...

ـــ رائع ! كنت أحسب أنك لم تكوني تستطيعين أن تُرزقي بولد ...

ـــ كنت أظنّ ذلك . وعلماء أمراض النساء أيضاً . الجميع . ثم كانت المعجزة.لأني كنت أريده. أقصد أريدها ، ستكون بنتاً .

ـــ أهذا نهائيّ ؟

ـــ البنت ؟ نعم ه

ـ لا : الولد بصورة عامة .

ـ قطعاً . هذا لن يغيّر شيئاً ، لا في عودتي ولا في عملنا . لقد فكرنا بك ... لو تعلم ... كعرّاب .

ـ هذا لطيف . ولكنكما لن تعمّداه . وأنا لن أكون هنا . فيما بعد، سأرسل لبنتك برج ايفل على بطاقات بريدية، وقطع لوزيّة من اكس ـ ان ـ بروفانس ، ونوغا من مونتيلمار . سأكون عمّها الفرنسيّ ، ذلك الذي لا يُرى أبداً ، شأنه شأن العمّ الاميركي بالنسبة الينا .

ـ إطمئن ، سيكون لها أعمام آخرون . يؤسفني جدّاً أن تذهب ، كما يؤسف ذلك كارلوس. ولكن هذا لايدهشني فأنا لم تأخذني أوهام كثيرة بصددك ، هل تعلم ؟

كانت تجهد لتكون خبيثة . كانت تبذل جهدها ، ولكن المرارة لم تكن في طبعها .

ـ وأنا كذلك ، ولكني مدينٌ لك بالكثير : فأنت من ساعدني على تضخيم أوهامي . ولم أكن أريد أن أ تركك من غير أن أقول لك شكراً .

ـ لم يكن باقياً لك كثير من الهواء في رئتيك . أنا أقرّك على ذلك .

ـ ماذا تريدين ، إنني أشيخ . وأنا ألهث قليلاً . كنت

هنا قبلك . لنقل إني تلفت مع السنّ . أما أنت ، فنضرة، وأنت تكملين الطريق .

ـ ما الذي تزعمه هنا ؟ إن لنا سناً واحدة . أنت وأنا...

ـ ولكن ليس لنا ماض واحد . ولا مَعْظمة[1] واحدة على حافة الدرب . إن لي في رأسي أنا مقبرة محوّلة الاستعمال. حين أستدير بحثاً عن الرفاق الذين عرفتهم لعشرة أعوام خلت، لا أجد أحداً منهم . لا بدّ أن كارلوس هو آخرهم ، أو ما أشبه . أما هناك ، في فرنسا ، فسأجد على الأقل أصدقاء. ليسوا كثيرين ، بل اثنان أو ثلاثة .

ـ كارلوس أيضاً كان هنا قبلي .

ـ إن الأمر ، بالنسبة اليه ، أيسر . هو يعود إلى بلده، والتنظيم هو عائلته الحقيقية . بل لقد وجد فيه زوجته . كل شيء في البيت . إنني أحسده .

ـ وماذا تريد أن تفعل الآن ، ما عدا أنك تضع عظامك المسنّة في منجى ؟

ـ أعود . أفكر . أحدّد وضعي ، لا أدري ...

ـ أما أنا ، فأدري !

(١) مستودع تحفظ فيه عظام الموتى ( هـ. م. )

وانطلقت في قهقهة أشدّ خشونة من أن تعلن دُعابة .

واستطردت :

– ستوقّع عرائض ، وتدافع عن حقوق الانسان ، وترسل ملابس قديمة للصليب الأحمر من أجل عائلات الرفاق المعتقلين . ستكتب كتباً . سيكون لك بيت جميل . ستصبح مثقفاً يسارياً .

– إذا جئت لتشتميني ، فالأفضل أن ترحلي على الفور ! إن هناك طرائق ، كما يقولون ، تجرّد أصحابها من أهليّتهم . .

فعادت تقهقه ، ساخرة الأنف .

– أجل ، يا صغيرتي إيميلا ! سأفعل كما تقولين . وبعد أقل من عام ، ستأتين لتطرقي بابي لتساعديني في صنع الرزم . أنت أو آخرون . وسيكون منتوفو الشعر الثلاثة والمجزوزان الآخران الباقون على قيد الحياة سعداء بأن تُطيّر البرقيات من أجل إنقاذ جلدهم .

– إن أشخاصاً مثلك ومثل أصدقائك ، إنما هم إنهزاميون متهرّبون ، خائرو النفوس . هذه هي صفاتكم .

– وأنتم نافخو أبواق الحرب ، ومحاريث مربوطة قبل الثيران ، ومطلقو الجنّ . . .

ألهثنا هذا التشاتم المُجدّ ، فتداعينا للسقوط معاً على

مقعد فارغ . وتأخـّر ملاك . كان له ما يفعله : مع الخجل من الانحدار إلى هذا المستوى : وضيق التحيـّات الوداعية المخفقة ، والرغبة في الانتهاء من شراسات كانت تشوّهنا . كانت هي قد أنهكت موهبتها ، وكان أن جاريتها أنا . ولكن لم تكن بي رغبة للتهكـّم . ولا هي .

أدرت رأسي اليها ، مجازفاً ببسمة : فأجابتني بانفراج وسّع عينيها الزرقاوين وحفر لها غمـّازتين ورديتين . سلام ملائكيّ .

— بلا حقد ؟

تنهـّدت وأنا أغمز لها بعيني .

— سنضمـّد الجراح .

بدت فجأة جادّة ، فحدّقت في عينيّ بحدّة : ثم حنت قامتها برقـّة ، فوضعت فمها على فمي : وشعرت : للحظة . لساناً صغيراً قاسياً وحارّاً على لساني .

قالت وقد نهضت :

— لا تَنْسني .

— وأنتِ ، إعتني جيـّداً بنفسك . أنتما اثنان : الآن .

قالت هامسة : — بل ثلاثة .

أغمضت عينيها ، واستدارت على عقبيها : فاختفت في عطفة ممر ، من غير أن تنظر إلى الوراء .



# الفَصلُ الثَالث

حلمت إيميلا ، وهي تعبر الحدود بأوراقها المزوّرة ، أنها جريئة باسلة . أصبحت في أعماقها ، مسؤولة . لقد ودّت أن تكون بطوليّة : فلم تلتق إلاّ السعادة . سعادة هادئة، دقيقة، مُحكمة . كانت وحدها مع كارلوس في بيت متوسط ، في قلب حيّ من أحياء الطبقات المتوسطة ، فاكتشفت الهدوء الكبير للصراع الثوريّ . أقلقها ذلك ، في البدء . ثم نسيت أحلامها القديمة، وانطوت لبلادات المقاومة السرّية . لم تكن تملك بعدُ وقتاً للخيبة . كانت الحياة قد أصبحت بالنسبة لها يومية وباذخة .

وداعاً للقلق، وللهاث المواعيد المسلسلة، والأيام المرخّمة. هل كانت الشرطة قد عرفت بعودة كارلوس ؟ لم يكونا يعلمان شيئاً من الأمر ، ولكن اسمه وصورته كانا يظهران في السطر الأول من لائحة « الخمسة عشر من خائني الوطن والخارجين على القانون » التي كانت الصحف تنشرها دورياً،

مع رقم تلفون « من أجل أية معلومات سريّة » . وكان اعلان التمتيش ، يَعِدُ ، بالاضافة للجائزة الرسمية ، بمنح المخبرين المبلغ الكامل من المال الذي سيُعثر عليه مع الهاربين عند أسرهم . ولما كان اللصوص والمهرّبون لا يتنزهون بجيوب فارغة ، فقد كانت جميع الآمال مسموحاً بها . أما هي ، فان اسمها لم يكن قد ظهر بعدُ في أي مكان .

ولقد كان شاقاً جداً اكتشاف قائد « إرهابيّ »( وأقل من ذلك أيضاً اكتشاف من كان يمسك بيديه جميع خيوط التنظيم الذي كان النظام العسكري يخافه أشد الخوف) في هذا المهندس الشاب المتحفظ والمبتسم الذي كان يجهّز بيته الزوجي ولا يخرج منه قطّ . كان معروفاً أنه رسّام صناعي. ولكن مرضاً في الرئتين صعب المعالجة جداً كان يُكرهه على جدول للوقت ولعمل غير منتظم . وكان معروفاً أنها هي مترجمةٌ عن الانكليزية والفرنسية تعمل لوزارات مختلفة ، مما كان يجبرها على كثير من الذهاب والأياب ، وعلى أن تعمل كثيراً في بيتها . راتبان محترمان كانا يتيحان ، إذا ما جُمعا ، الحصول على الكفاية ، وعلى مستوى مناسب وإن كان غير باذخ : ليس هناك خادم ، ولكن سيارة جديدة ، من طراز فيات ١٢٥ ، وكلب راعٍ مدرّب جيداً كان يلتهم ٥٠٠ غرام من اللحم يومياً . وفي الجوار ، كانوا يحكمون على هذين الزوجين الشابين بأنهما بيتوتيّان بعض

الشيء، ويسلمون عليهما بلطف وبتسامح لا يخلو من عجرفة. وما يكاد إيميلا وكارلوس يأخذان وقتهما للقراءة، أو لاستماع الموسيقى على شرائط مسجّلة أو القيام بالطبخ أو بعمل الحب، حتى يلفتا النظر في خمس ثوانٍ. أما الباقي، فكانا يكتفيان منه بالقدر المناسب، يوماً بعدَ يوم، من غير إنفاق بلا جدوى، وبدقّة حِرَفيّة. وكانا حين يرتدّان كل مساء على النهار المنصرم ليصمّما النهار التالي يشعران بما يشبه عزاء نجار الآبنوس: لا لأنه أنجز واجباً، بل لأنه أتقن عملاً. لم يكونا يخرجان، وكانت الأمسيات طويلة، وكانا يفضّلان إضاعة وقتهما في السرير الكبير المربّع ذي الغطاء الأسكتلندي حيث كانا يتحدثان بصوت منخفض طوال الساعات، حتى ساعة متأخرة من الليل. كان همسهما وعاكس النور القرمزي للقنديل يدوّران زوايا الغرفة ويحفران حولهما قوقعة صَدَفيّة. ولما لم يكونا قادرين على الذهاب إلى السينما، فقد كانا يتنزهان في اللذّة كما في الغابات، وكما يقضي المرء سهرة سلاح، ذلك لأنهما كانا يبقيان استحكاماتهما في حالة تأهّب.

إن الحب الحقيقيّ لا يخلو من مؤامرة. إنه يولد من البوح السرّيّ، ويفسد بالتصريحات، ويموت بالاعلان. كان الحنان يضيف إلى كثافة العاشقين السوداء لبنَه اليوميّ، وهذا الخليط الزواجي بشكل محزن لم يكن يذيب شغفهما المتبادل. كانا شفافين أحدهما للآخر، ولا يُنْفَذ اليهما من الخارج.

إن أمن الزوجين يقضي بتقليص الخروج ، وتقضي المعركة السرّيّة بحصر الأخطار بالحدّ الأدنى الحيويّ . وكانت قواعد الحميمية البيتية توافق أنظمة الأمن . وهكذا كان التهديد يحوّل دسائسهما إلى الخارج .

وإذن ، فقد منحت الحرب إيميلا بيتاً . ورجلاً في البيت ليطبخ ويرتّب ويغسل الصحون . ذلك أنها هي ، الأقلّ تعرّضاً لأنها امرأة وامرأة حامل ، مَنْ كان يخرج أكثر لتأمين الاتصالات ، بحيث أن الفوطة والمكنسة كانتا من شأن كارلوس . وإنها لضربة قاسية للصور الجيّدة . كانت إعادة تربية الذكور التي لم تكن منظورة في جدول الاعمال ، مفروضة بالأحداث . كان جيرانه يخرجون نهاراً فيعهدون اليهما بأولادهم للحراسة : ما هي وسيلة الرفض ؟ وحين كان هو يفقد صبره في الحراسة ، كانت هي التي تذهب سعيدة للقيام باتصالاتها اليومية ، على قدميها أو في الباص ، ممسكة الفتاة الصغيرة بيد ، والصبي الصغير بالأخرى .

وذات يوم ، عرضت أن تقوم بالرصد في حيّ سيء السمعة، بينما كان كارلوس ورفيقان آخران ينقلون بالسيارة كمية من الأسلحة من بيت إلى آخر . وقد وجب عليهم أن يقوموا بذلك مرتين . وطوال أكثر من ساعة طافت بمجموعة البيوت ، ويداها مشتبكتان حول بطنها . وهي

تبدو على رضى يُلامس الفحش . لم يكن ذلك يتعبها . بل على العكس . كانت تحسّ نفسها مطمئنة . مبرّأة . وبين الحين والحين . كانت تدسّ أصابعها تحت قميصها . فتلامس بشرتها الناعمة والحارّة . وبرودة المسدس الذي كانت تخفيه تحت تنّورتها ، عند الخصر . داخل كيس كانت قد خاطته بنفسها . وكانت تفكر : « لا يمكن أن يحدث لي شيء خطير ، وما دمت هنا ، فلن يحدث لهم . هم أيضاً . شيء . إنني أحميهم من بعيد بسعادتي . إنهم لا يعرفون من هذا شيئاً . ولكن الأمر كذلك » . كانت مناعتها مُعدية . وكانت تردّد لنفسها . وهي تجول بين المارّة اللامبالين : « حسنٌ أن تكون المرأة عاشقة . وحسنٌ أن تنتظر ولداً . وحسنٌ أن تصلح لشيء » . عاشقة . سبق لها أن كانتها . حامل . منذ أشهر . وهي لم تكن تحمل السلاح لأول مرة . أما الأمور الثلاثة معاً ، فكانت هي المرة الأولى . وأن تكون المرأة نفسها التي تجمع الأعمال الثلاثة معاً . كان ذلك يمنحها الإحساس بأنها امرأة جديدة . بل حتى امرأة ، بلا زيادة . وكما أن لرجل النساء دائماً شيئاً من الأنثوية ، فان امرأة الرجال هي دائماً صبيانية بعض الشيء : وإذ أصبحت امرأة رجل واحد. كانت تحسّها أخيراً هي نفسها . كتلة واحدة .

لم تكن إيميلا تختبىء بعد . لم يكن للمرأة بعدُ أن تلعب

لعبة مزدوجة مع المناضلة . كان جسمها يعيش ويرتعش في وضح النهار ، وفي ذلك المخبأ الذي كانوا يعسكرون فيه، مطارَدين ، كان الحبّ قد كفّ عن أن يكون ذلك التعطّل السرّيّ الذي كان يُخجاها . تلك الكلمة الكبيرة التي غشّت أكثر من واحد لفرط ما استُعملت لكل شيء ، لم تكن قد عنت بالنسبة لها حتّى ذلك الحين إلاّ غباوات معرِّضة للشبهة ودواراً أو دواريْن بلا جوهر . أما الآنَ ، فقد كانت تكتشف طبعيّة الأمر ، وأن تعقيداته المزيّفة في السابق جعلتها تضيع في الحقيقة وقتاً كثيراً.

وإذ تكون في حالة التزيّن ، لم يكن يخجلها بعدُ أن تنظر في المرآة ، وأن تضع الذرور ، ولوناً خبّازياً على جفنيها ، وقليلاً من « فان فير» وراء أذنها . ولم تكن تتقزّز بعدُ وهي تتعرّى أمام رجل . لم تكن بعدُ ممزّقة مقطّعة . وكزجاج مكسور تلأمه رُقية ، كانت إيميلا تولد من جديد في المراهقة ، موحّدة ومتصالحة كما لم تكن يوماً . كانت قد عقدت السلام مع قُرنائها . كانت جميع الأخوات الصغيرات . اللواتي عاقبتهنّ وحبستهنّ في داخلها لتصبح إيميلا المستقيمة المتكبّرة ، يُبعثن من جديد . كانت فيهنّ العنرية . والمغنّية ، والغنجة ، والعاشقة . وكانت فيهنّ تلك التي كانت تلعب بالدمية وتنهض وهي تدنّن عديّات بالألمانية . وتلك التي كانت تقرصن تجّار الأثاث وتشتري

مجلاّت الدّرجة ، وتلك التي كانت تكتب قصائد في المساء وتُغلق عليها دُرجها إغلاقاً مضاعفاً . ولم تكن أية واحدة منهن قد أصبحت عاجزة لبقائها هذا الوقت الطويل في الزاوية ، وكانت إيميلا تتركهن بعد الآن يركضن في الشوارع وفي بيتها ، وهي واثقة من أنها لن تُخان .

أن تحبّ كارلوس وأن تحبّ نفسها ، هاتان المفاجآتان السعيدتان حدثتا لها في وقت واحد ، حتى أنها لا تدري أيتهما جرّت الأخرى . من قبل ، كانت بحاجة كل مرة إلى أن تشرب وتثمل قبل أن تصمّم على النوم . لا لكي تجابه بسمات الرفاق ونظراتهم ، بل لكي تزدوج ، ولكي تكون ثمة أخرى في مكانها توافق على الاغتصاب . وحتى حين تكون هي المغتصبة وتكون جاذبيتها الجسدية لا تقبل الجدل ، فان تلك المضاجعات التي تتمّ على عجل، قذرةً كاختلاسات من البضائع المعروضة ، كانت تذلّ كبرياءها وتخلّف لديها ، لا مذاق الاثم ، وإنما مذاق الإخفاق .جميع أولئك الذكور الصغار الخَرْقى والمستعجلون ، كانت تحتقر نفسها لاضطرارها إلى احتقارهم ، ولوجوب أن تمرّ عَبْرهم لتهدئة سُعارها والبقاء على جوعها . وكان السخفاء يعتقدون أن لهم حقوقاً عليها لأنهم كانوا قد جعلوها ذات لحظة تحتهم ، ولكنها كانت هي التي تأخذ وتَدَع ، ولم يكونوا هم يفهمون من الأمر شيئاً حين كانت توليهم ظهرها في اليوم

التالي . كان كثيرون يحكمون بأنّهم أُهينوا ، فكانوا يرسلون لها رسائل شتم . وكان آخرون يتشبّثون ، فيأتون ليطرقوا بابها ليلاً ، ليستجدوا ، بعينيْ كلب مضروب ، إضافة . وكانت تلك المجانات ، التي لم تكن بها فخوراً ، قد اكسبتها سُمعة امرأة فرنسية . صحيح أنها لم تكن تبالي بذلك ، ولكنها كانت تحقد على نفسها . ذلك أن ما كانت تعتبره وقاحة لم يكن إلاّ نظام راهبة قليلة اللباقة . كانت تعاقب نفسها بعد فوات الأوان أنها استسلمت ، ليس لشهوتها بقدر مااستسلمت للقادم الأول . أشبه بمن ثَمِل بدافع من تأدّب ، ليفعل كالآخرين ، ثم استيقظ بوجه من خشب . كانت في تلك الأصباح تحتقر نفسها أكثر من مومس استسلمت من أجل لا شيء .

لم تكن تفكر ، معظم الوقت ، إلاّ بأن تَبهج ، لتطمئن نفسها ، ولتطرد الخوف بألاّ تروق بعدُ . وإذ تثبت لنفسها ، بين الفينة والفينة ، أن بامكانها أن تُغري ، لمجرّد ضربة عناد ، كان يغرّها أن تعيش وحيدة بالاختيار وليس بالهجران والتخلّي . والحق أنها كانت تشتري بجسدها طمأنينة أن تُحسّ نفسها امرأة مرغوبة ومدلّلة . وبعد أن يتمّ الفعل ، كانت تُحسّ بأنها وجدت ببساطة زبوناً يردّ على إعلان صغير من قبيل « مبادلة جنس مقابل حنان في منتصف الليل — منتصف النهار » ، أو « مبادلة جنس مقابل اعتبار » ، أو

« مبادلة جنس مقابل اعتبار » ، او « مبادلة جنس مقابل ملاطفــات وهدايا صغيرة » . كانت قد ملّت تلك المقايضات العابرة التي لم تكن تتحدّى بها إلا نفسها ولا تستسلم على الاطلاق . وملّت الشهوة بصفتها لحظة رديئة لا بدّ أن تقضيها ، وعيون الصباح الهاربة ، وعبارات ملء الفراغ بين الغرفة والحمّام . ملّت تلك الدوّارة التي لا نهاية لها التي كانت تضاعف فيها الإنتصارات لتفلت من العبودية ، فكانت تجد نفسها محشورةً بين عشيق يتبجّح بأنه سيّد ، وعاشق نحّاب يشبه مالكاً مسلوباً . كانت إيميلا في الثانية والثلاثين ، ولم تكن تجرؤ حتى على أن تحلم باليوم الذي تستطيع فيه أن تحبّ من غير أن تذلّ نفسها أو تذلّ الآخر .

وحين أتى ذلك اليوم ، لم تهتف بأنها معجزة ، ونسيت حتى أن تَدهش . حين يستردّ المريض العافية ولا يشعر بذلك ، فهذا هو الدليل على أنه شُفي . كانت قد عاشت كل حيــاتها إلى جانب رغباتها ، كما تعيش مُخبّئة الأشياء المسروقة إلى جانب صندوق جواهر تبيعها واحدة واحدة . في الخفاء ، لأن المرء يجب أن يعيش. وفجأة، تغوص الروح في الجسم ، والشهوة في العدالة، والعاشقة في الثورة. لحظتذاك ، لم يخلّف هذا التشبيك الغريب في نفسها أكثر مما يخلّف الخطّ الشاقوليّ في خيْط . بعد كثير من الانحرافات اللامجدية . كانت إيميلا تتنفّس الاستثناء كما لو أنه القاعدة

الدائمة ، وكان كلّ شططها السابق يُفيد من نسيان كامل. على أنه ليس أمراً هيّناً أن تستطيع القيام بفعل الحبّ بكمال تامّ ، بكل جسدها وليس إلاّ به ، من غير روح قتالية ، ولا قيد ذهنيّ ، ولا قصد انتقاميّ . إن فعل الحبّ ، الذي هو فعل دماغيّ بشكل حتميّ ، هو طبيعيّ مرةً على ألف . وكانت إيميلا في هذا الصدد ، قد أحبطت الحتميّة . كانت تضطلع بطبيعتها اضطلاعها بمسؤولياتها ، مندفعة رافعة الرأس .

وأخيراً جاء رجل لم يكن لها أن تقاومه ، مخافة أن تضطر إلى تسليمه سلاحها . إن الكبرياء تنمحي مع الجراحات القديمة . كانت تمنح كارلوس خضوعها . وكانت تحتفظ بالسلاح . وهو لم يستغلّ الأولى، من غير أن يسعى الى سلبها الثانية . لم يكن هناك بعدُ علاقة قوى . بل كانت المساواة. وذات مساء — في سانتياغو أو في الهافانا ؟ — كانا قد ناما معاً ، بدافع السهو جزئياً ، وبدافع الرغبة جزئياً . مصادفة سعيدة ، هذا كل ما في الأمر : لقد أخذتهما الرغبة في وقت واحد . ولكن هذه المُتعة ، المقتسمة من غير همّ بالانتصار ، لم تخلّف ظلاً من غرور في النظرات التي وجّهها اليها كارلوس في اليوم التالي . وقد ردّت هذه اللامبالاةُ الطمأنينةَ إلى نفس إيميلا . وإذن ، فان الجنس لم يكن رهاناً ، كان على الأكثر ضَعْفاً يُقرّه الطرفان ويستنفد نفسه في اللحظة

ويترك العيون صافية . وفي الأيام التي تلت هذه الخطوة العاثرة ، مضى كارلوس يتصرّف تصرّف رجل مع امرأة ، ورفيق مع رفيق — من غير تداخل. وكان من شأن هذا الفصل أنه اقتحم من الخلف حصون إيميلا ، فاستشعرت حاجةً لأن ترتقي درجة ، من التواطؤ إلى الثقة ، من الظلّ إلى الضوء. وما أن وصلا إلى لاباز ، حتى أخذت هي مبادرة الهجوم. أن تقوم بفعل الحبّ خلسةً في بيت منعزل ، على فراشٍ مبسوط فوق البلاط ، بين اجتماعيْن ، هذا ما لم يكن يكفيها بعد . كانت تريد أن ترفع الحواجز ، وأن تمزج حياتهما المزدوجة بتأثيث البيت وبالعزم على الإقامة فيه ، على مرأى ومسمع من رفاق « اللجنة » ، حتى ولو كانا يأخذان ، تجاه المناضلين ، الحدّ الأعلى من الاحتياطات من أجل التضليل والخداع .

وكجميع النساء المناضلات المولّجات ، منذ الأزل ، بالمهمات الإدارية وبالبنية التحتيّة ، فقد ابتدأت طبعاً بأن تكون « سكرتيرة كارلوس » . ومرّ الوقت ، وبالرغم من المساكنة ، فانها لم تصبح « قرينة ... » ، بل ظلّت تلك التي كانتها دائماً ، والتي كانت تنتظر اليوم ولداً من كارلوس لأنها كانت قد أرادت ذلك . كانا يتكاملان ويحمي أحدهما الآخر ، من غير مديحٍ مفرط ، ولكن من غير ضغينة . لم تكن متحمّسة ولا سكرى . كانت تتذوّق بجرعات صغيرة

الإحساس الجديد بأن توجد بذاتها من غير أن تدين لأحد بشيء . ولكنها كانت تدين بهذا الشعور لكارلوس . ومن أجل هذا كانت تحبّه : من غير أن تتلاعب بالكلمة . بهدوء.
كان العيد الآن حراً ، والمتعة مجانية . أي لا غنى عنها ، كالماء والملح . كانت تحسّ نفسها أخيراً مع كارلوس ، بشرة لبشرة . طاهرة . هي التي كانت لمدة طويلة أشدّ عهراً من أن تبقى نقيّة . كانت تحطّم البديل العريق في القِدَم الذي كانت معظم مثيلاتها ، أخواتها ، قد تركن فيه كرامتهن أو جسمهنّ : العمل البيتيّ الدائم ، أو متنفّس اللحظة . لم يكن رجال الحركة ، الذين كانوا يُعدّون مستقبل الانسانية ، يعرفون أن يقولوا مباشرةً لزوجاتهم إلا شيئين : « انتظريني ، تجفّفي بنبل ، وابقيْ وفيّة لي . فسأعود يوماً» ، أو : « إن رائحتك عطِرة ، سآتي لأرويك في أوقات فراغي ، ولكن لا تفكّري بأن تتفتّحي . فأنا لستُ إلاّ عابراً ». كلا، إنها لن تكون من هاتيك اللواتي يتركهن المناضلون وراءهم ليحرسن البيت والولد ، ولا من هاتيك اللواتي يفتحن لهم السيقان ليتحن لهم أن يحلموا في اليوم التالي بامرأتهم الأخيرة وبالمعركة القادمة . كانت امرأة مقاتلة . فاكتشفت كبرياء أن تعرف أنها ضرورية . للتنظيم، ولرجل، ولهذا الوعد الذي كانت تحمله في نفسها .

* * *

في الأشهر الثلاثة الأولى . لم تعان غثياناً ولا قيئاً ولا خموداً . كانت تـُصَوّبن جسمها تحت المنضحة ، وتجسّ بطنها ، خائبة بعض الشيء ، وتنظر في المرآة ، مواجهة ومواربة ، مترصّدة الاستدارة عند الخصر ، ورعشة غريبة ، وثقلاً ما . لا شيء . كانت تنانيرها تدخل فيها بسهولة . ولم يكن وجهها يتقعّر . كان ثمة فحسب اندفاعة النهدين ، والحلمتان أكثر تورّداً ، واللّعوة أشدّ اسمراراً ، وبعض التوتّر في البَشَرة تحت القماش ، كأنه تكبير خفيّ للكائن كلّه ، غير ملحوظ . وتركت حاملة النهدين .

كانت تأكل لحماً أحمر كان عادةً ينفـّرها ، وحلويات ، وذرةً مطبوخة بالفرن مع السكر كان كارلوس يُعدّها في البيت . وكانت تُحسّ نفسها خفيفة ، بل حتى أثيريـّة. لم تكن جسيمة ، بل ممتلئة — وكان ذلك الامتلاء يمنحها جناحين لكي تخرج في مهمة في المدينة ، وطاقة مدقّقة كتلك التي تتمتّع بها خادمٌ تصلح لكل عمل ، بعين منقّبة ، ويدين ترفرفان في الأدراج . لم تكن ، في البدء ، تستقرّ في مكانها . ترتّب ، وتكوي ، وتشيع النظام في كل مكان . واتخذا لهما عادات . فقطّعا الأراضي ، وأنّسا الحيّز بسجّادة من صوف النعجـــة ، وركّبا الرفوف . وطاولة كبيرة واطئة من الخزف ، ومجموعة من الدمى الملوّنة علّقاها بالجدران وفي الزوايا : لوحة من القشر المدهون ، أفراس صغيرة من

الطين ، اعلانات سياحية عن « باب الشمس » أو عن بحيرة تيتيكاكا ، معترشات محفورة بالحديد الأحمر ؛ أنسجة حمر وسود بزخارف « أنكا » ، خزفيّات بطينة ذات باقات عالية من أجل وضع المصابيح والأغصان الملتفّة . ولما لم تكن إيميلا واثقة من أن الطقس الاستعطافيّ قد أقيم حقاً من قِبَل العمّال ساعة الإنشاء ، فقد اشترت من السوق الهنديّة جنين لاما يُشبه حصان بحرٍ مجفّفاً ، ودفنت التميمة أمام باب الحديقة . على هذا النحو احتفلا ببيتهما الجديد وجهاً لوجه.

إن البيت شيء هامّ حين يُجهّز من أجل أسرة . وهو أهمّ من ذلك حين تكون أسرة مزوّرة مكوّنة من خارجين على القانون . كان كلّ أمن التنظيم في العاصمة يقوم على زهاء ثلاثين عنواناً — من الشقق أو بيوت الأمان . ولكن ذلك البيت لم يكن مسجّلاً في اللائحة ، كانا قد وجداه بنفسهما واستأجراه بفضل شخص مُسخّر كانا وحدهما يعرفانه.وكان ذلك السرّ لا يخصّ غيرهما — غيرهما هما الاثنين وثلاثة أصدقاء ، هما شقيقان أبديّان ، محاربان قديمان : ماريو وتوماس ، وجديد هو أبيل الذي كان يؤمّن الاتصال بين اللجنة المركزية ومسؤولي الإقليم . كان أبيل شاباً جميلاً غامضاً ومخلصاً ، لم يكونا يعرفان أين يعيش مع « كريستينا » التي كانت هي كذلك تنتظر ولداً . كان أبيل يقصد منزله مرة أو مرتين في الشهر ، بقوة الأشياء ، ولكنه لم يكن يعرفه

إلا من الداخل . ذلك أن الاتفاق كان يقضي بأن يحمله كارلوس بسيارته بعد أن يأخذه من نقطة الاتصال ، قريباً من المحطة . وكان عليه أن يتمدّد على المقعد الخلفي ويغمض عينيه على الفور . وكان هذا لا يمنع كارلوس . بدافع من عادة ، أن يقوم بدورات وانعطافات قبل أن يعود ، ليزيده تضليلاً . ثم إن البيت ، إذا كان يُعرف من داخله بين الف بيت ، فان خارجه كان غفلاً : مخبأ بلا طوابق ، ذو واجهة خضراء يفضي مباشرة إلى الشارع . أما الحديقة فكانت من الخلف ، كما في الأجنحة الانكليزية ، ولكنها أكبر وأعرض . وكانت تنتصب فيه شجرة لوز ، وشجرة أوكالبتوس كبيرة على شكل مظلّة ، وركام كامل من الصبّار والعشب المجنون عند أسفل الجدران ، ومخبأ من ألواحٍ خشبية سيئة الوصلات حوّلاه إلى مختبر تصوير ، للمراسلة وتصوير الوثائق . وكان يتصل بالبيت مرأب مقنّع بحاجز مشبّك من لون الجدران نفسه كان ينفتح هو أيضاً على الشارع . وكانت تقف فيه سيارتان . وقد أقاما خلف الحاجز الذي عزّزاه بصفائح حديدية حجرة الكلب . ومن غرفة الجلوس المبلّطة والمدهونة حديثاً ، كان يُرى عبر النافذة ، من الجانب الآخر للشارع ، بيت منخفض شبيه ببيتهما ، ذو واجهة من ملاط ورديّ سمّاقي . وكان ثمة ممر يفضي من المدخل إلى الحديقة . وإلى اليسار ، غرفة أخرى

ذات نافذة تطل على الشارع ولها مدخل إلى المرأب . جعلها كارلوس مكتباً له . وأبعد إلى اليسار . كان المطبخ وغرفة أخرى وقاعة الماء . وكان الباب الأخير الأيمن ينفتح على « غرفة الأهل » : كان الباب — النافذة يشرف على أشجار الحديقة ومنه كانت الشمس صباحاً تدخل لتدفىء قدميهما وتوقظهما مع بسمة النهار الأولى . وحين أقبلت الأيام الجميلة . نصبا طاولة لكرة الطاولة في الخارج . وأربع قرميدات ومشواة خلف شجرة الاوكالبتوس . ومقعدين من أسل الهند الأخضر أمام غرفتهما . لم يكن شيء يستلفت العين في تلك التفاهة . ربما ذلك الحتار من القماش الممتلىء رملاً قاسياً والموضوع على مِنْصبة كانا يدرّبان عليه حدّ يدهما وظهرها — في ساعة مبكرة من النهار — ولكن «الكاراتيه» قد أصبح أيضاً ألهوّة لطيفة للملاكات المتوسطة والديناميكية. بالايجاز . رجل وامرأة كالرجال والنساء الآخرين . كان لهما يوم أحد كجميع الناس . وتسليات صغيرة بعض الشيء يقطعها عمل اليوم التالي . كجميع الناس .

إنه لشيء هام . بيت وجارٌ ولون واجهة . إن المرء لا يمكر في ذلك بما فيه الكفاية أبداً . أما هما . فكانا يُحسّان بأنّهما في بيتهما إلى حدّ أنهما كانا يفكران أقلّ فأقل في ذلك . في بيتهما . في جيرانهما . في ورديّ الواجهة الملاطية التي كانت تواجه رقم ٧٨٣ من شارع همبورغ .

وكان الوقت يمضي بطيئاً على وفاق في الجسدين وفي المهمّات . كانت لكل ساعة أهميتها ، وكانت إيميلا تجعل لنفسها كل لحظات النهار مهرجاناً . كانت تبتهج وهي تشرب قهوتها ، وتتزيّن ، وتجلس إلى المائدة ، وتأوي إلى السرير – الطوف حيث كانا ينطلقان معاً في الليل بين الكتب المتناثرة وخليط الزهور الجافة . كانت جهة الشارع مخصصة للسياسة ، ولتحريرات الصباح ، ولاجتماعات بعد الظهر ، ولجميع تلك اللحظات التي كانا يفرقعان فيها الكلام لرسم حدود ، وتمرير قطع صلات ، وكبح خوف الليل . أما جهة الحديقة . فكانت تنفتح مساء على الضوء الخافت ، على تلك اللغة للصمّ البكم التي تخترعها اليدان والعيون والفم حين تستسلم حتى تقول ما لا يُقال . وفي الليل ، كان كارلوس يضع مسدسه البراوننغ تحت الوسادة ، وكانت إيميلا تترك مسدسها الـ ٧،٦٥ التشيكي في درج بالمكتب . وكانا يحتفظان في خزانة ، بالقرب من سريرهما ببندقيتيهما AK ، مخفيّتين مع ملقماتهما في وقاء لزلاّجات أطفال ، مع عصيّ حقيقية للزلاّجات مربوطة فوقهما . للحالة التي تأتي فيها السياسة ، غير المؤدّبة دائماً ، لتقطع على حين غرّة . مناجياتهما الصامتة .

كانا قد حاولا كثيراً أن يتخذا لنفسيهما ميقاتاً أكثر تفصيلاً . حتى لا يتركا ساعة بيضاء . كانا على العموم يخصّصان الصبيحة للدرس ولأعمال المنزل . وبعد الظهر

للخروج إلى المدينة . والمساء لنفسيهما . ولكن بالرغم من عزلتهما ، أو على الأصح بسببها ، كانا أشدّ ارتباطاً بأصغر الطوارىء في قلب محيط الدائرة من أن يستطيعا أن يصبحا حقاً سيديْ وقتهما . كان اختفاء أبعد متعاون أو اعتقاله يستطيعان إجبار كارلوس على الخروج المرتجل في أية ساعة. ولكنْ مقدّساً كان نصف الساعة من الرياضة الصباحية عند النهوض ، تتبعه بضع حركات من الكاراتيه . وكان لابدّ لها من أن تستبدلها سريعاً بتمارين التنفّس والاسترخاء العضلي كما كانت موصوفة بالانكليزية في دايل « لاماز » الذي كانت جلبته من سانتياغو مع مصنّف الدكتور سبوك وأنواع متعددة من دراسات فنّ التوليد المصوّرة . وسبّب لها الوضع بلا وجع ، مدروساً في النص ، بعض الصداع .

وعلى مرّ الأسابيع ، كانت إيميلا تزداد جمالاً ، وتصبح كل يوم أكثر شهوانية وبالقدر نفسه من الصفاء. كانت حنيّتها تستدير أخيراً وايقاعها يهدأ ، وكانت على يقين من أنها اختارت الطريق الصحيح. كانت تدخل طور السيطرة الكاملة على أعضائها وعلى إدراكها . كانت رائقة ، مرتوية ولكن على غير شبع ، فكانت تحصر نفسها في حالة إبطاء مشعّ . قائسةً حركاتها وكلماتها ، مصغيةً إلى أحشائها حيث بدأت تُحسّ وتتصوّر الارتعاشات الأولى ، رجفة سريّة لطيفة في أعماق ذاتها كانت تجعلها متنبّهة وحالمة . وحين شعرت

حقاً ، في الشهر الرابع ، بحركة أولى للولد ، ثم بأخرى ، كان ذلك هو المجد . لقد أُنقذت ، وأقامت في الحياة إلى الأبد . ومن عجب أنها ، بدلاً من أن تنطوي على نفسها ، عرفت مزيداً من التفاني المجاني . كانت تبذل جهدها وتتضاعف من أجل خدمة الرفاق ، بثقة وفعالية لم تكن هي نفسها تصدّقهما . كما لو أنها ، وقد اطمأنت إلى مركز جديد للجاذبية وإلى أنها كانت تحتفظ به أخيراً في نفسها ، في نوع ٍ من الحرارة التي لا تنتهك ، لم يكن لها بعد أن تخاف إلاّ من أجل الآخرين . وكما لو أنها ، من فرط إرهاف العين والأذن على الارتعاشات الدقيقة ، قد أصبحت أشد إحساساً بالانذارات وبأدنى ومضات الخطر . حينذاك عرضت نفسها أو بالأحرى فرضت نفسها للقيام بمهمات كان أسوأ مافيها أنها كانت تناسبها ، أكثر مما كانت تناسب رجلاً على أي حال . كالرصد أمام ذلك البيت الذي لم يكن أحدٌ مطمئناً اليه بعد ، بعد انقضاء ثلاثة أيام على اعتقال مستأجره الذي كان قد أخفى فيه مستودعاً من الأسلحة . ولم يكن ثمة من يعرف عنه شيئاً بعد . ربما كان قد نجح في الانتحار ، ولكن ذلك لم يكن مرجحاً ، وفقاً لرأي الرفيق الذي كان قد بلغ نقطة الاتصال بعد عشر دقائق من التأخير : كان قد رأى من بعيد ثلاثة من رجال الشرطة يحاصرونه ويضربونه بأخمص أسلحتهم ويحملونه إلى سيارة . وربما يكونون قد صفّوه

بالرغم عنهم ، بتقوية المقدار في الاستجواب . وكان ثمة حظتان على ثلاثة في أن يكون المستودع كميناً . ولكن كان لا بدّ من إنقاذ الأسلحة بأيّ ثمن ، فهي كانت قد كلّفت غالياً ، وكان بعضها آتياً من بعيد : عشرون بندقية ، إثنتي عشرة رشيشة أوزي ، وبندقيتا بازوكا سوفياتيتان . وقد رفض كارلوس أن ينتدب لهذه المجازفة قادة فرع السوفيات وحده – مسألة شرف – ولم يكن يستطيع كذلك أن يضع أياً كان في السرّ .

وإذ رأت إيميلا ذلك ، عزمت على اصطحابهم .ورفض كارلوس ، فناقشته . فاذا كان تهوّراً منه أن يذهب هو ، فأية قاعدة حكمة موضوعية كان يستطيع أن يواجهها بها . هي ؟ وإن كان يمنعها من ذلك ، بصفتها امرأة ، فان هذا التمييز مخزٍ لهما كليهما إلى حدّ أن من الأفضل لهما أن ينفصلا على الفور . لم يكن الإشكال يقبل منفذاً . باستثناء واحد : « لا أريدك أن تأتي لأنك أمّ ولدي» . جسّ كارلوس الأرض على غير اقتناع . كانت فكرة أن يصبح أباً قد بدت له فظّة . وكان يشقّ عليه بعدُ أن يتلبّس هذا الجلد . كانت هي التي يريد أن يحتفظ بها – وليس ولداً مجرّداً . ولو ألحّ ، لكان فقدها . وانتهى به الأمر للإذعان. وقالت له ذلك المساء ، حين عادا إلى البيت : « أترى ؟ أننا نحمل السعادة لك ، أنا وابنتي » وجعلته هذه التثنية يبتسم :

لقد أصبح أقليّة . ولكنه ، للمرة الأولى ، نظر إلى ذلك البطن المنتفخ الذي كان مجرّد رؤيته يوحي له بنوع من الاستياء ، وقال في نفسه إن إيميلا كانت مسؤولة مثله ، إن لم يكن أكثر . لم تكن تفعل بعدُ إلاّ أن تأكل عن اثنين ، كانت تُعَدّ اثنين ، وكان يعرف ذلك . إنها عما قليل ستلعب الأدوار الأولى ، وكان ينبغي له أن يحسب حساب ذلك . لم يستشعر من ذلك أيّ غمّ ، بل استشعر ضرباً من العرفان المجرّد . كان يُحسّ نفسه عاجزاً أمامها ، وأقلّ من ذلك مُستلباً . كان يريد أن يدلّلها من غير أن يُحطّها ، أن يطوّقها بالحنان من غير أن يسمّرها على قاعدة تمثال الأم — الهشّة — القادمة . كانت ذكورته ترتدّ فتسقط ثانية على ذراعيه . كان يبقى إلى جانبها ، غير عارفٍ ما يقول أو ما يفعل ، وكان هو الذي يجد نفسه ، آنذاك ، على الهامش ، غائراً .

بعد أيام ، رفعت قميصها وأرته الحَدَبات الصغيرة التي كانت تتحرك تحت الجلد . وألحّت على أن يلمس ، وأخذت له يده ، فقاوم . كان مذعوراً . كان مسخٌ مجهول يحرّك قدميه ويلاكم الفراغ . كان هو ابنه . وكان خائفاً منه. لم يكن يستطيع أن ينزع عينيه عن ذلك التموّج المضحاك الذي كان يأخذ بطن إيميلا . أما أن يلمسه ، فهذا مستحيل . كان الشك يلتهمه ، هو . مَنْ كان ، هذا الابن ؟ إلى أين

هو ذاهب ؟ وكانت تهزّ كتفيها . كانت تعرف الآن .ويقول : « سيُدعى تشي » ، فتجيب : « بل ستُسمّى « انتانسيداد ».

– انتاذ ... ماذا ؟ هل أنتِ مجنونة ؟ ماذا قلت ؟

– وماذا في ذلك ؟ أية أهمية أن تكون سيتي أو سيداد أو سيته ؟ إنها الكلمة نفسها في جميع اللغات !

– إنها في الإسبانية تانشا ، مثل هورتانسيا ، زوجة اللندي.

– آه ، هذه لا ... هذا اسم أرملة !

– على هذا الحساب ، لن يروق لك اسم رجل قد اغتيل.

– ماذا يهمّ !

هكذا أجابت إيميلا التي لم تكن تفكر قط بالموت بعد، بل بأن تبنى فقط . حين تبلغ انتاسيداد العشرين ، ستكون الحرب قد انتهت ، بمجازرها وشهدائها . لن يكون ثمة حاجة بعد إلى الابطال في تلك الحقبة ! ياله من حظ !

كان يستطرد قائلاً : – مهما يكن من أمر ، وسواء أدُعي ذلك الولد « تشي» أو « تانشا » فانهما اسمان ثقيلان للحمل ، ولا بدّ من أن يشرّفهما .

– إنني لا أبالي بشرف بنتي . أريد أن تكون سعيدة : نقطة على السطر .

كان لها جميع الوساوس إلا وسواس الأسماء ، وهو لم يكن له إلا هذا الوسواس . وكانت تنتهي إلى القول :

– على كل حال ، لا يجدينا شيئاً أن نتخاصم . إن الولد لن تكون له حالة مدنيّة قبل وقت طويل .

وصاح كارلوس وهو يضرب جبينه :

– عجباً ! لم أكن قد فكرت بهذا قط . فاذا وُلد هنا ، فلن نذهب للتصريح عنه في المختاريّة .

أما هي ، فكانت قد فكرت بالأمر . كان جميع الرفاق يعتبرونه أمراً مبتوتاً فيه أن على النساء أن يذهبن فيضعن في الخارج . ولم يكونوا قد قالوا لها شيئاً ، ولكنها كانت قد علمت من كريستينا أن خروجاً بالسيارة كان يُعدّ لهما مع أوراق جديدة مزيّفة . كان في البلد أطبّاء يوثق بهم ، ولكن لم يكن فيها عيادات موثوقة : فاذا حدث طارىء ، فلم يكن ثمة ملجأ آخر إلا أخذ الأم إلى « المساعفة » العامة ، أي تعريضها هي ، وبالتالي هو . بحيث أن القضية كانت ، في تلك الحالة ، حماية حياة كارلوس ، وبالقدر نفسه حياتها وحياة الولد . وحين طرحت الموضوع أمام كارلوس الذي كان يتوقف عليه ، بعد كل حساب ، اتخاذ القرار النهائي ، تجنّبه متذرّعاً أنه كان من الأفضل التهيّؤ لخروج محتمل ، وأن الأمر سيُنظر فيه في اللحظة المناسبة .

وذهبت إيميلا ، ذات أصيل ، لترى كريستينا ، فاتفقتا على أنهما لن تغادرا بلدهما ، بأي حال ، حتى ولو تلقّتا الأمر بذلك ، وأنهما ستتدبران أمرهما في مكانهما . وخلال

خمسة عشر يوماً ، وجدتا لهما معاً شقة صغيرة نظيفة بما فيه الكفاية ، وقابلة قانونية كانت مسؤولة عن كل شيء ، وعن الدم في القوارير من أجل عملية نقل الدم ، في حالة ما ... كان لابدّ من المكر ، ذلك أن عامل البندر [١] عند إيميلا كان سالباً ، وكانتا قد تعاهدتا على ألاّ تتوجّها إلى أطبّاء الإقليم، حتى لا تثيرا أية ضجّة . ولكن المؤامرة كانت ، خلال خمسة عشر يوماً ، قد أُعدت . وكان باقياً أن يوضع الرجال أمام الأمر الواقع . وقد بدا كارلوس متحفّظاً ، ولكنه كان في صميمه فخوراً بما فيه الكفاية . وألحّت :

– لقد كسبت لنفسي حقّ أن أضع مولودي هنا ، حيث أثبتّ أني كنت أستطيع أن أدافع عن نفسي . ألا تعتقد ذلك ؟

بمَ عساه يجيب ؟ وقد فعل ابيل كما فعل كارلوس : رضخ . وكان أن وُضع الدم والمصلُ في الثلاّجة .

في أواخر الشهر السادس ، أحسّت بساقيها ثقيلتين ، وشعرت بوجع في كليتيها . وفي بدء السابع ، أقنعت نفسها بأنها كانت قبيحة وأصبحت تشعر بالغيرة . كانت تسأل كارلوس ست مرات في النهار :

---

(١) مادة في الدم عند البشر تسبب بعض الحوادث عند عمليات نقل الدم ( هـ. م )

– كيف تجدني ؟

– أفضل من أمس .

– أنت تكذب . فأنا بشعة . ولكن تذكّرْ أنها ليست إياي ، تلك السمينة المضحكة ذات الضرعيْن البقريين والدوالي والبطن المنتفخ . ليست هي أنا . أتسمعني ؟

وكانت تتجمّع عليه حتى لا يراها . كانت تحلم بأن تتكوّر في العتمة ، بأن ترجع إلى الحظيرة، بأن تعود طفلة . وكانت تخاف المرايا . وقد وضعت صورة والدها على الطاولة قرب سريرها . كانت هي التي التقطتها ، منذ بضعة أعوام: ففي ساحة مزرعته ، أمام الزريبة ذات السقف القشيّ ، والبوابة المفتوحة نصف فتحة ، كان وحيداً وسط الدجاج والخنازير السود ، والماعز والديكة ، بجبينه العريض ولحيته الطويلة البيضاء ، وعينيه الطيّبتين . كان المبشّر متشابك الذراعين ، بقميصه ذي المربّعات ، يَعِظُ الحيوانات : تحوّل عجيب بالنسبة لشيخ من « الورماخت » . وقد ودّت أن تكتب له ، ولكنها لم تكن تستطيع ذلك . كانت تحلم بأن تقوم برحلة إلى سهول « الشرق » الصحراوية ، وعلى مستوى أدنى ، أن تهبط يوماً إلى المزرعة عند الوصول : « هانس ! أنظر إليّ ، ستكون جدّاً والماما لم تمت » !

ولكن ذلك كان جنوناً ، الجنون الوحيد الذي ما زال يغريها . أما بالنسبة للباقي ، فكانت قد أصبحت عاقلة ، غير

قادرة جسميّاً على الحركات الجميلة . كان يكلّفها غالياً بما فيه الكفاية أن تخرج إلى الشارع ، وأن تكمن وتترصّد . ولم يسبق لها قط أن شعرت إلى هذا الحدّ بالتناقض بين خطر الخارج المرهق وسلامة بيتها حيث كانت ، بمجرّد دخولها، تترنّح استجماماً ، مُرْخيةً عضلاتها من الرأس حتى أصابع القدمين .

كان الزمن ، ما أن تجتاز باب ملجأها ، يعود خَمْلياً ريّاناً كالخدّ ، ومن جديد كانت تستسلم لهدهدة إيقاع الساعات ، وأرجحة المطالعات ، والنصوص التي تحتاج إلى إعادة نقل على الآلة ، والصور التي تحتاج إلى تظهير في المختبر . وحين كانت تبقى وحدها ، كانت تتجمّع وتنعس، مفتوحة العينين على سعتهما ، في مأمن من كل شيء . كانت الأصوات تُعرف مصادرها ، والأخطار تُقنّى بالجدران والنوافذ والباب . لم يكن لشيء أن يدركها . في الخارج ، كان الجو مليئاً بالسما وبالثقوب ، وبالندبات والكسور ، وبالطلقات النارية . كان المرصد يُشقّق الثواني ، ويحفر ظلالاً في جبين الشمس، ويجعل الجرح ممكناً في كل لحظة. والنزيف . وكان يمكن للاقتحام أن يأتي من كل جهة . كانت محاصَرة . وكانت تتقوّس وتحصي خطواتها وتتنفّس بصعوبة . حتى التوجّه لتأمين زاد الأسبوع من المتجر الكبير كان يعقد معدتها . في البيت ، كانت تعيش من أجل الولد

وتنسى العدوّ . وفي المدينة ، كانت تلتقي المسؤولية القاسية أن تعيش باسم الجميع ، من أجل جميع الآخرين . كان مجرّد غلطة صغيرة ، تأخّر خمس دقائق عن موعد يمكن أن يؤدّيا ، بطريقة غير مباشرة ، إلى اعتقال رفيق مجهول . وإذا أعتقل رفيق ، فهذا يعني أن رفاقاً آخرين في خطر . وسيارات وبيوتاً يمكن أن « تسقط » ، وهكذا دواليك ، في سلسلة بلا نهاية ، بلا نهاية أخرى غير الانكفاء والإبادة.

وقد وجب ، والحال هذه ، أن يوضع في البطن ميقت ، وأن يُقدّر تألّبٌ بأقصى سرعة ، وأن يُخمّن مفرق طرق عن بُعد ، بطرفة عين ، وأن تُرصد الوجوه بهيئة لامبالية ، وأن يراقب الانسان حركاته الذاتية وإيماءاته ، فتكون سحنته مغلقة . كان عليها أن تموضع بائع الصحف ذاك الذي لم يكن عند هذا الركن من الشارع في الأيام السابقة ، أو تلك السيارة – وهي لم تتنبّه اليها – التي مرّت مرتين ، وذاك الرجل والمرأة المستندين إلى الشجرة هناك يتبادلان القبلات باجتهاد مبالغ فيه ... ذاكرة ، تحليل ، حاسّة شمّ . كان الجسم الجريء قد تحوّل إلى آلة للتسجيل وللعدّ ، بصلصلة صامتة مليئة بالشرر وبالإيماض وبالقفزات التي يجب حلّها على الفور . كَنْس العيون للرصيف ، لعبة الانعكاسات في الواجهات والأبواب ، التعرّجات ، التوقّفات المفاجئة . ألاّ تحمل شيئاً مكتوباً ، أن تحفظ كل شيء عن ظهر قلب ،

هذه العبارة لفلان ، وتلك لعلاّن ، وليس العكس . وبعد ساعتين ، كانت تطلب إعفاءها . وقرّرت أن تخرج حاملة مسدسها ٧٠٦٥ – حتى ولو لتتلفن من غرفة للعموم . لم يكن ذلك حكيماً ، ولكن نتواءتها الرمزيّة كانت تُعفيها من ألوان التفتيش المفاجئة . وكانت مستعدة أن تتراخى عند اللزوم بين ذراعيْ الشرطيّ ، مع تنهّدات طائشة . وحين كان ذلك ممكناً ، كانت تأخذ السيارة . وكان ذلك أقلّ إتعاباً للساقين وللظهر ، ولكن أكثر إتلافاً للأعصاب ، لأن ذلك كان يقتضي حساباً أسرع . العين في المرآة الارتدادية ، والدوران ثلاث مرات حول مجموعة البيوت نفسها ، المرور مرة أخرى أمام نقطة الموعد ، هل كل شيء طبيعيّ ، غريبٌ ذلك الرجل قرابة موقف الباص . انتظار وصول الباص ، رؤية الرجل إن كان قد صعد ، الانتظار أيضاً ، الترصّد . وحين مرّت الساعة أمام الرفيق ، رفع نظارتيه ، ألم تُخطىء الحكم ؟ إشارة الخطر ، حين يُحسّ المرء أنه متبوع وأنه مسحوب برجال الشرطة ، فيفرك عينيه عدّة مرات ، كما لو أنّ في العينين قذى . ما الذي عناه بنظارتيه ؟ ولكنها إذا لم تتوقف عند المسلك القادم ، فانه سيمضي ، وتكون تلك ثلاثة أيام ضائعة ، حتى عملية الإنقاذ التالية . ما العمل إذن ؟ إذا توقّفت ، استرعت الأنظار . هل الأفضل إذن أن تركن سيارتها في مكان أبعد ، وأن تضع الذرور على وجهها من

جديد ، وأن تستجمع الصورة العامة . مرة أخرى : عبر المرآة الارتدادية ؟ أسئلة ، انتظارات ، أسئلة ، انتظارات. لم تكن تفكر بعد ، وهي في الخارج ، إلاّ بأن تعود إلى بيتها.

لم تكن تستطيع مع ذلك أن تترك كل شيء في الطريق . وقد عادت تفتش عن بيت جديد . لكارلوس ولها ، وكان لا بدّ من الاستمرار . وكان « ماريو» هو الذي حرّضهما على التحرّك : ستة أشهر في العنوان نفسه . لم يكن ذلك حكيماً جداً — ولكن كارلوس كان يهزّ كتفيه . والواقع أنه لم يكن ثمة في المدينة من يريد تأجير شقّة قبل أن يقوم بتحقيقات طويلة ، ليأمن رجال الشرطة وتُهم التواطؤ في حال تورّط المستأجرين في عملية « تخريب ». ومن حسن الحظ أن « ساره » كانت هناك — صديقة طفولة ذات أصل إنكليزي ، تنتمي إلى الطبقة الاجتماعية الرفيعة العالية . وكانت إيميلا تحب كثيراً تلك الفتاة الرياضية الطويلة ، العزباء بلا تعقيدات ، الرشيقة الأنيقة . وكانت ساره تترك لديها الشعور بأنها أخت صغيرة كانت قد هجرتها أعواماً على مروج النوادي الخاصّة بالأجانب . لم تكن تملك فحسب اللامراعاة التي طُبع عليها أفراد طبقتها ، الذين زادهم جرأة الافلات الوراثيّ من العقاب ، بل كانت تملك أيضاً شجاعة حقيقية وحذراً . حتى أنها عرضت أن تصبح مناضلة في الحركة بصورة كاملة ، وكانت إيميلا هي التي عانت لتقنعها بأن بورجوازية كبيرة

مثلها تتمتع بحق الدخول إلى السفارات ونوادي الغولف وحفلات الكوكتيل كانت أجدر بأن تقدم لهم خدمات أوسع، وأن أشخاصاً مثلها هم الذين كانوا يتيحون لمقاومين سريين أن يتنفسوا. وكانت ساره هي الشخص المثالي للبحث عن عقود التأجير أو البيع والشراء. وكانت إيميلا قد سألتها فقط: بيتاً كبيراً للمقاومة، ولا تهم وسائل الراحة فيه — ولم تحاول آنذاك أن تعرف من الأمر أكثر من ذلك.

وفي شهري الحمل الاخيرين، أراد كارلوس أن يخفف ما أمكن من عملها كساعية. فطلب إلى «أبيل» أن يؤمن معظم اتصالاتها، بما في ذلك الاتصال مع ساره، ريثما يولد الطفل. وكانت إيميلا مسرورة من زيارات أبيل. كان يتسلل إلى البيت كالقط، ويتمطى من غير أن يقول شيئاً. ويراقبها على مهل، وفجأة يطلق عبارة وهو يصفر، دفعة واحدة، كما ليعتذر بأن لديه ما يقوله، صموت هو أبيل، وغير مرتبك. ولم يكن كارلوس يقوم بعد بدورات ولفتات ليصطحبه من المحطة إلى منزلهما.

كان شهر أيلول كثيفاً وهادئاً. كان الربيع الجنوبي يلقي بمراسيه، وكانت الشمس توقظهم بوقت أبكر، والنهارات تطول. ولم تجرؤ على القيام بسرد الصوف، ولكنها بدأت تشتري القمصان والطاقيات والأحذية التي كانت تراكمها سراً في درجها وتحت أمتعتها. وعادت

مرتين تزور الشقة الخالية التي كانا قد استأجرها لستة أشهر ، تزوّداً لليوم الموعود . لتتحقق من أن كل شيء كان على ما يرام : الغسيل . الكهرباء ، المياه الحارّة . وكان غياب كارلوس يجعلها عصبية ، كانت تصبح امتلاكية . كانا في المساء يلعبان الشطرنج طوال ساعات حتى لا يترك أحدهما الآخر في أثناء النوم . وكانت بها حاجة إلى الهدهدات ، وإلى عصير البرتقال ، وإلى ملاطفات طويلة . كانت تحبّ كارلوس بكل جسدها ، وكان جسدها مشوّهاً . وكان يردّد على مسمعها أنها كانت أجمل امرأة حامل رآها في حياته . وكان يدلّل لها عن ذلك بلا عبارات . ولكنها كانت تنتظر الخلاص لتعود فتصبح هي نفسها ، امرأته ، الرشيقة الجميلة . كانت تذهب للتسوّق ، وكان هو ، من أجل العشاء ، يطبخ لها على نار خفيفة طعامها المفضل بتدقيق رئيس الطباخين : « السلطيناس » ، تلك الخُفيّات من العجين المحشوّ باللحم والبصل والعنب ، و « الاومينتاس » ، تلك الذرة المفروكة والمطبوخة بورقها ، ولحم الخنزير المشويّ بالتوابل ، وتوتياء التشيلي بالثوم والبصل ، ولكنها لم تكن قط تقطع البصل ناعماً بما فيه الكفاية ، ولم تكن تفهم شيئاً عن الطبخ الذي سيصبح ، كما كانت تقول ، الميدان الأخير المخصّص للرجال ؛ وكان الكلب يأتي تحت الطاولة ليختلط بألعابهما ، وكانت تخافه أقل من ذي قبل . كانا مسرورين مبتهجين ، وكانا يظلاّن

يقظين . وقد انقضت تلك الأسابيع في استجمام مُجدّ ، تقطعه الضحكات والنبيذ الأبيض ، ولم يكن لها بعدُ أن تخشى خمود الأيام التي تمضي . ولا ذلك التحلّل البطيء للسعادة الذي يُخدّرك لينسيك أن الوقت يمضي عبثاً وأنك تسير القهقرى .

كانت تنسج خلايا كائن صغير ، مُضيفةً هنا ظفراً ، مُنجزةً هناك رَوْم الأذن اليُسرى . كل ساعة ، وكل نهار كانا مكسوبين على الليل ، والتشتّت ، واللاشكل . كانت تتأمل لوحات كتبها الملوّنة ، وتلك المقاطع التشريحيّة التي تتابع نموّ المضغة إلى الجنين ، والجنين إلى البنية ، وإندفاع الساقين ، وتفصيل الأصابع والعينين والصماخ . تجميع ، حَرْث ، تنظيم ... أية معجزة هي معجزة الخلق ! والأمر لم يكن قاصراً على الولد . كان كارلوس ، هو أيضاً ، يوماً بعد يوم ، يدحض الليل بصبر ، ويشبك خيوط التنظيم ، خليّة إثر خلية ، قطاعاً فقطاعاً . كان البلد كله الآن مغطّى من الشمال إلى الجنوب ، ومن فوق إلى تحت ، مروراً باللجان الفرعية حتى اللجنة المركزية وأمانة السرّ . عمل تطريز ، غرزة غرزة ، وخيطاً خيطاً . وكان كارلوس ينشغل كل يوم بمساعدة عائلات المعتقلين ، ساهراً على توفير طعامهم وملجأهم ودعمهم المعنوي . وباعادة الاتصال مع المعتقلين ، وبايصال كلمة تشجيع لهم . وبالتحقيق في الاستجوابات ،

وفكّ الارتباطات والدارات القصيرة التي يثيرها العدوّ . وبانعاش رفيق متردد ، كتابةً ، بل حتى الذهاب اليه ، وقضاء ثلاث ساعات لتبديد خلاف معه ، أو خديعة مع الآخرين ، وببذل كل الجهود للتوفيق بين زوج وزوجته إذا قام منهما نزاع ، بالتحدث مع هذا أو مع تلك ، من غيرِ المساس بهما .

ما كانا يسمّيانه « التصحيح » .و « خطّ المجموع » ، كانا تلك الطريقة الجديدة بايلاء الاهتمام لمشكلات كل فرد. وكانا بعد ذلك . وخاصة ، رتابة عمل التنظيم ، تلك الرتابة التقليدية والجديدة في آن: اجتماعات «اللجنة المركزية » ، المفاوضات مع الأحزاب الأخرى ، القرارات والوثائق الداخلية ، المراسلة مع البلدان المجاورة والتنظيمات الشقيقة. لم يكن شيء قد طفا بعد . كانت « المقاومة » تناور في المياه العميقة . كانت في مرحلة الغوص ، وكانت إيميلا كذلك تغوص في ذاتها بالبطء الدقيق الواثق ، شأن صُدرة الغوّاص. ولكن ذات يوم ، عما قريب ، سنراهم جميعاً يطفون على السطح . مطمئنين قادرين ، قساة . كما سيطفو وليدها من مياه الرحم الراكدة .

هذا اليقين ، فكّرا في نقله لي عن طريق أنبوب من معجون الأسنان وضعه مسافر مجهول عند بابي في باريس. ارتعشت فرحاً وأنا أفكّ ، بالمكبّرة ، الفيلم السالب

الملفوف في كيس صغير من المادّة اللدائنية . وكانت إيميلا تروي لي كيف خطرت لهما فكرة الكتابة لي، آمرة ومضحكة، وكانت حكاية الرسالة تستغرق كل الرسالة تقريباً .

كان كارلوس قد عاد يوماً إلى البيت بعد اتصال بالخارج فقال لها :

– تلقيت أخباراً من بوريس ، لو تعلمين . لقد فعل كما قال . فغادر إلى باريس ، ويبدو أنه يعاني هناك ضجراً قاتلاً . أتعتقدين أنه اليوم ، سيكون على اتفاق معنا ؟

وكانت إيميلا قد أجابت بلا تفكير :

– أنا على يقين من ذلك ( ثم استدركت ) حتى ولو لم يكن كذلك ، فسيكون جيداً أن نلتقي يوماً . إنه ، رغم كونه فرنسياً ، لم يكن شخصاً رديئاً .

– على كل حال ، أنا أعرف أنه كان على خطأ ألاّ يكون هنا . ومهما يكن ، فلنرسل له سلاماً .

قالت إيميلا : – نعم ، سأعمل له الرسالة .

من تلك الأحرف الباردة ، المضروبة بالآلة الكاتبة ، كانت تتصاعد سخرية وديّة أدفأت قلبي . كانا يذكران مستقبلهما ، وكان ذلك بالنسبة لي أشبه بصوت من الماضي . لم يكن هذا التلاحق جديداً بيننا . لم أكن فخوراً فخراً خاصاً بعودتي إلى الحظيرة : كنت أتخبّط في الهدير الباريسي ،

وكانا يقاتلان في عين الإعصار . وقد أجبتهما أن نجمتي السعيدة كانت قد ردّتني إلى بيتي ، في نصف الكرة الأرضية الثاني ، حيث لم تكن الرياح تهبّ قطّ ، لكن السماء كانت تدور ، ولا بدّ من أن يقرّب بيننا يوماً دوران الكرات . وقد ذهبت رسالتي بدروب معقّدة فلم تبلغهما قطّ .

وكان يبدو أن كارلوس وماريو وتوماس والآخرين يستمدّون طاقتهم من ينبوع الإنفاق ، ولم يكونوا يستنفدونها. كانوا غالباً ما يحنقون ويسخطون ، ولكنهم لم يكونوا يكتئبون ولا يحزنون . وكان كارلوس أيضاً قد تغيّر كثيراً. كجميع الآخرين . كان الخاتل ، المتعجرف ، المتوتّر ، قد رقّ مع إيميلا فغدا زوجاً مندفعاً . والفارس المُكدف على جبهة الجيوش ، الذي كان ، مع « الثورة » ، قد سُدّت عليه الدروب ، أصبح راجلاً متواضعاً . ليس ثمة بعدُ إختراق ، ولا هجوم جبهيّ ، ولا عصيان مُسلّح يُنفّذ صباح الغد . كانت القضية قضية « تماسُك » ، وكسب للوقت. كان الخطيب الذي يتكلّم كالبرق وهو يلتهم كلماته ، يضع بين عباراته مزيداً من لحظات الصمت . كانت الكرة الزئبقيّة قد فقدت حُبّ التنقّل . وكان كارلوس يستطيع أن يبقى جامداً ساعات ، متمدّداً أرضاً على سجّادة في غرفة الجلوس ، يقرأ ويفكّر . كان قد ابتاع «الموسوعة البريطانية» وأخذ يغطس فيها وهو يذبذب بين جزء وجزء . وكان

يدرس خاصّة الاقتصاد وفنّ التوليد ( ليراقب القابلة القانونية في لحظة الوضع ). ولماذا بالاجمال ، « المساعفة » أو عيادة في الخارج ؟ لم يكن قد أوقف دراسته للطب إلا في السنة الرابعة ، ولم يكن قد فات الأوان للعودة اليها . كان يستمع إلى سمفونيات على آلة التسجيل ، وكان يقول لإيميلا التي كانت تفضل « فيلا — لوبوس » ، والناي الهندي والغيتار :

— ليست هي غلطتي ، إذا كانت « هيروييك » بيتهوفن تخلّف عندي الرعشة .

بل لقد كان انصرف إلى قراءة روايات — دستويفسكي الذي كانت قد قدّمت له أعماله الكاملة مطبوعة في بيونس ايرس على ورق توراتي : كان ذلك المجنون الصاحي يدوّخه . « مئة عام من الوحدة » ، « راوييلا » ، « الجوقة الحمراء ». كانت هذه كلّ مكتبتهما تقريباً ، وكان ذلك غير قابل للنفاد . وكانا يؤثران إعادة القراءةعلى تقليب الصفحات. وكان كارلوس يقول :

— لو كان عندي وقت ، لكتبت أنا أيضاً رواية ...

فتهتف إيميلا : — الوقت، الوقت... ولكنّ عندنا وقتاً.

— صحيح ، ولكن ليس من أجل ذلك . لكي يكون عندنا يوماً هذا الوقت، فيجب « أولا» أن أهتم بأمور أخرى.. فيما بعد ، فيما بعد . سيكون ثمة وقت لكل شيء ...

بعد « ماذا » — لم يكونا يعرفان ذلك بالضبط . كانا مستعدّين للانتظار طويلاً ، ولكنهما لم يكونا يشكّان بأن « ذلك » لا بدّ آت . الأسرة الكبيرة في المسيرة ، ذات يوم . كانا يحلمان بالوحدة ، بالانسجام ، بالجبهة . إن ذلك لن يكون قابلاً للقهر . كانا يريان نفسهما غارقين في موكب من العمال والفلاحين سيدخل بهدوء إلى المدينة ، متجاوزاً حواجز الشرطة ، مغرقاً الشوارع ، مكتسحاً الأسلاك الشائكة والرشاشات ، طاغياً على هدير الحوّامات . كان خلفهما شمس هائلة حمراء ، واصطفاق الأعلام ، وبريق المناجل الكبيرة ، والمجارف ، والمقاريع ، وخفق الجراميق والأحذية على البلاط . وكانا يشابكان أيديهما ، محمولينْ بالجمهور . وكانا يتبادلان النظر باسمينْ . ولم يكونا في الصف الأول.

في مطلع تشرين الأول ، كانت إيميلا وكارلوس في ذروة السعادة .

* * *

منذ أن كان العالم عالماً ، لا بدّ من تسعة أشهر لصنع ولد ، ومن عامين لصنع شبكة مقاومة ، ومن عشرة أعوام لصنع حزب سياسي ، ومن ثلاثين لصنع ثورة . ومنذ أن كان العالم عالماً تجب وتكفي لحظة لقتل كائن بشري ، ودقيقة لتدمير شبكة ، ونهار لإحباط ثورة . وهو ما يجب ويكفي من أنغام غيتار لصنع زفرة أو زفرتين ... من الخطأ أن

ليس هناك حبّ سعيد . ولكن ما يحدث ، هو أن السعادة تسير ببطء ، وأن الشقاء يجري بسرعة . وما يحدث دفعة واحدة ، ليس هو الحياة ، وإنما العارض . يجب مبدئياً أن نحاذره ، إن البوكر والصاعقة لم يجلبا سعادة لأحدٍ قط .

والحق أن تنظيم إيميلا هو أكثر من شبكة ، كان قد أصبح حزباً – وحزباً ثورياً . من أجل هذا كان لابدّ من سنوات عديدة لجعله قابلاً للتصديق . إن الشبكة بكل معنى الكلمة ، ذلك النسيج العنكبوتي الذي يشدّ فيما بينها البيوت والشقق والعربات والمستودعات والمختبرات ، وصناديق الرسائل ، وعملاء الاتصال ، والمسؤولين والمناضلين والمتعاطفين – كانت قبضة من الرجال والنساء قد ضفرته في عامين. وكان كارلوس ، منذ عودته ، قد نفخ فيه روحاً.

في أية دقيقة واضحة تكوّنت الدقيقة ؟ لن يعرف أحدٌ أبداً . ما هو مؤكّد ، أن الأمر لم يتطلب أكثر من أسبوع ، بعد الفَصْلة الحاسمة ، للوصول إلى المركز. من الاثنين إلى الاثنين . ومع ذلك، فان الرفاق لم يكونوا قد تبنّوا أسبوع الأربعين ساعة ! ولكن كان لا بدّ من النوم ، والطعام ، وفعل الحبّ . في حين أن زجال الشرطة ، لم يكونوا ليناموا قطّ ، شأن الأفران العُليا . إنهم يعملون أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين . وحين لا يقتّر المرء في الوسائل ، فانه يشتغل كثيراً في مئة وستين ساعة !

سامحوني ، يا أصدقائي ! يخجلني أن أهزل على ظهوركم وعلى ظهري . لم تكن القضية لعبة ، ولستم بالمهزومين .إنني أكتبكم في الشمس ، ولست بالمنتصر . سنعبر هذا جميعاً . إننا نؤمن ، أنتم وأنا ، بلا غَلَبة مغلوبي اليوم . وهذه الثقة هي التي ندعوها عدلاً ، وباسمها قاتلنا . إن للعالم قوانينه . وكنتم قد تحدّيتموها لتستطيعوا تغييرها ، وارتميتم في الجحيم بكل حماسة لتنقذوا منها الآخرين . إن أول جميع القوانين في العالم الذي أورثونا إيّاه ، هو أنّ الرجال يجب أن يتضافروا لإيقاف « الوحش » . والثاني هو أنه حين تنكسر حلقة من سلسلة ، فيكفي عمّال الجهة المقابلة أن يشدّوا بكل قواهم على المفاصل ، من غير حياء ، حتى تنكسر سائر الحلقات. وفي العالم القذِر الذي ما يزال يحتلّ ثلثي هذا العالم ، ليس من اليسير تعطيل هذا المنطق . إنه يعمل بالكهرباء ، بالماء ، بالنار ، بالكلاّبة ، بالتاكسيفلاكسين بين الأوردة ، بالمخدّر في الضلوع – وفي معظم البلدان ، تحت الرقابة الطبية .وأكثر ما يمكن فعلُه وضعُ واقية نار هنا ، وإسدال ستارٍ كتيم هناك، وعزل الحلقات التي أصيبت ووضع الباقي في الإحتياط. إن السباق ضدّ منطق الماء والكهرباء ، هو سباق ضدّ الساعة. وإن النادر لا حكم له ، فينبغي العملُ بسرعة ، بسرعة كبيرة . إن كل ساعة وكل دقيقة يُعدّان ضِعفَين .

ولكنكم كنتم قد فقدتم بعض الشيء حسّ الاستعجال.

وربّما أيضاً حسّ الواقع . وليست تلك غلطتكم . إن الأحلام العظيمة تصنع الأعمال العظيمة . وقد كنتم دخلتم هذه الحالة الثانية التي تدفع اليها مغنطيسية السعادة ضحاياها . كنتم قد شربتم ، على غير وعي ، من شراب الشباب ، حين كنتم تنجحون في كل شيء من غير أن يكون عليكم أن تدفعوا الثمن . ربما كان هناك قمةٌ في ممارسة المسؤولية إذا تجاوزها المرء يمكن أن يصبح غير مسؤول ، وعيٌ أعلى يدفع المرء إلى السفح الآخر من الحكمة . كنتم تهبطون في تزلّج متعرّج عبر عمليات التمشيط والتفتيش والاعتقال — بمهارة بهلوانات كانوا يُمسكون أعداءهم والأصدقاء تحت سيطرة السحر ويمنحونكم ضروباً من الجرأة هي من فرط الجنون بحيث كانت تصبح عاقلة ... مثل ذلك اليوم الذي كنتما فيه ، أنتما الاثنين ، في سيارة تنقل ثلاث رشيشات موضوعة على الأرضية ، ويحمل كل منكما مسدسه ، فاذا بكما تلتقيان وجهاً لوجه ، في قلب المدينة ، صفاً من الجنود المسلّحين بقرابينهم كانوا يغلقون الجادّة ويفتّشون جميع المركبات . كان من المستحيل التقهقر ، فقد كانت سيارات أخرى تسدّ عليكما المنافذ من خلف . إذ ذاك ، فتح كارلوس زجاجة ، فحيّا الضبّاط بحركة عريضة من ذراعه ، وسرّع المحرّك وهو يبتسم ابتسامة كبيرة وقذفهم بقوله : « إلى الأمام ، أيها الشباب ! بلا ضعف ولا تهاون ! وشكراً من أجل الوطن» !

لقد اعتبروه زميلاً لهم باللباس المدني ، ففتح له الجنود الطريق مبادلين إيّاه بسمته . إن هناك شعوذة للنجاح ووقاحة للسعادة يسمّيهما رؤساء الدول والاقطاعيون الآخرون الذين يعانون المصاعب « البَركة ». كنتم تملكون البَركة بكل بساطة.

ترُى ، أكان كارلوس يُبالغ قليلاً ليُعطي العبرة ويثير حميّة رفاقه ؟ كان قد اتخذ ، من تلك الثقة بطالعه ، منهجاً ، ومن الإيمان بالمعجزة تحدّياً للعاديّ . كان يقول لهذا الصديق أو ذلك الذي كان يمكن للعدوّ أن يبلغه هو شخصيّاً عَبْرَه ، كان يقول له وهو يتركه : « إعلم شيئاً : إذا سقطتَ الآن ، سأبقى حيث أنا ، ولن أغيّر أمكنة الاتصال ولا خططه . وإذا تكلّمت ، فستعرف ماذا نفعل . إنني أتحمّل مسؤولياتي فتحمّل أنت مسؤولياتك ، هل نحن متفقان » ؟ كان العاديّ أن يطلب اليهم أن يلتزموا قاعدة الأربع والعشرين ساعة من الصمت ، وهو الوقت اللازم لترك المفتاح تحت ممسحة الأرجل بالإجمال : هوذا المكان الذي أضع فيه المقود ، فعليك أن تفعل مثل ذلك . وككل شيء يرفع الرجال ويخفضهم نحو الأعلى ، كان للتحدّي ثمن . كان ثلاثون من أقرب أصدقائه إلى « اللجنة المركزية » قد أُوقفوا ، ولم يتحرّك . كان الأول في المستشفى العسكري ، مشلولاً من الرقبة حتى الكعب ، شخصاً أعمى وأحاديّ المقطع . أما الثاني فقد أُعدم رمياً

بالرصاص ، واعتبر الثالث « مختفياً » — أما هو فكان لايزال هنا .

ألاّ يغيّر العنوان طوال سبعة أشهر ، وألاّ يجدّد علاقاته ، رأساً على عقب ، بعد هذه المدة الطويلة ، إن ذلك كان يكون ، بالنسبة لأي شخص آخر ، غلطةً لاتغتفر. أما هو ، فربما لم يكن الأمر لديه إلاّ رُقيةً سحرية أخرى. إن هناك لحظات ، في حياة رجل أو في حركة سياسية أو تنظيم للمقاومة ، يكون الخيار الوحيد فيها هو القفز من فوق هاوية أو تغيير المبدأ . وآمن وسيلة لعبور « النياغارا » على حَبْلٍ صلب مشدود فوق الفراغ ، هي بعد كل حساب أن يكون المرء مربوصاً أو مجنوناً بعض الشيء . إن الناس المتّزنين ينظرون إلى حياتهم تمرّ في التلفزيون . وينظرون إلى « التاريخ » ، تاريخهم ، ينزلق هنا أمام أنوفهم ، ظلاًّ أمام الظلال .

* * *

كان كل شيء معدّاً الآن . بعد أسبوع ، الحياة الجديدة . حياة ريفية ، كما كانت تحبّها . لم تكن هي « مزرعة » أبيها البرّيّة بين الغابة والمفازة ، ولكنها لن تكون بعدُ روائح النفط والشوارع التي لابد من صعودها ، والجدران المتجاورة ، والجيران الذي لابدّ كل يوم من خداعهم بالبسمات الزائفة وبكلمات تُطلق في الهواء . كانت

« ساره » قد عثرت على المكان المثالي ، خارج المدينة ،ولكن على بُعد عشرين دقيقة من وسط البلد بالسيارة : مزرعة صغيرة ، بيعت منذ ستة أشهر ، تقع عند القمم الأولى « للكورديير »، مع منظر شديد الانبساط . لم يكن ثمة أحد على بُعد خمسمئة متر من الطريق . وكانت إيميلا قد رافقتها لزيارة المزرعة . وقد أحسّت من ذلك بالدوار . كانت شبيهة بمزرعة أبيها ، والعودة إلى الطفولة . خمسة هكتارات ، أشجار معمرة ، زريبة معدّلة ، حديقة مهجورة ،والكهرباء والمياه الجارية في الإكارة ذات القرميد المستدير .سيقومون إذن باستثمار زراعي صغير ، على سبيل الواجهة : تربية الدجاج ، مثلاً . وأضاف كارلوس ، وهو لا يمزح إلاّ نصف مزاح ، ولماذا لا يكون هناك أيضاً ترويض للكلاب البوليسية ؟ وكان المتفق أن تأتي كريستينا وأبيل فيسكنا معهما . وكذلك ماريو . كان هناك متّسع من المكان ،ولن يكونوا نافلين في إدارة المنزل . كان بلاط المطبخ مكسوراً. أما الأثاث ، فلم يكن باقياً منه إلا كرسيّ قلاّب متزعزع وسط قاعة فارغة اتخذتها إيميلا على الفور غرفة لها . ستكون ساره مالكة بالاسم ، وسيكونون هم المدراء ، المكلّفين بتشغيل المؤسسة . لأن ساره كانت مصممة على الرحيل . كانت تستشعر الخيبة ، ألاّ تستطيع الاندماج في فريقهم ، وتحسّ بالغربة في وسطها ، فكان أن اعتزمت اللحاق بأبيها

في انكلترا . وكان ذلك الرحيل عناية إلهية . إن اسماً مستعاراً يذهب إلى الخارج هو دائماً ما يُنقص من الأخطار خطراً. وإذا قصدت ساره لندن، فان الخيوط لن تتعقّد . إنها ضمانة تكتّم . وهكذا أخذ موعداً للقاء مع المالكين ليوم الثلاثاء التالي – لتسليم المفاتيح والتوصيات الأخيرة ، وهي كذلك مُهلةٌ لساره لإنجاز العقد والدفع والتوقيع . وكان الاتفاق أن تدعوها إيميلا إلى منزلها صباح الاثنين للتثبّت من أن كل شيء على ما يرام ، ومساء اليوم التالي تسافر ساره .

وإذن ، فان أمامهما أسبوعاً للعودة وتجميع الأمتعة وتنظيم الأمور . وكان كارلوس قد انصرف للتدرّب على تقنية تربية الدواجن ، وكان يلتهم كل مساء في دائرة المعارف كلّ ما كان يمتّ إلى تربية الطيور : من محاضن ، ونغذية مكثّفة ، والحرارة المطلوبة والإضاءة . وفي الصباح ، كانت إيميلا تتابع رياضتها السابقة للولادة مع إحساس غريب بقرب الحدوث والحنين . ليس لأنها كانت قلقة ، فقد كانت تنطوي على طمأنينتها الحالية . ولكنها كانت تودّ أن تبقى حاملاً دهراً طويلاً وأن ترى الولد على الفور ، وأن تشدّه بين ذراعيها ، وأن تتثبّت من أنه كان طبيعياً تماماً . أن تُمسكه وأن تطرحه ، أن تحتفظ به في داخلها وأن تقدّمه هبةً لكارلوس – في وقت واحد . كانت تنادي خلاصها وتخشاه كأنه استلابٌ لها . كانت تتهلّل فرحاً أن تُحسّ

بأنها مسكونة ، ونحزن من أنانيتها الخاصّة ، متذبذبة بين الأمس والغد ، غير عارفة أين تحطّ . كانت تنظر إلى كارلوس في صمت : « حين يصبح الولد هنا ، فانه هو لن يكون هنا بعدُ . إنه لأجمل من أن يُحتمَل إبقاؤهما كليهما تحت سقف واحد . أودّ لو أننا نبقى هكذا طوال الوقت ، وأعلم أن هذا لا يمكن أن يدوم ».

يوم الاثنين ذاك ، وهو آخر اثنين قبل أسبوع الانتقال العام ، كانت إميلا وحدها في غرفة الجلوس ، متمددة على السجادة البيضاء ، بالثوب اللّصوق . كان الوقت مبكراً. تنفّس ، تقلّص ، استرخاء . كانت ترفع ساقها وذراعها اليمنيين ، وتخفضهما ، وتشهق وتزفر . ثم الجانب الآخر . وإذ كانت مشدودة القبضة اليسرى المرفوعة فوق رأسها ، لم تكن تفكر بشيء آخر إلاّ بقبضتها ، بذراعها ، بتنفّسها المقطوع ، وإذ بوجهٍ غريقٍ — حلّ محلّ عينيه ودقتان رماديّتان — يدخل في حقل رؤيتها . وما كانت لتعرفه على الفور لو لم يظهر ماريو خلفه . كان أبيل ، السنّوري ، المخمليّ ، مفكّك المفاصل كلياً ، دمية مخبّلة بيضاء.

— ميمي ، لقد أخذوا كريستينا .

فتحت شفتيها ، فلم يخرج شيء . الستارة . كان كارلوس قد قفز إلى الممر في القاعة . فأخذ الرجلَ المُسيّر من كتفيه وأداره اليه .

– متى ؟

– هذه اللحظّة .

– وأين ذلك ؟

– عندنا ، في البيت .

– وكيف فعلت أنت ؟

تمتم أبيل : – لم أكن موجوداً . ووصلت بعد ذلك بدقيقتين . كان باب الشارع مفتوحاً ، وكان في الداخل رجال . كانت كريستينا تتخبّط .

– ولم تسحبها من هناك ؟

– لا .

– أكنتَ مسلحاً ؟

– نعم .

– ومن أين كنت قادماً ؟

– سأشرح لك ، يا كارلوس ، سأشرح لك .

– هيّا بنا . سنذهب إلى هناك . ربما لم يكن الأوان قد فات . سآخذ بندقيتك الحربية ، ياإيميلا . ليس هناك من وقت .

وقفز إلى المكتب ، فتناول « العقرب » التشيكي ، مع مُشْطين ، وحرّك الأخمص الذي يحوّل المسدس إلى رشيش . وارتدى فوقه سترته . وكان ماريو قد دفع أبيل إلى الرصيف . السيارة واقفة أمام الباب .

حين وصلوا ، كان الأوان قد فات . كانت الحواجز قد أقيمت ، وحوصرت البيوت . ولم يستطيعوا الاقتراب ، حتى سيراً على الأقدام . لابدّ أن كريستينا قد دافعت عن نفسها ، وربما أَطلقت النار .ولكن ماذا يجدي ذلك ، وهي وحدها ؟ وكان الآخرون قد طلبوا إمدادات . ولم تكن أمام الباب سيارة إسعاف . ولم يلمحوا في البعيد ، بين رؤوس رجال الشرطة الواقفين وسط الشارع شريطاً ، إلا سيارتين سوداوين كانتا تبتعدان وعجلاتهما تصرّ .

حين عادوا ثلاثتهم ، ليفكروا بما حدث في هدوء ، بصق أبيل الوقائع عارية ، بصوت خافت ، وبرشقات صماء . نعم ، كانت له علاقة خارج المنزل . وكان قد أعلم كريستينا بذلك ، ولكنها لم تُرد الانفصال عنه ، وهو أيضاً ، في نهاية المطاف . وكان أن بقيا معاً . حتى لا يحدث له مزيد من الهمّ . وتلك الليلة ، لم يكن قد عاد إلى المنزل . كان قد فاجأه منع التجوّل ، فبقي عند الفتاة الأخرى . وهي المرة الأولى التي تحدث له .

ــ عند من ؟

ــ عند « ساره ».

ــ ماذا ؟ هي ؟ كان بامكانك أن تقول ذلك من قبل !

كيف « كانا » قد وصلا إلى كريستينا ، فتلك حكاية

أخرى ، ستُبحث فيما بعد . ولكن إلى أين « كانا » يمكن أن يصلا ، انطلاقاً منها : هوذا ما كان أشدّ إلحاحاً واستعجالاً . إذن : المعرفة الدقيقة لكل ما كانت تعرفه .

– هل كانت كريستينا تعرف ساره؟

– بالاسم فقط .

– ولكن هذا ، أيها الأبله ، اسمها الحقيقي . ليس لها اسم آخر .

كان كارلوس وماريو قد عادا يستجوبان أبيل بأقصى سرعة ليحيطا بدارة الارتباطات الأخرى .

– ألم تكن تملك عنوانها ، على الأقل ؟

– لا ، وما يجديها ذلك ؟

قالت إيميلا : – أية أهمية ، لم يكن عليها إلا أن تفتح دفتر التلفونات !

أيا ما كان ، فهي لم تكن تعرف بيتهما ، ولا ذلك الذي سينقلان اليه ، وكان أبيل ضامناً ذلك .

كانت إيميلا قد كفّت عن الإصغاء . كانت تفكر بصديقتها ، أختها المتواطئة . باللقاءات الأخيرة التي تمت بينهما في الشارع . بألوان صمتها ، بعباراتها غير المنسجمة ، المقطوعة في منتصفها . وكانت كريستينا قد حدّثتها بكلمات مستورة عن مذكرات كانت تسجّلها ، وعن قصائد كانت

قد أخذت في كتابتها ، وعن رسائل لا تنتهي كانت تحرّرها في أثناء النهار موجّهة إلى أبيل ، لتسلمه إياها في المساء عندما يعود . لم يكن هو يُلقي عليها إلاّ نظرة منزعجة ، من غير أن يردّ قطّ . ولم تكن إميلا قد أعارت ذلك انتباها ، لاسيما وأن كتابة مذكرات حميمة ، كانت أقرب إلى دلالة سيئة. وفكرت في كل ما عساه يسقط في الأيام التالية . الشقّة أولاً . ثم وصفها البيانيّ هي بالذات. علامة السيارة ، كونها حاملاً . كانت تفكّر في صَمَمِها ، في الطريقة التي انغلقت بها على جلدها حتى لم تكن ترى شيئاً من ضيق صديقتها ، ولم تقدّم لها يد المعونة . في ذلك الطائش أبيل ، وتلك الحمقاء ساره. في لا جدوى مواعظ كارلوس التي كان قد أصدرها لزجر الجميع ، لزجر أبيل وسواه . « ليس في الصومعة على الإطلاق ! » إن من أراد البقاء في هذه الصومعة ، عليه أن يفصل الجدّ عن كل ما سواه ، وألاّ يفقد الإيقاع ، وألا يرتكب الحماقات . ليس في الحب من وسط : فهو كل شيء أو لا شيء . أما الطيش والجهالة والأهواء العابرة، فتكون خارج الجدار ، ووداعاً أيها القطّ الصغير ! أما داخل الديْر ، فحين ينزع المرء ثيابه ، فمن أجل المشاركة ، وكل شيء مُشْترك . حتى إذا بلغ العقد منتهاه ، فكل فرد وشأنه بكل ما يملك ، وليقفز إلى أي مكان آخر ، بقدمين مضمومتين. أما في الأثناء ، فليس من ثنائيات . وكانا هما بالذات قد

قدّما الدرس : زوجان حقيقيان شفّافان ، صاحبان يتقاسمان كل شيء ، الخبز والأحلام . وكانت كريستينا وأبيل يبدوان كذلك شفّافين ، مثلهما تماماً . كان كارلوس ينكّد عليهما : « أنتما ونحن ، لقد أصبحنا أشخاصاً جدّيين ، وعلى الناس أن يمنحونا وسام العشّاق الفاضلين ، بانتظار العيد الفضيّ».

المصيبة هي أن الناس الجدّيين هم جدّيّون في كل شيء. وحين يحبّ المرء جدّياً ، يحبّ بافراط ، حتى الجنون ، حتى حدود القتل . وفيما كان الرجال يتحدّثون ، والأقلام في أيديهم ، كانت إيميلا تتابع أفكارها حول جدّيّة الحبّ ، وقد انتهت إلى هذه الحقيقة الفجّة : كانت كريستينا جدّيّة ، ولم يكن أبيل كذلك . وكان ، في هذه الفجوة ، مكان لكل شيء ، وحتّى للقتل .

قال أبيل : — يجب أن أذهب فأخبر ساره.

قال كارلوس : — أمنعك أن تذهب لرؤيتها . هذا أمر . لتُنْهِ بسلامٍ ما كانت قد بدأته . وسنرى بعد ذلك.

كان يغشّ وهو يعلم أنه لم يكن هناك من بعْد . ولكنه حزر وهو يرى وجه أبيل أن ساره لم تكن قد حدّثته عن رحيلها الوشيك .

قال أبيل ملحّاً : — أنت تنسى أني أنا الذي ينبغي أن أسلّمها المال لشراء المزرعة . كنا على اتفاق أن نلتقي غداً

في كنيسة كالاكوتو . أنت تعرف المدخل الصغير الجانبي الذي يفضي إلى الموهف ..

ـ مكان طريف لفعل الحبّ . أم لعلكما تريدان إعلان الزواج ؟

قالت إيميلا : ـ هدىء أعصابك، يا كارلوس سأذهب أنا ، وحدي .

في اليوم التالي ، بدت صديقتها خائبة بعض الشيء أن تقع عليها . كانت ساره رائعة ، معطّرة ، مبُرنقة الأظافر ، صابغة الشفتين بالأحمر ، رنّانة بالأساور والقواقع ،متموجة بثوب أزرق مطبّع أكثر شفافية منها . وقد أعطتها المبلغ أوراقاً من فئة الدولارات العشرة ، وكان المبلغ أكبر من المطلوب ، بما فيه عمولات الوكالة وكاتب العدل . وكان لا بدّ لها من أن تذهب فتبدّل المال في المصرف . لا ، لم يستطع أبيل أن يأتي . حادث عائليّ صغير ، زوجته اعتقلت ، وهي حامل كذلك .

قالت ساره : ـ عجباً ! كان ينتظر ولداً ؟ لم أكن أعرف ذلك .

ـ وأنا لم أكن أعرف كذلك أنك كنت تنتظرينه ، بمثل هذا القدر من نفاد الصبر ! كان بامكانك أن تقولي لي ذلك.

ـ أوه ، تعرفين يا عزيزتي ، لم يكن لهذا أهمية كبيرة.

كانت من فرط ضجرها من هذا البلد ، أنه هو أو سواه ، كما تعلمين ... وعانقتها إميلا وهي تطلب منها أن تسرع في الاجراءات . وإذ كانت عائدة بسيارة نقل كبيرة، فكّرت بلا مرارة . بل ببعض الحسد ، بما كان يتميّز به ذلك الوسط من طيش مُعْندٍ لا يُصلح . كانت هي نفسها قابلة لتتصرف مثل هذا التصرّف من قبل . قبل كارلوس . كان الأمر ، بالنسبة اليها كذلك « هو أو سواه ، كما تعلمين.» إنه حقاً لأمر هيّن .

في اليوم التالي ، في دوائر الشرطة ، عُصبت عينا كريستينا ، ولكنها لم تُطلق إلاّ صرخة واحدة . صرخة حقد ، كما يفعل المسعورون الذين يحملون الحب على محمل الجدّ . وقد أعطت اسم ساره ، تلك المرأة التي لم تَرَها أبداً والتي كانت تحتقرها بكل جسمها . كانت قوية . ولكنها كانت تحمل في ذاتها تلك الحلقة الضعيفة ، الانتقام . حسابٌ محض شخصيّ بينها وبين أبيل . ولا شأن لهـذا بالتنظيم . ذلك أنها كانت تجهل أن ساره كانت تعمل للتنظيم ، وأنها كانت مكلّفة بأمر منزل الأمين العام وصديقته الحميمة . كما كانت تجهل أن منافستها كانت ، على أي حال ، بسبيل الرحيل . ولكن حين تُعتقل ساره أو تُنفى ، فان أبيل سيكفّ عن رؤيتها : وكان ذلك يكفيها . ولم يستطيعوا أن ينتزعوا منها أيّ شيء آخر .

ولكنهم لم يمتنعوا عن التجربة . وبعد نهارين وليلتين ، عُثر على جثتها في حديقة . عند جدار سورٍ للسفارة الايطالية. كانت مغطاة بالكدمات . لا سيما عند البطن ، وكانت المساري الكهربائية قد تركت آثاراً في صدغيها وكعبيها . وكان اصبع في يدها اليسرى قد فقد ظفره . وكانت الأعضاء التناسلية قد مُزّقت بعصا . على ما يبدو ، أو قضيب حديدي. وكان تابعو العقيد « انايا » رئيس دائرة الأمن العام ، قد تكلّفوا ، بأمرٍ من هذا الأخير ، وبالرغم من تعب ليلة طويلة من العمل ، أن يحملوا الجثة فيقذفوها من فوق سور السفارة ، بعد أن تسلقوا ظهر سيّارتهم . وكشفت صحافة المساء الفضيحة في صفحتها الأولى : ضحيّة أخرى من ضحايا التهتّك والمشاجرات وحفلات الكوكايين التي كان يستسلم لها اللاجئون « الماركسيون » في مساكن دبلوماسية فخمة ...

ما كان ينبغي أن يعملوا بأبيل ؟ ذلك المساء ، ناقش إيميلا وكارلوس وماريو وتوماس المسألة طويلاً . وكان ماريو قد احتجزه عنده . كان راكعاً ، مسحوقاً بالندم ، وكان يقرأ الجريدة للمرة المئة . وكان رجال الشرطة قد جاءوا مرتين لتفتيش عاديّ ، وليس لمواجهة . لو أنه كان إلى جانب كريستينا ، لما ثارت أعصابها ، ولاستطاعا عند الحاجة أن يلوذا بالفرار مستعينين بسلاحهما . واقترحت إيميلا ،

وأيّدها في ذلك ماريو ، أن يُسحب كاياً من السير وأن تُقطع به كل صلة .

قال كارلوس : ــ إذا بقي وحيداً لأصبح غير قابل للمراقبة . أما معنا ، فسيكون قابلاً للإنقاذ . حظّ على اثنين على كل حال .

قالت إيميلا : ــ الحظ الثاني يكمن في أن نضيع كلّنا.

ــ نعم ، ولكن هذا سبب إضافيّ يدعونا للتحدث معه. إذا كانت هناك فرصة ، فهي تستحق أن نستغلّها .

وانتهت وجهة نظره بالغلبة . وذهب ماريو ليصطحب أبيل ، واختلى به كارلوس في مكتبه . وقد أصغى اليه ، من غير أن يفتح فمه ، وهو يهزّ رأسه ، جامداً . وتلك الليلة ، نام الجميع في البيت .

صباح السبت ، رافق ماريو من جديد أبيل إلى بيته . وقد مضى من غير أن يجرؤ على النظر إلى إيميلا في عينيها ، ولم تردّ هي على عبارته « إلى اللقاء » . وقد عاتبها كارلوس على برودتها ، وقال لها :

ــ إنه شخص مسكين محطّم ، فاقد الاتجاه تماماً . ينبغي لنا أن نساعده . وأياً ما كان ، فيجب أن تتعوّدي عليه ، لأننا لا نستطيع أن نلقي به كجورب قذر . سنتخذ إجراءات ، ولكن فيما بعد .

دائماً فيما بعد . وفي المساء قال أبيل لماريو أنه لا يستطيع الاحتمال بعد . وأنه بحاجة لأن يخرج ، وأن يغيّر أفكاره.

– إنني ذاهب إلى السينما ، فلا تقلق . ومعي المفتاح .

وصفق الباب . ثم توجّه إلى ساره . وكان مُنتَظَراً هناك . وقد نجح في إصابة شرطيّ بجراح ، ولكن قُبض عليه عند الدرج وجُرّد من سلاحه . من غير أن يبدي مقاومة كبيرة .

ولم ينتظر ماريو عودته . فقد ذهب هو أيضاً يغيّر أفكاره عند أقربائه له ، في الريف ، حتى يوم الاثنين .

يوم الأحد ، أخذت إيميلا حمّاماً شمسياً في الحديقة الصغيرة . وكان النهار عند الظهر لطيفاً ، لا بارداً ولا حارّاً. وبينما كان كارلوس ينظّف المختبر ويُعدّ الحقائب ، ودّعت جميع الأشجار ، واحدة واحدة ، وشكرت كذلك نبتة السلبوت وزهرة المنتور والدوديّة الأرجوانية التي كانت تنمو بحياء على الجدار ... لم تكن تُحسّ ضيق الرحيل ، وإنما انحرافاً أكثر صميميّة كانت فيه يقينيّاتها تهتزّ .

تلك الليلة ، تبادلا الحبّ طويلاً . وهي التي أخذت المبادرة إلى ذلك . كانت تريد أن تطمئنّ بالتشبّث بأكثر الأحاسيس بدائية . عبثاً . فقد أعطتها اللّذة ، على نحو غريب ، أن تلمس حزن السعادة . كانت لذّة قصوى . إنه لم يسبق لها

قط أن مضت إلى هذا الحدّ في ما كانت كتب التربية الزوجية تسمّيه «البهجة السويّة للحواسّ» ولمحت في الظلام سريرتها من الرماد . عرفت شهوة الانطلاق والتحليق كالطير في ذلك اللامكان الحريريّ الأشقر الذي تقذفك فيه اللذّة قبل أن تسحقك أرضاً . عرفت شهوة تجميد الوقت لوقت ما ، وأن تقبض من وسط الجسم على جسم الزمن نفسه قبل أن يتلاشى بمجرد لمسه. عرفت النشوة وخداع النشوة . وبالإختصار عرفت تلك الليلة زيف خلود العناق ، ولم تتعرّف فيه حاضرها. وفكرت فحسب أنها لم تكن واثقة وثوقاً كافياً بنفسها وبقدرتها على أن تكون سعيدة ، وقد أعطاها ذلك الإحساس بأنها تمرّ إلى جانب الحياة رغبةً في البكاء . وكانت تعتقد أن ذلك بخطأ منها . وقد نامت مبتلّة العينين بلصق كارلوس ، ليستطيع أن يُحسّ ببطنها وبذلك التمايل الذي كان ينعشه.

في الساعة العاشرة صباحاً تلفنتْ لساره ، كما كان متّفقاً ، لتحصل على الأنباء الأخيرة ولتؤكد موعد لقاء اليوم التالي ، في المزرعة .

قالت لها ساره بصوت أبيض : — تعاليْ على الفور ، إن هناك مشكلة .

— أية مشكلة ... تعرفين ، واحدٌ ناقص ، أو واحد زائد ...

— لقد حضر مشتريان جديدان ، فرفعت المالكة الثمن.

ــ كم تريد ؟

ــ ألفيْ دولار إضافية . وعلى الفور . وإلا باعت الآخريْن .

ــ ليست هذه نهاية العالم !

ــ إنها مشكلة جدّيّة ، أؤكّد لك . ويجب أن نتصرف بسرعة .

أجابت إيميلا : ــ حسناً . لا تتحركي . سأجلب المال وأصل اليك .

« كفى ! دائماً في اللحظة الأخيرة . لقد بدت ساره هي أيضاً منزعجة . كانت تتنفّس بين كل كلمة وأخرى ، كما لو أنه يشقّ عليها أن تروي لي هذا كلّه . بالطبع . عشية سفرها تماماً . لابدّ أن هذا يُفسد عليها أمر إعداد أمتعتها وحقائبها » .

انتفض كارلوس سريعاً : ــ ماذا ؟ هذه المزرعة تظل ستة أشهر من غير أن تباع ، وفجأة مشتريان في ثلاثة أيام ؟ .. عجباً ! اتّصلي ثانيةً بساره ، واطلبي منها إيضاحات . لن لن نلقي الفي دولار من النافذة استجابة لنزوة في اللحظة الأخيرة . هيّا ، ياميمي ، جهد آخر ونبلغ الهدف .

ــ وماذا تقول لو أني أذهب إلى بيتها مباشرة ومعي المال ؟ سأناقش الأمر في مكانه ، وسنكسب الوقت .

تردّد كارلوس ، ثم قال :

ـ لا ، لا تذهبي اليها . إن هناك شيئاً آخر ...

اختارت إيميلا تلفوناً عمومياً آخر ، على بعد أكثر من خمسمئة متر من التلفون السابق . غرائب . لهجة ساره التي سمعتها الساعة . هي الشديدة المرح ، عادةً . أن ترحل إلى أيّ مكان ، ولكن أن ترحل فوراً من هنا .

رُفعت السمّاعة عند أوّل رنّة ، ولكن تبعها صمت ، بضع لحظات قبل أن تجيب ساره .

ـ ساره ؟ هذه أنا .

ـ نعم . ألا تأتين ؟

أحسّت برجفة في صوتها ، رجفة أشدّ تثلّجاً من أن تسيل من ينبوع . كأنها غصّة مخنوقة .

ـ لا .

ـ خيراً تفعلين ، على ما أعتقد .

وكان الصوت يتراخى ، مبتعداً ، كأنه مُنهَك .

ـ بل أنا أزداد يقيناً وتثبّتاً من ذلك ، تفهمين ...

كانت إيميلا تفكر الآن بأقصى سرعتها . وقد اندفعت تقول بغتةً :

ـ أنت أسيرة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

مجرّد تنفّس . بل هو فواق. ثم خربش صوتٌ في الجهاز .

ـ وداعاً ياساره . تصرّفي كامرأة .

وسرعان ما أعادت السمّاعة ، حتى لا تُسمع بعدُ .

كان رأسها يدور بها . المشهد أمام عينيها : المسدّسات مصوّبة إلى البطن ، غضبهم ، ضربات الأخامص ، الصرخة في أذنيها ما تزال ، طويلة لا تنتهي . وخرجت من غرفة التلفون متشبّثة بالباب الزجاجي . واقترب رجل عجوز ، فسألها بلهجة ساخرة إذا كانت في وضع طيّب . كان باسماً ، أبوياً ، يلبس قبعة ، ذا شارب أبيض .

ـ نعم ، كل شيء على ما يرام .

ـ ألست محتاجة إلى مساعدة ؟

ـ بلى ... أقصد ، لا ، شكراً . لست بحاجة لشيء .

وأرادت أن تعدو ، ولكن ساقيها لم تستجيبا . وفكرت بالولد ، وبكارلوس . أين عساهما يستطيعان أن يذهبا بعد الآن ؟ وفكرت بساره التي كانت تودّ لو تكون في هذه اللحظة إلى جانبها . وفكرت بشفرة آلة الحلاقة التي كانت تحتفظ بها ، على خاصرتها ، مخفيّة تحت مطّاط سروالها . كان المارّة على الرصيف ، تحت إشعاع سماء بلا ظلال ، يدخّنون كأنهم السراب في الهواء الجاف. وترنحت في مكانها ، وزفرت زفرة طويلة ، وأخذت تنطنط ما وسعها ذلك .

ولم تلتفت إلى الخلف مرّة واحدة ، ودلفت تواً إلى بيتها ، ثابتة العينين ، من غير أن ترى شيئاً .

حين اقتحمت ، منقطعة الأنفاس ، غرفة الجلوس وجدتهم ثلاثتهم — كارلوس ، وماريو ، وتوماس — وقد ارتدوا صدراتهم المتّسعة لكل شيء ، ذات الجيوب العريضة المصنوعة أكياساً من قماش كانوا قد دسّوا فيها أربعة ملقمات يحتوي كل ملقم منها على أربعين رصاصة ، وسجائر وقدّاحة ومالاً وأوراقاً ومسدساً . كانت الحقائب في الممرّ ، ومعها المزاليج المزيّفة .

قالت : — لقد أوقفتْ ساره . كان ذلك فخاً .

— ليس هذا بمدهش .

قالها كارلوس من غير أن يلتفت . وهو يرقب الشارع عبر النافذة .

قال ماريو ، وهو لا يخاطب شخصاً معيناً ، مراقباً هو أيضاً الشارع ، ولكن باتجاه معاكس :

— وقد اختفى أبيل .

قال كارلوس وهو يزرّر صُدرته :

— هيّا بنا . يجب أن ننتقل ! إحمل ياتوماس الحقائب في السيارة وسِرْ بها . إننا نتّجه إلى بيتك ، وسنرى بعد ذلك ما نفعل .

وعاد إلى موضعه خلف النافذة ، مواربةً .

سألت إيميلا : — ما الذي يحدث ؟

— سيّارات غريبة لا تكفّ عن الطواف في هذه النواحي منذ الصباح . أنظري إلى هذه السيارة !

كانت قد تجمّدت ، على بُعد خمسين متراً ، عند الزاوية اليسرى من الشارع . سيّارة « بيجو » سوداء ذات هوائيّ للموجات القصيرة منصوب على ظهرها . وهبط منها في وقت واحد أربعة أشخاص ، ظل إثنان منهم واقفين مستندين إلى غطاء المحرّك ، ينظران فيما حولهما . أما الآخران فقد تقدّما ببطء نحو البيت . كان الشارع مقفراً .

قال كارلوس بصوت هادىء :

— هذه المرة ، هي لنا ، نادِ توماس ، ياماريو ، وفكّ الأسلحة . أدخل إلى المكتب . سأبقى أنا هنا . أما أنت يا ميمي ، فادخلي الغرفة واستعدّي للذهاب . إنها مسألة دقائق !

كانت إيميلا مستقيمة كتمثال .

وحدث كل شيء بسرعة كبيرة . حلمٌ مصدوم ، غير منسجم . ذلك الحلم الرديء الذي يُسمّي العالم كما هو . مخطّطاً بالبروق ، بيقظات منتفضة ، بصور ثابتة . ليس ثمة من أفكار بعد ، ولا عواطف . حتى ولا قرارات . ولم

تكن إيميلا ، بعد وقت طويل ، حتى يقظتها ، إلا ارتكاسات.
كان لا بدّ لها ، طوال أيام وأيام ، أن تسبح في وجه الموت،
بين الظلام والنور ، لتعود من هذا الجانب من المرآة .
ولكن صِنْوها هو الذي كان يتخبّط . وحين عامت هي
على السطح ، أخذها الإحساس أن كلّ شيء كان قد بدأ
وانتهى في لحظة ، في الانبهار الجافّ لزجاجٍ يتحطّم .
لقنبلة تنفجر . لحلمٍ يفرقع .

كان هناك أولاً صوت تحطّم الزجاج ، وتطاير الشظايا
على البلاط ، ودفقة الوابل من الرشقات الأولى .

صاح بها كارلوس : — اضطجعي أرضاً . لا ، ليس
هنا ... بل في الزواية ... في عمق الغرفة .

زحفت بمحاذاة الجدار ، وتقوقعت عند الديوان . كان
صدغاها يخفقان ، وقلبها يضرب . القشعريرة في جسمها من
التيار الهوائي ، وبخار الأنفاس في الغرفة . مستطيل النافذة
المقطوع بموسى الحلاقة في زرقة السماء الباردة .

كان توماس وماريو في المكتب المجاور ، يطلقون
الشتائم ، وكانت الطلقات ترنّ مجدّداً ، وعواء الكلب في
الحديقة . وخرير المحرّك في المرأب . رشقات كارلوس
القصيرة ، المواربة ، ورشقات الآخرين الطويلة التي كانت
تصعد متلاحقة من النافذة إلى السقف . والشمس مائلة على

الواجهة الورديّة ، قبالتهم . وفكّرت « عجباً ، هوذا الظلّ من أجلنا » .

ـ ناوليني « العقرب » يا ميمي ... فيما أنا ألقم المسدّس ثانية .

انتقلت برودة الفولاذ إلى أصابعها . كانت ترشح . أغلقت لسان الأمان ، وقذفت بالسلاح زحفاً على الأرض ، نحو الزاوية الأخرى . لم تكن الدفعة قوية بما فيه الكفاية ، فاستقرّ السلاح في شعر السجّادة ، في غير متناول كارلوس.

ـ لا تتحركي ... إبقيْ حيث أنت .. سأزحف اليه...

انحنى ، فنهضت . كانت واقفة حين مزّق الانفجار طبلة أذنها .

كان كارلوس منقلباً ، مبهوراً ، وخيط من دم يسيل على خدّه . أطلق أنّةً ، وترنّح رأسه ، وسلاحه على صدره . اللطخة الغامقة على السجادة . وانحنت عليه ، كأنها منوّمة تنويماً مغنطيسياً .

وجها ماريو وتوماس الراشحان عرقاً في إطار الباب الذي يطل على الممرّ .

توماس : ــ نذهب. تعال . جدار الحديقة . من الخلف.

ماريو : ــ حذارِ . أنتِ مصابة .

هي : ــ أنا ؟ أين ؟ .

أومأ ماريو بذقنه : الكتف .

تبعت نظره . كان في أعلى ذراعها اليمنى سائلٌ دبق وأحمر . صرفت نظرها ، مشمئزة . « لا يمكن أن يكون هذا أنا . إنه أقذر مما ينبغي . أنا لا أشعر بشيء ».

السواد .

وبعد ذلك ، كم من الوقت بعد ذلك ؟ كارلوس راكعٌ أمامها ، آخذٌ رأسها بين ذراعيه . لقد استردّ وعيه ، ولم يعد ينزف . رأت شفتيه ترتعشان. إنه يحدّثها ، وهي لاتسمع . ويُريحها بلطفٍ على السجّادة . ويعود إلى النافذة ، منطوياً على نفسه . في الزاوية الأخرى الآن . أخمص الرشيش على كتفه . طلقة بطلقة . وتُحدث الطلقات صوتاً جافّاً في الجصّ . وبين الفرقعات ، كان خرير المحرّك يُسمع في المرأب . لهاث كارلوس . صمت الكلب . في المكتب ، ليس من صوت بعد . وفكّرت : « لم يبق في البيت أحد ».

السواد من جديد .

وبعد ذلك . كم من الوقت بعد ذلك ؟ كارلوس جاثٍ إلى جانبها ، يهدهدها ، يقبّلها ، يحدّثها بصوت خافت . والكلمات تأتي من البعيد البعيد ، كأنها غناء مصفّى .

ـــ سيأتي الرفيقان . لا تخافي . سيعودان .

بذراعه اليسرى ، مدّدها على السجادة التي أصبح لونها

الآن أكدر . كانت في يده اليمنى بندقية بأخمص خشبيّ ، والانبوب مُحرق . وكانت هي ترتجف . وكانت ذراعها متدلية ، باردة ، جامدة . كأنها متصلّبة المفاصل . لم يكن ثمة بعدُ من ذُعر : بل رغبة في سدّ الأذنين ، وفي الاستسلام للنوم .

وتتمتم : — إذهب ... جدار الحديقة ... إذهب .

بعد ذلك ، كارلوس مواربأ ، ملتصقاً بالفُرجة بين النافذة والجدار . جانبيّته القديمة المعقوفة ، من غير النظارات المزيّفة . وخصلة الشعر على عينيه ، كالسابق . كان ينظر اليها وهو يبتسم :

— لا تتحرّكي ... سيعودان ... وسنخرج جميعاً من هنا .. سترين ... جميعاً ...

استؤنف الإطلاق في الخارج ، من عدة زوايا ، في وقت واحد ، عنيفاً مُصمتاً . ثم انفجار آخر ، خلف النافذة تماماً .

قالت : — كارلوس ، أعتقد أني أفقد المياه .

واصطفق باب . كانت هناك صفارات ، وأصوات ، وتدافع . وساد الهدوء فجأة .

فكرت : « عجباً ! الصمت . انتهى الأمر . سأموت في السكون » .

* * *

حين استعادت وعيها ، كانت مضغطة تشدّ ذراعها
كانوا يحقنونها. بعد كمْ من الوقت ؟... إنه السكون نفسه،
على كل حال ، غرفة صغيرة ذات جدران بيض وأغطية
خشنة مبلّلة تحتها . وكانت إلى جانبها طبيبة بقميص أبيض،
وجديلة شعرها ملتفّة إلى خلف ، وعيناها صافيتان ، ووجه
ماريو شديد الامتقاع عبر الضباب . تمتمت :

ــ أسيرة ؟

قال ماريو وهو ينحني عليها : ــ لا . لقد استعدناك
بسيارة الاسعاف . هنا دير ، وأنتِ في منجى .

ــ سيارة الإسعاف ؟

ــ سنشرح لك . لا تتعبي نفسك .

ــ كارلوس ؟ أين هو ؟

ــ لقد ذهب معنا .

ــ هذا غير صحيح .

ــ لا . هذا غير صحيح . لقد مات .

ــ والولد ؟

أجابت الطبيبة بلهجة غريبة ، انكليزية بغموض :

ــ ليست المسألة مسألة الولد بعدُ ، القضية قضيتك .

ــ كانت بنتاً ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، كانت بنتاً .

لم تسأل أكثر من ذلك : فقد كانت تعرف . أدارت رأسها ، وعادت تستغرق في اللاوعي . لم تكن تملك بعدُ القوة للقيام بشيء آخر .

كانت قد أجريت لها ، قبل ذلك بساعات ، عملية قيصريّة بالتخدير . كانت هي المرة الأولى التي يولد فيها ، في هذا الدير التابع للراهبات ، ولد ميت .

طوال يومين ، ظلّت تترنّح في نعاس رقيق ، من غير مخرج . ثم هزّتها الطبيبة بقوة وسمعت :

ـ إن ذراعك في حالةٍ سيئة جداً . لقد عملت فيها الغنغرينا . ستؤخذين إلى المستشفى .

ـ لا . المستشفى هو الشرطة . لن أستسلم .

ـ لا يمكن إجراء عملية بَتْر في أي مكان. من المستحيل أن تبقيْ هنا .

ـ افعلوا ما تشاءون . أما المستشفى فلا . لن أستسلم .

في المساء نفسه ، طلب أبٌ منذور للخدمة وراهبتان أن يلتقوا بالقاصد الرسوليّ . فأعلن هـذا الأخير أنه لا يستطيع التدخّل شخصياً في هذه المسألة . ولكنه استدعى على الفور سفير إيطاليا ، عميد السلك الدبلوماسي . وفي الليل ، وصلت إيميلا على حمالة تواكبها راهبتان في سيارة الإسعاف إلى

مقرّ السفير . وكان هذا ينتظر عند الباب .

وهكذا استطاعوا تضليل تيقّظ القنّاصة البارعين الذين كانوا متمركزين على الساحات المجاورة ، يمنعون اللاجئين المحتملين من دخول السفارات .

صباح اليوم التالي ، عمد جرّاح فرنسي شاب ، كان يزور البلاد لحساب جمعية « الأطباء بلا حدود » ، إلى ارتجال طاولة للعمليات بين المطابخ ، وكانت العملية طويلة . كان يساعد الجرّاح طبيبان محلّيان كان ماريو قد دلّه عليهما ، وكانا قد تسلّلا في الصباح نفسه إلى مقر السفير مع عُدّة للتخدير ، فنجحوا في زرع شريان بقطع قطعةٍ من عرق الحالب. كان عصبان من اليد ، من أصل ثلاثة، قد قطعت ، ولكن لم يكن وارداً معالجتهما آنذاك : كانت المسألة تجنّب البتر . أما الجروح الأخرى – في البطن والثديين والضلوع – فكانت سطحيّة ، ولكنها تنذر بالالتهاب . وقد انتزع آخر شظايا القنبلة وأغلق بغرزاتٍ من اللأم .

في الأيام التالية ، استردّت إيميلا كل صحوها وحرارة ذراعها ، وكان بامكانها أن تحرّكها قليلاً . ولكن يدها كانت تذبل كورقة خريفيّة ، وكانت أصابعها المتخدّرة تصطبغ بلون محمّر . وتدرّبت على الكتابة باليد اليسرى ، فنجحت في تسطير الأحرف الكبيرة . وفي البيت الكبير

المبلّط بالمرمر التي كانت الخطى تُصدي فيه ، كانت تجهد لتحتلّ أصغر مكان ممكن ، وأن تكون نافعة في المطبخ أو غرفة الخدمة ، ولكنها لم تنجح في ذلك . كانت ، إذ تستعمل يداً واحدة ، تكسر من الأقداح كل ما كانت تغسله . ولم تكن تكف عن الاعتذار لدى السفير عن كل ما سبّبته له من ازعاج ، على كُره منها . ولكن السفير كان على غاية الملاطفة والودّ ، وكان أولاده غالباً مايقصدون غرفتها ، تحت تخشيبة السقف ، ليلعبوا معها ويطلبوا منها أن تروي لهم قصص أندرسون .

وكانت إيميلا تتوجّه كل يوم إلى الحديقة التي كان قد عُثر فيها على جثّة كريستينا . لم يكن سقوطها قد خلّف أيّ أثر في العشب النظيف الخشن . وكانت جُنيبة البَقْس تحتفظ بكل غصونها .

وكتبت لأبيها تقول له إنها كانت في حالة جيّدة ، من غير أن تطلب منه شيئاً . وقد سافر من مزرعته إلى العاصمة ، وامتنع عن زيارتها في السفارة ، ولكنه تدخّل لدى أصدقائه ذوي المركز المرموق في الجالية الالمانية ، والذين كان بعضهم يشغل مناصب هامّة في وزارة الداخلية وحتى في دوائر الأركان العامة .

ذات مساء من ذلك الشهر ، عند بدء منع التجوّل ، في قلب المدينة ، اقتحم رجلٌ وحيد بسيارته دورية عسكرية.

انحرفت السيارة فهبط منها المجهول في الشارع ، وهو يحمل مسدّساً رشاشاً أطلق منه ، كيفما اتفق ، بضع رصاصات ، وسرعان ما تعطّل المسدّس . وصُرع الرجل في مكانه . وتعرّفت إيميلا ، في الصحيفة ، على وجه ماريو .

بعد ردحٍ من الزمن ، كانت تتلقّى جواز مرور ، وتهبط في مكسيكو .

# الفَصلُ الرّابع

أودّ أن أبكي قف لا وقت لذلك قف
بحاجة إليك للعمل قف نصرٌ ما يتمّ غداً
قبيحتك جبانتك بليدتك

**هاريت هوبارد آيير**

ليس من عنوان ، ولا أي اسم آخر .
لم تكن الصحف تقول شيئاً . ظللت على
حيرة بعد ثلاثة أيام :
صحّة ممتازة قف كنا على حقّ مطلق
قف نتيجة نهائية غير مختلفة قف سأرسل
صديقاً بعد ثمانية أيام . قف . حبي .

**هيلينا روبنشتاين**

حين يأتي دور اليزابيت أردين ، فربما أعطتني عنواناً
ورقم تلفون . كانت البرقيتان صادرتين عن مكسيكو التي
لا تعدّ أكثر من اثني عشر مليون نسمة ، هذا صحيح ،

ولكن المنفيّين فيها هم عدة آلاف . مما لا شك فيه أنه يمكن في هذه الحزمة من العشب العثور على ميمي ، بفضل المتابعة والرفاقية . وقد كان بامكاني أن أدقّق في لائحة معاهد التجميل ، هناك ، ولكني لم أكن أتصور محاربتي تحت جهاز تجفيف الشعر أو تحت قناع الأصباغ والدهون ... وأوثر أن أنتظر المطلق الصلاحية المعلن عنه .

ولكنه لم يأت . وبعد بضعة عشر يوماً ، كان منتصف الليل قد انقضى حين أيقظني رنين الاتصالات الدولية .

ـ أنت المستر بانشو ؟

ـ نعم ، أنا هو .

ـ دقيقة من فضلك ، لك مخابرة .

ـ أنت لا تنام ، يا بوريس ؟ وأنا أيضاً ...

ـ أختي الصغيرة ! إن صوتك لم يتغيّر ...

ـ ولكن الباقي تغيّر ، مع الأسف ... أنت في السرير وحدك ؟ .

ـ وأنت ؟

ـ ما أبلدك ! أنا لست مثقفة متحرّرة ! بل أنا برجوازية كبيرة تؤيّد النساء وتعيش حياتها ... ماذا تعتقد ؟

ـ طيّب .من أين تتكلمين ؟ من نيويورك ؟

ـ ولماذا ليس من البانتاغون ؟ لا ، أنا في لندن ، في

غرفة للتلفون في أحد الفنادق .

ــ وماذا تفعلين هناك ؟

ــ أتساءل عن ذلك ... على كل حال ، أنا أنتظرك .
المطر يهطل . لماذا لا تصل الآن ؟

كانت أنفاسها تلفح وجهي . والواقع أن صوتها لم يكن هو نفسه : كان مرتفعاً ، تنتابه أحياناً تصدّعات وتغيّرات بحّاء لم تكن في ذاكرتي .

ــ لأن سانشو بانسا ليس « سوبرماناً » . إن له ساقين قصيرتين ونَفَساً قصيراً ، وهو يحتاج إلى وقت للوصول ...

ــ لا تتأخّر أكثر مما ينبغي ، من الفظيع انتظار شخصٍ تحت المطر ... على كل حال ، سنكون هنا في وضع أفضل من باريسك العفنة ...

ــ هنا أين ؟

لم ترد أن تعطي عنوانها بالتلفون ، وقالت لي :

ــ سيرسله لك صديقٌ على الفور .

وإذن ، فقد كان ثمة ، في الجوار ، أصدقاء ؟ نبأ طيب. وبالرغم من أن معرفتي بأنها قريبة جداً ، فلم تكن تأخذني الأوهام ، أي أني كنت قلقاً : لئن كانت تناديني ، فلأنها كانت قد انتظرت ــ عبثاً ــ شخصاً آخر ، هو الحقيقي ، صاحب الحقّ . لم أكن مخدوعاً : كنت بديلاً بالولادة ،

فلم يكن بامكاني إلا أن أكون ملاذاً أخيراً ، عجلة إنقاذ. أما كلمة « حبيي » التي وردت في البرقية فجعلتني أرتعش نصف دقيقة . فان تحقيقاً قصيراً أعاد لي يقيني . فهذه الكلمة ، في لغة أميركا اليوم ، تختصر المجاملات ولا تعني إلا « إلى اللقاء » . على أن ذلك كله لم يمنعني من أن أستقل الطائرة ، بمجرد تسلّمي العنوان في رسالة عاجلة . حتى أني لم أسألها في أية حالة جسمية كانت « حقاً » . لم أجرؤ . كان لا بدّ من أن أجد اللهجة المناسبة : « بالمناسبة ، يا عزيزتي ، عملية البتر تلك ، هل تمت أم أرجئت» ؟ إن التلفون عديم الحشمة ، كطاولة دائرة ، ولكنه كذلك خدّاع : فهو يسلّم الروح عارية ، في الظلام ، ولكن لا شيء يؤكّد لك أن لهذه الروح جسداً . إن هذا النوع من اللّبْس معروف : اعتبار أن من يملك صوتاً جميلاً يملك فماً جميلاً ... كنت أريد أن « أرى » فم إيميلا ، عينيها ، جسمها . بأيّ ثمن . وعلى الفور . إن نبرات صوتها قد قالت لي إنها كانت تريد أن تستعيد التفوّق ، ولكن على أي شيء ، لم أستطع أن أخمّن ذلك . كما أني لم أكن أستطيع الاعتقاد بأن ذلك سيكون برفقتي .

* * *

يستطيع المرء ، وهو في « تاينماوث رود » ، بلندن رقم ١٥ ، أن يحسب نفسه في « كنغستون » في المدينة

المنخفضة ، أو في أية جزيرة من جز الكارايبب ، تحت سماء ملبّدة . إن الشمس والصناعة السياحية في توباغو أو الجامايك تملّط الواجهات من جديد ، وتبرنق السيّارات العامة بلون ألفوة ، وتزرع شجرة موز هنا ، وثلاث شجرات من جوز الهند هناك ، والرذاذ الانكليكاني يوفّر على المكملات وينصّل الألوان قليلاً ، ولكن البيئة المحليّة تبقى هي نفسها . إن العاصمة ، بتجارة السَقَط فيها ، وبيعها الرثاث بالمناداة ، وعفونتها من البهار الهندي والصفران ، ومجاريها المبقّعة بالفضلات ، وهنودها بعمائمهم النظيفة وتصلّبهم المزدري « والدودو » الذين يصفقون نعالهم على الأرضية ، وأطفالها المتضوّرين الذين يلعبون بالعظام على درجات المداخل ، وموسيقى الرومبا التي تنحدر من نوافذها المقصليّة — إن العاصمة ، بهذا كله ، تصبح استعمارية ، وترتدّ ، من الأرباض ، إلى ينابيعها فيما وراء البحار . كل ذلك في زيّ مبتذل يُنسي البلى ويُنعش البائس والشاذّ . تحت حشمة القرميد والأجنحة المفرطة التعقّل . لقد استشعرت الضياع في ذلك البرد الاستوائي . ولكنني إذا لم أكن أخطأت العنوان ، فقد أخطأت إيميلا المناخ : ذلك أن أميركتها ، أميركة الذرة والبيوت القرميدية الرمادية والمتعجرفة ، لم تكن تشبه في « الوست أنديز » .

ومن حسن الحظ أني ما كدت أعبر باب « البوردنغ

هاوس » حتى ردّتني إلى أوروبا قشارات السقف والدرج
المظلم ذو البساط الحبلي المهدّب ورائحة بول قطط . وتعزّيت
أن أجد تلك الهيئة المتأمّلة الحزينة التي تجعلها الفتيات العانسات
الفاضلات تحوم في أجواء الفنادق ذوات الطابقين فيما وراء
المانش . ولكني كنت وأنا أصعد الدرجات متلمّساً أعاني
لتنفّس تدريجياً . كنت أتسلّق السنوات القهقرى ، واحدة
بعد أخرى ، صاعداً نحو ماضٍ لم يكن يكفّ عن حفْري ،
خجلاً بغموض ، كمن يوشك أن يفتح لحداً ليلياً ، تصديقاً
رسالة مغفلة تُلمّح إلى أنه ربما يكون مريضٌ أو جريحٌ ما
زال حيّاً بدلاً من المتوفي . وكنت أفضّل لو أن هذا المنزل
كان كابوساً ، مزحة رديئة ، وكنت أخشى أن أقع على
شخص آخر ، خائفاً أن أظهر خوفي ، وألاّ أجد الكلمات
المناسبة . وعلى قرص الدرج ، كانت عبارة فرنسية عجيبة
تتقافز في رأسي — أين تراني قد قرأتها — تشير إلى « تلك
الألعاب المتقنة التي كانت الأشباح تعيد رسمها في المقابر
قبل اشعاعات النهار الأولى » . كانت إيميلا قد قامرت وخسرت
أنا أيضاً ، على طريقتي . لم تكن هي بعدُ حصّتي ، ولم
تكن امرأتي . فماذا عساني جئت أفعل هنا ؟

* * *

— لا تنظر إليّ يابوريس... أرجوك ... أغمض عينيك.
ارتمت عليّ لتسدّ المدخل ، وخبأت رأسها في عنقي .

فتاة صغيرة مشعّثة تطلب الصفح . وفي فتحة الباب ضمّني اليه جسم رخص ضمّة مرتبكة ، ولم أر شيئاً . إلا ظلاً مصفرّاً على الأرض ، في زاوية من الغرفة المسدلة الستائر . وأمسكت نَفَسي ويديّ ، أريد أن ألامس وأجسّ في الوقت نفسه . تأخذني الرغبة في أن أضحك وأبكي معاً ، أن أختفي دفعة واحدة تحت الأرض وأن أختنق فيها ببطء شديد . من غير حركة ولا نأمة . لأن كلمة أو حركة كانتا كافيتين لكسر هذه الزجاجة في البحر ، هذه الصّدَفة اللامفهومة التي لفظها المدّ والجزر إلى هذه الجهة من العالم ، على شاطئنا نحن . على هذه القارّة القديمة التي تتجمّع فيها مساء زرافات المتسكّعين في زوايا الشوارع ، حيث يشيخ الرجال والنساء ، وبعضهم ممسك بأيدي البعض الآخر .

ردّدتْ بصوت أبحّ : — لا تنظر إليّ ... لا تنظر إلي الآن .

أحاطتني بذراعها اليسرى وحدها ، بينما كانت يدها اليمنى ، الجامدة ، تسحق صدري . وأغمضت عينيّ . لا استجابة لها ، وإنما لأتذوق ذلك الدفء الجديد ، المزعج كالحياة . كان اتصال جسمها الذي كان يعانقني كثيراً في الماضي لا يخيفني بعدُ . والحق أن تلك الحرارة كانت تصعد فيّ ، ولم أكن خجلاً . وقد كان علينا أن نبقى هكذا إلى الأبد ، أن نصبح نهائياً ذلك التمثال الشعبيّ : أعمى ذو

أصابع متخدّرة يجد ثانية خطيبته التي لا وجه لها ويقول لها وداعاً بلا دموع . ربما كان علينا أن نبقى كذلك ، نعم . وإذ ذاك ، كان الجسمان سينتهيان إلى التحدّث وحدهما ، إلى التمتمة بلغتهما القديمة من الملامسات والعضّات ، ولن يتمكنا بعد ذلك أبداً أن يقولا وداعاً . ولا أن يتكاذبا . لم يكن ذلك مسموحاً به . وعلى كل حال ، لم تكن تلك هي اللحظة المناسبة . ولقد دفعتها عنها بأرقّ ما استطعت ، وأغلقت الباب خلفنا .

أمامي ، كان الغَرَق . فراش موضوع على الأرض ، وفوقه كيسٌ للنوم ، ومصباح مكتبيّ صغير مائل . والموقد وزجاجة اللبن ، والصحف المبعثرة ، وعلب طعام محفوظ نصف فارغة . لماذا التمترس في هذا «السرير» وطعام الفطور بليرة يومياً ؟ هذا الانسياق مع التيّار لم يكن ليجعلها أكثر ضياعاً ، بل أكثر تبصّراً . كانت قابعة في أريكة متقعّرة الخدّين ، جبينها إلى المتكأ ، صارفةً رأسها . وكانت ترتدي ضرباً من مريول أسود منتفخ . وكانت تودّ أن تدسّ في ثناياه ذراعها اليمنى التي كان وشاح يربطها جانبياً . وكانت تمسّد بيدها اليسرى آلياً يدها اليمنى المقفّزة ذات الأصابع المتقلّصة . كانت جميلة ، أختي الصغيرة في السلاح ، مهزومة . كانت الهزيمة قد انتزعت منها قشرتها وصنعت جلداً مسامياً أكثر لبنيّة في العتمة القذرة .

أن نتكلم . أن نتبادل الكلام ، أن نضع بيننا كلاماً . ذلك الكلام المطمئْن والملائم « المعركة التي تستمر » ، « النصر — في — أخر — الدرب » ، « الثقة — التي — تنمو — أكثر — فأكثر — بعدالة — قضيتنا » . جميع هذه العبارات غير القابلة للاستبدال التي تصلح لعدم قول شيء كانت باقية في حنجرتينا . كنّا عائدين من مكان بعيد بعض الشيء ، فكنّا بحاجة إلى الوقت . اكتفيت تلك اللحظة بالقول :

— كيف تريدين أن أنظر اليك إذا لم يكن يُرى فيك شيء ؟

كانت إيميلا شديدة التأثّر بالبرد ، وكانت تطوي ساقيها تحتها ، وذراعها متدليّة كجناح ضامر . وقد استدارت إليّ على مهل ، وحدّقت بي بعينيْ حيوان مأخوذ في فخّ . عينان كبيرتان عذبتان تستنجدان ، كما يوضع قربان على قدم إله هارب ، في خضوع بلا أمـــل . وأحسستني أكثر تجرّداً إلى جانب كاراوس الذي كانت تنظر اليه بالاستشفاف بدلاً مني ، من غير أن تراني . ولم يسبق لي قط أن رأيت بياض عينيها في مثل هذا البياض . كانت عيناها تبدوان منهكتين ، كما لو أنهما لا تذهبان إلى المدى الذي كانتا تذهبان اليه من قبل . حين نفقد بعض اندفاعنا ، تتلاشى الثقة ويقصّر النظرُ الامداء .

— لست وحيدةً بعدُ ، يا ميمي . حين يلتقي ناجٍ من

الغرق بناجٍ آخر ، لا يبقى الطوْف بعيداً ...

وكان أن رأتني أخيراً. وقد ردّها إلى الأرض اكتشافُها لي إلى جانبها . فابتسمت ، منهكة من الرحلة .

— إنه ثقيل ... لا أدري إن كنت سأملك القوة ...

— ما هو الثقيل ، يا ميمي ؟

فانتفضت :

— كارلوس ... الولد ... ماريو ... جميع الآخرين . إنني أشعر بالدوار . الفراغ في كل مكان ، حولي ... إذا تحرّكت قليلاً . أخذني الإحساس أنني سأغرق .. فأفضّل الانزواء ...

— سترين أن المرء يخرج دائماً من ذلك . صحيح أنه يترك هناك ريشاً ، ولكن ريشاً آخر ينبت .

— لا ، لا أريد أن أرى ذلك . لا أريد أبداً .

بالاجمال ، لم أكن نموذج الانسان الباقي الذي تريده. كانت تريد أن تبقى مترهبنة . ولكن افتراع النار — الذي هو نقيض عماد النار — كان قد محا ما كان باقياً فيها من العذراء الفلمندية .

— يدك ، هل هي قابلة للاسترداد ؟

— حظّ من اثنين ، إذا أخضعتها لتدريب جديد . لقد

نجحت في الاحتفاظ بالذراع . ولكن هناك الباقي ... هذا لن يمنعني من أن أعيش ، ولكن ...

خفضت عينيها ، وضاع صوتها في الرمال ، بعيداً ...

– لم يسبق لك أن كنت في حالةٍ حسنة ... كهذه .

– ليتك رأيتني من قبل ! لقد رُممّتُ على عجل . خيطتْ يدي . لا أجرؤ بعد حتى على التعرّي في حمّام .

– لم تخلق الجراحة التشكيلية للكلاب . إن الندوب تُلأم.

– لن ينتزعها مني أحدٌ ، يا بوريس . لا أحد ، هل تسمعني ؟

لوّن الغضب فجأة وجهها . أثار غضبها مجرّد التفكير بمحو تلك الآثار التي كانت قد استحقّتها واختارتها ، واضطلعت بها حتى النهاية ... ومع ذلك ، فلم أكن أنا ، بائع النسيان واللّصقات ، من اخترع التواقيع في أسفل البرقيّات . كانت تفكر بصوت منخفض . وكانت الآن تتحدّى نفسها وهي تصيح :

– لقد فقدت جسمي ، وجلدي ، وابني ، وجمالي . ولكني لا أشعر بالخجل ! ستكون خيانة لكارلوس ، وسأخون نفسي إذا كان لي أن أحمرّ خجلاً من هذا كله ...

انحدرت ذراعها من عنقها إلى جنبها وسقطت ، خائبة .

– لا أستطيع أن أتحرّك أكثر مما ينبغي . لم يلتئم كل شيء .

أن توشّم جراحها ، أن تلقّم الشقاء في الجلْد . أكان ذلك يكفيها حتى تمنع صفح الاهانات ؟ زمن القضاء على عملها الكريه ، عمل المصابة بالنسيان ؟ حين كانت ترفض الغشّ مع جراحها ، كانت تقرّر أن موت كارلوس وموت ابنها لن يموتا إلاّ معها . ولم يكن عندي ما أحتجّ عليه هنا ، بل على العكس . لماذا إذن تتهمني ؟ لماذا تصرخ في وجه الحياة أمامي ؟ بل لماذا — بكل بساطة — كانت قد اتّصلت بي ؟

— أكان الترميم ... قاسياً ؟

— على الإطلاق . لم أشعر قط بالوجع . وهو أمرٌ فظيع ، ألا يشعر المرء بشيء ، ألا ترى ذلك ؟

— بل إن هذا يبدو لي من حسن الحظّ .

— لا . لو أوتيتُ حظاً ، لكنت اليوم ميتة .

— أوه ، لن تبدأي أنت أيضاً بهذا الكلام .

انفجرتُ ، وهدرت بدوري لأوقفها في الوقت المناسب ، وأمنعها من أن تمضي إلى أبعد . إلى حيث لا يجد المرء إلا قبوراً أخرى ، وصلباناً أخرى ، وجميع دوائر الاستشهاد المفرغة . تلك الدائرة المأتمية ، آليتُ أن أخرجها منها . لتتذوق من جديد عبثية الضحكات ، وبالريح تعصف بالأوراق ، وبالقهوة السوداء في الفم ، صباحاً . لترفع من

جديد جميع أعلام الحياة الصغيرة ، حياة كل يوم ، لابيضاء ولا حمراء ، ولكنها تستحق أن يُردّ لها الشرف ـ بلا خجل مزيّف . أليس من أجاها يقاتل الانسان ؟

ـ المعجزات ، يجب أن نحيّيها بالانحناء الكامل . من غير أن نطرح الاسئلة على أنفسنا . وبعد ذلك ، سترين أن كل شيء يبدأ من جديد ـ وأقوى جداً !

ـ هذا جميل جداً . ولكن هناك شيئاً لا تعرفه . ولا أحد يعرفه ...

ـ ولا أحد بحاجة لأن يعرفه ...

ـ لا ، يابوريس ! ليس أنت .

وقَسَتْ نظرتها ، وكان الأوان قد فات لأسدّ أذنيّ :

ـ أتعرف لماذا أنا هنا ؟ لا ؟ لأن توماس وماريو كانا قد هربا عند أول طلقة رصاص . ولأني كنت أنا حاملاً . لقد تسلّلا من المرأب. ولم تكن الشوارع الخلفيّة قد حوصرت بعد . كان يكفي تسلّق جدار الحديقة ، وعبور ساحتين أو ثلاث ساحات صغيرة ... لقد اختفى توماس في الحقول. أما ماريو ، فقد استوقف سيارة ، ثم تمالك نفسه فجأة . فنادى رفيقاً داخلياً كان يحرس المستشفى ليصعد إلى سيارة إسعاف ، وأبلغ الباقين . وعلى هذا النحو ، استطاعوا أن ينقذوني في الفوضى العامّة . حين دخل العسكريون . وعلى

رأسهم « أنايا » بلغت . بهم فرحة الحصول على كارلوس إنهم لم يتنبّهوا حتى إليّ . ركلة أو ركلتان فقط في البطن . كانوا يحسبونني ميتة . أما « انايا » فقد كان ضارياً تجاه كارلوس . لقد حطّموا حتى أسنانه ، على سبيل التلذّذ . عرفت ذلك فيما بعد . وقد أفاد الرفيق من ذلك ، كان يرتدي قميصاً طويلاً أبيض ، وكان أول طبيب يصل إلى المكان . وقد وضعني على حمالة ولاذ بالفرار . وقد منع الشرطة من الصعود إلى سيارة الاسعاف ، وبعد ذلك ، بعثرهم بصفّارة السيارة .

— أنت مدينة لماريو بشمعة جميلة ... كان لا بدّ من حضور ذهنيّ كبير لتنظيم هذا كله ، بطرفة عين ...

— لا . لو أنهما بقيا مع كارلوس ، لاستطاعوا كسر الطوق . ثلاثتهم . ولكن كارلوس بقي وحده ليغطّيني ، أنا والولد . لكي يستطيع الولد أن يعيش . وكان ينبغي الإسراع ... ولكنني لم أكن أستطيع الركض ، وأنت تفهم ذلك ، مع الولد الذي كان يرفس هنا ، في داخلي ، وكنت أثقل من أن يستطيع حملي على كتفه ...

اتّهمت يدُها ، المرتعبة ، بطنها ، ورسمت استدارة غائبة .

— على كل حال ، كان الأوان قد فات . كنتما قد

جُرحتما . وكان البيت محاصراً ... وما كنتما لتستطيعا قطّ الخروج من وكر الزنابير ذاك !

– ربما ، كارلوس . أما ماريو وتوماس ، فقد أجادا الخروج !

– لأنهما بدّلا العزم . تعرفين أن توماس قد فرّ ...

– وكيف عرفت ذلك ؟

احمرّت إيميلا . ومع ذلك ، فلم يكن لها أن تتحمّل مسؤولية ذلك الإخفاق . إنه نقص في التبصّر لدى كارلوس ، على الأكثر ، أو في الحذر . إنها إذ تفكر بتوماس ، تفكر بالخزي والسقوط . أما أنا ، فأفكر ، مبتذلاً ، بوهن العزيمة وضعف التنظيم – والأول يفضي إلى الآخر .

– والبيت ؟ كيف عثروا عليه ؟

– أبيل . لم يكن لديهم إلا علامتان . المسافة بالسيارة ، انطلاقاً من المحطة ، ولون البيت المواجه . وقد قاموا بالدورية ليلاً نهاراً طوال ثلاثة أيام . وحين أُطلق الرصاص من الداخل ، عرفوا أنه هو البيت المطلوب .

هذه المرة ، كان لا بدّ من بعض الوقت لإعادة بناء الحركة . ومن بعض الدقّة والصبر والتواضع . وكان هذا سبباً إضافياً حتى لا يغوص المرء في الذكرى .

نهضتُ وذهبت أضع إصبعاً على شفتيها :

ــ لا تروي لي أكثر من ذلك ، يا ميمي . في هذه اللحظة على الأقل . إن كل نهار تكفيه عشيّته .

توقّفت . ممتقعة جداً ، مستنفدة القوى .

ــ هيا ! يا أختي الصغيرة . تعاليْ نأكل . وبعد ذلك، تنصرفين إلى حقائبك . لا غوغائية . إن هذه الغرفة توحي لأمين عامّ بالكآبة . لا تَنْسيْ أنك تعاطيت مع المصارف الكبرى ! إن لك الحق ، بصفتك السابقة كمحطّمة ، ان تعيشي في مستوى لائق .

ــ إن مالي ليس ملكي . وإن لديّ حسابات أقدمها للتنظيم .

ــ أنت منبوذة باذخة ، وستُعاملين وفقاً لذلك .

ارتدت « بونشو » بلون القهوة بالحليب ، وخرجت من غير أن تمشّط شعرها ، ومن غير نظرة إلى المرآة . وفي الخارج . صفعتنا ريحٌ عنيفة صفعاً شديداً ، حتى أن إيميلا كانت تترنّح : لم تكن قد خرجت من غرفتها الضيّقة منذ ثلاثة أيام . وكانت دائخة ، فتشبثت بذراعي . وكانت شمس حائرة تنصبّ حولنا على خضرة متجرٍ بالجملة ، وحمرة ملحمة ، وثلج عمامةٍ هندية . وكانت إيميلا تتوقّف بين الفينة والفينة لتتنفس وهي تبتسم للمارة . ودعوتها إلى مطعم سنغالي قريب : إن الاشمئزاز من العام يُحارَب جيّداً بالتابل الاحمر المسحوق .

اخترنا فراخاً بالكاري ، و « شاتني » بالتفاح والنعناع . وجرمتُ لها جناحين وقطعت اللحم قطعاً صغيرة في طبقها . وبعد خمس دقائق ، عاد الطبق أبيض .

— انتظر قليلاً ... إن هذه الصلصة تذكّرني بشيء ...

تورّدت . وجفّفت عينيها . ثم عطست وابتسمت أخيراً ، مُشعّة .

— تذكرني بـ « الساجتا دو بولو » في « لاباز » ! كان كارلوس يحبّها حبّاً جنونياً . أتذكر ، الفرخة بالبصل والزيت والتوابل التي تطبخ في صلصتها طوال ساعات ...

تحت الرماد ، الأفاويه ... وإذن ، فقد كانت في ذاكرتها لعبة تكفي لتسريب سهم من الشمس النقيّة وسط « لندن » زرقاء مخضرّة ، في « الإست اند » ، ذات يوم من آذار في الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر ، تحت سماء أكثر من حائرة ، في إبان السلام الأوروبي . وإذن ، فلم يكن قد ضاع كلّ شيء .

في الشارع ، التقيت ثانية بقيافتها المضحكة ، قيافة الصياد الألبي ، وكعبها الحديدي . وعبثنا لكي نهضم الطعام ، والرأس منا خال . ولكنها ذات لحظة ، التفتت نحوي ، فاخضرّت عينُها . وأحسست صنّارة من نار على معصمي ، وأظافرها في جلدي .

— بوريس . انني ما زلت أريدها. طفلتي الصغيرة... اتعتقد أن ذلك ممكن ؟

فلم أجب.

* * *

قصدنا فندقاً كان يليق برتبتها ك « إرهابية » — كورزون ستريت ، ماي فير — وبقينا معاً زهاء ثمانية أيام، في غرفتين متجاورتين ، ونحن فريستا أشباح . ولم يكن عليّ أن أقاوم تنسّكها بأكثر من مقاومتي للظلام . كانت في غرفتها تشيع الظلمة في إبان النهار . وحين كنت آتي ، كل صباح ، لأوقظها وأنا أحمل لها الفطور ، كانت تردّد: « بوريس ، إبق هنا . يجب أن تساعدني على أن أرى بوضوح في هذه العتمة » . وكانت تُسدل الستائر التي كنت قد رفعتها لتوّي . « ساعدني على ألاّ أنحرف ، فأنا على وشك السقوط». وكانت تقف ، فتذرع الغرفة ، متصلّبة القامة في مشدّها المكوّن من الضمادات . ولم يكن لدي حقاً شعورٌ بأني نافعٌ لشيء ما .

كانت إيميلا تتجمّع في الظلّ لتطرد الأمن وتستردّ ذلك الليل الكثيف من حياة المقاومة السريّة التي تكون لياليها أقصر ، ويكون كل يوم من أيامها أثقل ، ويحفر عميقاً في اللحم والعقل . كانت تخشى إذا عادت إلى الحياة العادية ،

فقدان ماضٍ لم يكن ماضياً ، حتى ولا وحدة متنامية ، ونفاق الابتسامات وزيف الكلمات . أقلّ من خشيتها الاستسلام لذلك شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بها الأمر ، من التخلي إلى العادة ، أن تجد هذه التمثيلية طبيعية ، وأن تعتبر هذه الضوضاء من العزف المنفرد التي تحيط بنا كونشرتو شاذّة . كانت تقول لي لتتجنّب لندن اللواطيّة التي كنت أهدّدها بها كلّ مساء ( لم يكن حيّ سوهو بعيداً ) : « إفهمني ، إن الجنس والازدحام لا يصنعان مجتمعاً . فاذا كانت القضية هي أن أبقى وحيدة ، فالأفضل البقاء هنا : إن بالامكان ، على الأقل ، أن نتفاهم » .

لكي ينجح المرء في مهنة الحياة ، فلا بدّ له أولاً من ارادة الوصول . وقد عزمت على أن أكون ذئباً لصالح اثنين ، وصولياً بكل ما يملك من رغبات . وإذ لم تكن تملك رغبات كثيرة ، وكانت تعتبر نفسها عنيدة بما فيه الكفاية حتى تقاوم القضم ، غنيّة بالمتطلبات بما فيه الكفاية حتى لا تترك نفسها تفتقر بمسرّات الحياة الصغيرة ، فقد استسلمت لخطّتي بغير ما مخاوف مفرطة ، وقبلت أن تضع أنفها في الخارج من جديد . وذات مساء ، اقتحمنا باب حانة مجاورة. وفي اليوم التالي ، ذهبنا نتسوّق في « بوند ستريت » قبيل المساء . واستمعنا إلى « الجاز » طوال ليلة في نادي « سكوت » في « فريت ستريت» . وقدّمت لها مِقْرأة أشرطةوذكّرها

صوت « جون بيز » في أغنية « باخشيناس برازيليراس » عذوبة اللقاءات الحميمة السابقة . كنت أدجّن حزنها بحكمة ، وأتعدّى على ليلها ، وأتقدم بخطى صامتة . تساعدني الحلويات والهدايا – من غلالات الكشمير والشتلند ، والكعك بالزبيب ، والتوابل الهندية ، وقد كان لهذه الحركات الصغيرة أثرها : فقد بدأت ايميلا تنطوي ، وتنفتح ، وتنسى .

اني أجرؤ على أن أقولها : كنت أتقدّم على مضضٍ تقريباً . وإذ وصلت ، ألفيتها صاحيةً كتلك المجنونة التي كان طبيبها يوبخها بقوله : « يجب أن تعيشي جيداً ، ياآنسة » ! فتجيبه بجفاء : « لست أرى ضرورة لذلك » . أما الآن ، فان ضرورة مربّى البرتقال المرّ مع خبز الساعة الثامنة الصباحي المحمّص والويسكي المثلج في المساء ، لم تكن تفلت منها . لم أكن شديد الاعتزاز بنجاحي ، ولكني حسبت ، عشية تركي إياها ، أنها كانت قد عادت إلى السكّة ، وأنها ستمضي باستقامة ، ككل انسان ، بل حتى بهدوء أكثر .

وإذ كنت أهمّ بصعود الحافلة ، في « ويست اير ترمينال » كاشفتني مرةً واحدة . قالت لي بلا مقدّمات ، بهيئة نصف جائعة ونصف حائرة ، إنه لم يكن ثمة بعدُ من صا ب حق أو شفيع – لتضيف بسرعة ، وهي تشدّ على شفتيها ، أنه لن يكون ثمة مثلهما قبل وقت طويل .

– هذا ما كنت أعتقده تماماً . فأنا هنا تكملة عدد .

ولكن اطمئنّي . إن عكس ذلك هو ما كان حقاً يقلقني .

– إقلق إذن على الفور : فليس لي غيرك أنت . يابوريس .

– تذكّري سانتياغو ... عاجلاً أم آجلاً . يجب تسوية البقايا .

أخذت تلكمني بيدها السويّة لكماً متواصلاً . ثم عانقتني طويلاً ، كما لو كنت ذاهباً إلى الخدمة العسكرية .

– قل لي ، هل تدعوني قريباً إلى باريس ؟ سأكون بحاجة للسفر اليها ، من أجل العمل ...

– وحدك في باريس ؟ هل تفكرين بذلك ؟

– ما دمنا سنكون معاً ! أعرف أن ذلك لن يكون ضمانة ولكنك على حق . فيجب أن نعمل بما بين أيدينا .

قطّبت وجهي ، فقالت :

– الحق يابوريس ، أني كما تعرف ، أحبك كثيراً . بعد كل حساب .

حين عدت إلى الحافلة ، تساءلت عما عساه يكون العمل المشار اليه . ولكن ماذا كانت تفعل في لندن ؟ لم أكن أعرف من الأمر أكثر من ذلك . كانت قد قالت لي : « لأرى صديقة » . بواسطة التلباتي ، من غير شك ، ذلك أن الصديقة ظلّت غير مرئيّة .

* * *

حطّت في أورلي ، ذات مساء ربيعيّ ، في حالة دفاع ثيابية تشي بتخوفاتها : سترة كنديّة مبطنة بالفرو ، بنطال من مخمل يبلغ الكعبين ، جزمة ضخمة . لم تكن هي المرة الأولى التي تضع فيها قدميها في « كابو » : فالحق أنها إذا كانت قد اتخذت حيطتها ، فليس ذلك لأنها كانت تخشى على شخصها بقدر ما كان ذلك بسبب من الأحكام المسبقة السلفيّة . إذا كان صحيحاً أن نبلاء مملكة البيرو والقبطانيات المجاورة يمكن أن يمثلوا في سُلالتها . إن النبالة تقتضي ذلك. ومنذ أن كان ثمة رجال شرف فان باريس إثم من الآثام ، وأمرٌ سيء ألا يكون الباريسيون على علم بذلك . إن روحاً نبيلة الأصل أو ، على الأقل ، حسنة التحزيب ، يمكن أن تخاطر بملذّاتها ، ولكن يجب أن تعرف ما يحدث . إن جمال الشيطان قد ذبل مؤخّراً بعض الشيء ، وكذلك جمال الماسونيين واليعقوبيين الملحدين — ولكن أية ذريّة هذه ! كوكايين ، ودعارة ، وشذوذ جنسي ، ووجوديّة ، والهائيّة ، وليبرالية بورجوازية جديدة ، من بين قطاعات أخرى ، كل ذلك قد اكتسب مساكن ثانوية على الكرة ، ولكن ينبغي ألاّ ينسى أحدٌ أن في باريس ما زال يعيث فساداً ، ومنذ بضعة قرون ، المسيح الدجّال وبقايا نسل سدوم وعمورية وجان — بول سارتر . في الحي اللاتيني ، كل عام ، تتنامى أشدّ النزاعات فساداً ، وتنتظر جميع

شياطين الانحطاط ، كامنة في عتمة خليعة . وما أكثر مناضلي أميركا وسواها الذين اختفوا أجساماً وممتلكات ، وقد التهمتهم « مغويات الغرب » ! إن « مدينة النور » في عالم رفاق إيميلا الخياليّ ، لا تزال تلمع في الأفق ببريق معتم كهفاً لجميع التلويثات الأخلاقية والانحرافات الايديولوجية للعصر ، لا تجدي إلا في تحطيم نوابض المناضلين الذين يمرّون بها . وهذه الرؤية السريعة بعض الشيء ، تظاهرت إيميلا مدة طويلة بأنها تعتنقها — ربما لتُخفي ماضيها البعيد كمواطنة عالمية وقحة بعض الوقاحة — ، ولفرط ماتصنعت ذلك ، انتهى بها الأمر ، على ما أعتقد ، إلى الايمان بها . ألم يسبق لي أن سمعتها بأذنيّ ، في مجمعنا قرب سانتياغو ، وهي تلاحظ أمام جميع رفاقنا ، أني لم أطرح بعدُ سموم البيئة الفرنسية ( كذا ) ، وأن « هذا الجوّ القارض ، حتى عن بُعد ، كان يخلف آثاراً يرثى لها على نشاطي الكفاحي » ( كذا مرة أخرى ) ؟ وبالرغم من أسلوب العظة الإداري ، أو بسبب منه ، لم يضحك أحدٌ آنذاك .

ومع ذلك ، فان « إيميلاي » لم تولد من المَطْرة الأخيرة. فبعد أن تركت زوجها الألماني ، قدمت إلى أوروبا — لندن ، أمستردام ، باريس — لتتموضع في الجوّ ، بل لتحاول الانخراط في الحياة المشتركة . ملاهٍ وضيعة ، نزوات وكبوات ، مسلسلات هزلية ، فهود سود ، هيبيز ، اعتصامات ...

إن جميع تلك المفاتيح السحرية التي تغلق من الأبواب أكثر مما تفتح كانت قد جُـرّبت ، وكان أن فقد السحر الممارَس كلّ سحره . وان تكون قد بصقت ثانية ، بعد بضعة أشهر ، كل هذه البضاعة الرديئة المستوردة ، فذلك لم يكن ينقص شيئاً من كونها ربحت حق التفكير في شيء آخر . ولعلها كانت تخشى سقوطاً آخر . ولكن إن كان ثمة سقوط آخر ، أكان حقاً أمراً يخيف ؟ أيّ صوفيّ ترى قد قال : « إن الذين صُنعوا للإثم صُنعوا للعفو » ؟

ــ هل أستطيع أن أتركلك وحدك في « بابيلون » ؟

ــ بل أنا التي أطلب منك ذلك . إن المرء لا يتخذ لنفسه قط الاحتياطات الكافية .

ــ نحن نعيش في جمهورية ، كما تعلمين . فليس لك أن تخافي شيئاً هنا : إنه بلدٌ متحضّر ، عصريّ ، ليبرالي ، متقدّم جداً ، كما يقال عن بعض أنواع اللحم ...

لم يكن لوطنيـّتي الوقت الكافي لإثارة حماستها .

ــ أعذرني إذا قاطعتك : اسمي سيلفيا بلاكبورد . مولودة في ملبورن . عالمة اتنولوجيا في العطلة . لقد جئت آخذ حظاً من الراحة على اثر حادث سيارة ، وقد التقيتَ بي في لندن ، في دكان للاسطوانات يقع في « كارنابي ستريت » ، ذات سبت بعد الظهر . كنا نريد أن نستمع

إلى المجموعة من « دياموندز أند راستز »، تذكّر العنوان ...

— مفهوم يارئيس .. ولكني أراك على الأصحّ مجمّلة متهرّبة . عارضة أزياء عند خيّاط مفلس . فتاة غلاف شيوعية ...

— هذا ممكن كذلك . من يدري ؟ ولكن بمظهري ومشيتي ...

— بالضبط . إن لك مظهراً ومشية متميّزين . ولكنك لا تملكين غير ذلك ، في حين أنك إذا تجمّلت قليلاً .. أنت لا تملكين بعدُ صفة « اللاجئين » ...

— لا . بل جواز سفر جميل جديد . أعرف كل شيء عن استراليا . ولما لم يكن ثمة شيء كثير لمعرفته ...

— ما جدوى هذه الأسطورة كلها ، يا ميمي ؟

— ما جدوى « الثورة » ، يا بوريس ؟ لماذا أنا على قيد الحياة ؟ لماذا لم تنطفىء الشمس بعدُ ؟ بانتظار ذلك ، أنا « أماندا » بالنسبة للرفاق ، وكتابةً .

— هذا أشبه بترجمة لاتينية . « اماندا ميمي دي ...» يجب أن نحبّ ميمي ، لا اعتراضات . ولكن ...

— لا اعتراضات ؟

— بالنسبة لي . ستظلّين دائماً أختاً صغيرة .

– انني أجد ذلك أبوياً وعدواً للمرأة بعض الشيء ، أذا أردت أن تعرف كل شيء ...

– ليس ثمة من هو كامل . يا سيلفيا .

كان ينبسط أمامنا منظرٌ قابل للتبادل لبلدٍ ما في هذه الاوروبا التي لم يبق فيها لا بلدٌ ولا منظر : بوابات ضخمة ، مستودعات ، أنفاقٌ ، أنابيب مُستشععة ، عنابر ، لافتات إعلانية . كنت أحسبني أحلم على مقودي ، غير عارفٍ بعد مَنْ كنت وأين كنت ، ولا مع مَنْ : رجلٌ يفقد توازنه على طريق سيّار في لا مكان ، إلى جانب استرالية ليست استرالية ، وتفعل ماذا بالضبط ؟ أتراها هي نفسها كانت تعرف ذلك ؟ إن هناك مع ذلك وسيلة يعرف بها المرء أنه عَبَرَ حدوداً : لون لافتات الإشارة . كان الأزرق والأبيض يدلاّننا على أننا كنا في فرنسا . وكان ذلك هو يقيني الوحيد .

طلبت مني أن أتركها عند باب محطة « أورليان » لتستقل المترو كفتاة كبيرة قاصدة لا تستطيع أن تقول لي أين . واتفقنا على اتصال منتظم كلّ يوم ، مع تغيير في محطات المترو – حتى لا تستعمل التلفون الذي كانت تحذره حذرها من الطاعون . وتمّ العزم على المناوبة بين « المدينة الجامعية » و « شاتو لندون » ، وبين سانت – مارتين وحديقة مونتسوري .

ـ تنسّمي الهواء ، يا أختي الصغيرة ، ولا تبخلي بالدمع إذا أخذتك الرغبة بالبكاء . وأنت تعرفين نظام الطعام : ايلا فيتزجرالد ، شامبانيا وبفتيك بالفلفل .

قالت ببسمة زاويّة : ـ لست ضدّ ذلك ...

كان حزن جافّ بعض الشيء يُقسّي جوف عينيها . لم تكْفِها لندن . ولن تكون نتانات باريس فائضة عن اللزوم لتليين بعض الأعصاب ، وتطرية عنقها . وحل رباط مشدّ ما كانت قد احتفظت به تحت جلدها ، الآن وقد التأمت درزات جراحها .

عُدت إلى البيت سعيداً : إن تحرير المرأة ربح زبونة جديدة .

* * *

هذه الثورة النسوية ـ الوحيدة الناجحة كلياً كما يعرف الجميع ،لأنها لم تبرمَج ولم تنظّم بل لم تكن منظورة من قِبَل أيّ ثوريّ مفوّض ـ تمّت لديها مقلوبة . لقد تحرّرت أماندا باتخاذ طوق العبودية القديم : فكل ما كان يطبع عليها رقّ أخواتها أصبح ، بضربة عصا سحرية ، وسيلة ومقياساً للتحرير . وفي بضعة أسابيع ، حطّمت النغفة شرنقتها وخرجت فراشة راعشة ومبهرجة أكثر هوائية بين

يوم ويوم ، متعدّدة الألوان ، غير قابلة للالتقاط . حتى ليظنّ المرء أنها كانت تقضي أيامها في اصطياد الألوان والشذرات والشنَف . وفي جميع الجرائد النسوية ، والتطفّل في دكاكين الدُّرْجة ، والقرصنة في المعاطر . وعلى مهل ، بدأت تظهر عليها مستحضرات التجميل ، من الشامبوان ، إلى الطحلب ، إلى البرنق ، إلى دهون بالعسل أو بدوّار الشمس . إلى ألبانٍ للمعالجة . أو للتمبيه أو إزالة المساحيق . واكتشفت بعد ذلك أثر كُحلٍ حول عينيها ، وظــلا أخضر على جفنيها . ولن أقسم أن المسحوق وفّر أهدابها . أظافرها وخدها وشفتاها تراجعت أمام العود والبرنيق — مع أن هذه الأشياء إنما صُنعت اليوم لتمحو الآثار . وقد طوّل أحد علماء التجميل وجهها . أما بصدد الثياب ، فان التحوّل من ثوب القتال الزريّ الذي كانت تلبسه عند مقدمها ، إلى « الصرخة الأخيرة » من الملابس الجاهزة ، فقد تم في خمس لحظات .

وإذ كنا نلتقي كل يوم في السابعة مساء ، كنت أقبّل على خدّيها صورةً جديدة للدُرجة . كانت مشترياتها ذات أشكال عاقلة ، ولكن بألوان مجنونة بعض الشيء ، أو أنيقة أو مُحَمْضَة : قميص ذو طيّات أو من « جرسي » ورديّ ، أو كنزة تــائية أو قميص رياضي أصفر . لم تكن الأخت الصغيرة تضع نفسها بعد إلاّ تحت حرية مراقبة .

كانت تحب الأقمشة الموصليّة والباتيستة وكريب الصين ، ولكنها كانت تزرّر ثيابها حتى الياقة . لم تكن ترتدي تنورة مشقوقة ، ولا قميصاً من خيوط ، ولا فستاناً بلا كمين. ليس من ثوب مقوّر . ربما بسبب ما كانت قد قالته لي عن جروحها . وقد طمأنتني بلهجة حزينة : « لا تقلق : إن الدُّرجة هي في الياقات المغلقة .. هي جميلة ولا تُري شيئاً ». وعلى سبيل الموازنة ، وبالرغم من علمي أنها عصيّة على الجواهر ، أهديتها عقداً من أظافر الدببة – حقيقة أو مزيّفة ؟ لم يكن يساوي تعويذتها من الجبال ، ولكن كان يمكن أن يُنسيها إياها . ولم يتركها هذا العقد قط .

وان أرى متمرّدتي ، موظّفتي الثورية ، معارضتي المهنية تختفي شيئاً فشيئاً تحت جلد امرأة شابة مغفلة ومرتّبة ، كان ذلك يُصعد إلى شفتي التهليلات . كانت قد أصبحت جميلة ككل نساء اليوم : رائعة ، تكاد لا تُرى ، لولا عيناها – المفرطتا الجرأة – ومشيتها الانسيابية بعض الشيء . ولم أكن مخدوعاً تماماً بهذا التغيُّر المقصود ، ولو أنني سئلت بهذا الصدد لكنت أرهفت أذني . ولكنني لم أكن أطرح على نفسي الأسئلة ، ولا هي كذلك . وقد رأيت خاصّة البراءة المستردة ، ونهاية الندم ، وكنت أحتفل صامتاً بألوان

تأنّقها كأنها انتصار ، على هذا العالم الكريه الذي يُقْلع منه الناجون تنطق عيونهم بندم النجاة بعد هلاك الآخرين .
هذا العالم الذي يتدبّر فيه الناس الأمر دائماً لإلباس القبّعة للضحايا ، أحياء أو غير أحياء ، تالفين أو مدفونين . إن الجلاد المعذب في أيامنا يبدأ وينتهي بوعظ المعذّبين . هؤلاء الحرّاس الشرسون ذوو القبعات العالية ، والأيدي المشعرة والنظارات السود الذين يقومون بحراسة « الـغرب » المسيحيّ ، هناك ، فيما وراء الأطلسي ، كانت ميمي قد أخلّت بالتزامها تجاههم ، ولكنها لم تكن من أجل ذلك تقرّ بذنبها . كانت تتحداهم عن بُعد باسترداد جمالها ، وكانت أناقاتها مشروعة . ولكن الذي كان يَعظُ بحماقة ، هو أنا . اما هي ، فكانت تمارس السياسة اذ تغطي نفسها بالانوثة من الرأس حتى أخمص القدمين ، وبدلاً من تهنئتها بملابسها كلما كنت اقول لها مرحباً ، كان عليّ ان أقول لها الى اللقاء مرةً والى الأبد ، متمنياً لها استمراراً جيّداً . ان ما يُتابع السياسة بوسائل أخرى معروف جداً . ولكن مربّع القماش الموصليّ من الحرير الازرق الداكن المعقود بإهمال حول العنُق ليس من استعدادات الحرب المنصوص عليها في الحوليّات .

كنت أنظر إليها وهي تشعّ بالأمن ، فأطمئنّ . غير أن ما أعماني أكثر من أي شيء آخر هو بطؤها الجديد .

كانت حمّاها قد انخفضت درجتُها، ولم تكن تسعى بعدُ الى تدويخ نفسها وهي تدور كالدرويش بين أربعة جدران . كانت أماندا تأخذ وقت عدم القيام بشيء،وقت ان تكون نفسها . كانت تنام جيّداً وطويلاً ، وتقرأ غير « ماري—كلير » وتفكر أفقياً ، فارضةً على من يقابلونهـــا هدوء الأمراء والمناضلين القدامى . كسب كبير لوجه متباطيء وكلام متمهّل ، ومضغ هاديء . وأن تكون قد استطاعت البقاء في منزلها جامدةً مدةً طويلة من غير ان تحتَّ مكبحها، فذلك لم يكن يعني أن أسنانها قد بُردت ، بل انها كانت قد نجحت في أقلّ من عام بما أخطأه سواها في عشرين : تغيير السرعة . أكانت جندية مطرودة ام بطلة تلهث تعباً ؟ لا . بل إن هـــذا البطء المراد ، المكتسَب بقسوة ، كان كذلك في البدء ضد نفسها ، أو ضدّ أسوأ جزءٍ من ذاتها كانت قد اعتبرته الأفضل . لقد اكتسبته بصراع شديد على رواية الفروسية وعلى ركوبنا الجياد عند شاطيء البحر ، سابقاً ، وعلى الحب الذي كان يأتي كيفما كان والذي كانت تشمئزّ منه ، وعلى الطعام الذي كانت تلتهمه فيبقى على معدتها ، وعلى رغبتها في وضع حدّ لرغباتها والانتهاء بأسرع ما امكن من اللحظات الطيّبة . كسبته على الموت الذي يقفل وينزع خطفاً وبلا ترتيب . كنت أرى الآن ما كان كارلوس قد رأى : ايميلاّ (عفواً ، اماندا) تعرف

أن تبطيء وتتوقّف عند التفاصيل . مـدبّرة منزل جيدة لا تشتري بعدُ بالوزن بـل بالرزمة ، مقارنةً الأسعار وشامّةً البضاعة . كانت بكل تأكيد تعرف : فقد دفعت الثمن . ذلك الصبر ، صبر الغزّالة ، العنكبوتية ، ودقّة الحمل الجسديّة ، وكل تلك العناية التي بذلتها لنسج كائن صغير تسرّب من بين أصابعها في بضع دقائق — ها هي ذي تُحيلها جميعاً على عزلتها الحاضرة ، لتتذوّقها وتجترّها وتعمّقها . إنها هي التي علّمتني في الحـانات التي كنا نقصدها مساء، قرب « لاربوبليلك » ، ان أميزّ بين المعجّنات ، وفق ما اذا كانت محشوّة بفرخ البطء او بكبد الطير ، وبين الأرانب اذا كانت مطبوخة بـ « البريسان » او مقلية بالبصل ، وبين سمكية الزنجور وسمكية سمك موسى ، بصرف النظر عن انواع الخمور .

فاذا وضعنا فنّ الذواقة جانباً ، فإن تجربة « الأرض » كانت قد علمتها إجمالاً ما لم تكن البرامج ومكاتب الدراسات تهتمّ به اطلاقاً : وزن الخفايا والـدقائق . كانت مخلوقةً للقتال الشريف ، مولعةً بالكاراتيه وبالفنون الحربية ، وكان القدر قد لوى لها ذراعها كخائن، فكان أن حلّ محلّ الاحتدام السابق ، عهد أن كانت تنطلق مع كاراوس خافضة الرأس في المجهول ، عزيمةٌ اكثر تستراً ، مهيأة للمناورة والـدهاء . كان لا مفرّ بعد الآن من المراوغة ، والناس

المستعجلون لايعرفون . إنهم ينتظرون السعادة في زاوية الشارع ، أو ينتظـــرون خلف الباب المـــأساة التي ستحطّم عظامهم . وما كان أجمل ان تُرى وهي تجري مع الريح من غير ان تعدو خلف قـــدرها ! كان عليه ان ينتظر دوره للمقابلة . كالجميع . بعض الصبر والهدوء ياسيدي صاحب الطلب ! اننا لاننساك . بل نحن نفكر بك . إن السيدة ستستقبلك ما ان يصبح ذلك بالامكان . إن السيدة تفكر بكل شيء ، لأنها تفكر بنفسها . للسبب نفسه الذي يجعلها تعبر الحدود وهي تذوب في المنظر الطبيعي ، وتبدو تشيلية في التشيلي ، وإنكليزية في انكلترا ، وباريسية في باريس. ذلك أنها تسكن وطناً حميماً لن يُبعدها عنه أي كواونيل : تسكن يقيناً . إن المؤمنين يستطيعون ان يضعوا جميع الأقنعة من غير ان يبدوا متنكّرين .

ان يتوقّف المرء على كل شيء وعلى لا شيء : تلك هي العذوبة المجنونة ، عظمتنا الوحيدة ! وان يكون المرء واعياً ذلك فهذا ما لا يُنقص من شأنه ، شريطة ان يعرف ما يريد . وبلا مرارة ، لم تكن ميمي قد فعلت الاّ أن تعالج معالجة بارعة أجمل الفضائل : السذاجة . وكانت هزيمتها ، المكـــتسبة غالباً ، قد خدرتها في البدء اكثر مما آلمتها ، وأزالت سكرها ، وفي نهاية المطاف قوّتها . كانت تطفو من مطاردتها الطويلة —

سليمة ونصف مصابة بالأذى– بالتواطؤ الخفيّ للمؤمنين القدامى الذين لا حاجة بهم بعدُ لبذر بذورهم مع كل ريح التماساً للطمأنينة، ولا لصبّ إيمانهم حججاً امام اول قادم .
كلُ ما كان ثمة من طفولي ومن محتدّ في سذاجتها القديمة ، قد طار شعاعاً ، ولكن من أجل أن يلتئم مجدّداً في ثقة صلبة بعودة العدالة ، في لحظة معيّنة –عودة لم يكن أحد يستطيع ولا ينبغي ان يتنبأ بها أو يسرّعها أو يذكرها علناً . كان هذا هو يقينها .

من أجل هذا ، لم نكن نتحدث قط عن المستقبل ، وقليلاً ما كنا نتحدث عن الماضي . كنّا على عبّارات قناة سانت–مارتين نَعُدّ الدرجات على رِجْل واحدة. كنا ننظر الى القوارب تعبر، جالسيْن تحت قطيفة أشجار الكستناء ، في تلك الحدائق الصغيرة ذات الحواجز المشبكة الصدئة التي تؤطّر هويسات القنوات ، حيث كان بعض العرب الصغار يتضاربون حولنا ويتلاكمون ، وبعض عشاق مفلسين يتبادلون قبلات نهمة على المقاعد . وكانت تروي لي زيارتها الصباحية الى العيادة والمستشفى ، وانطباعاتها عن المترو وعن قاعات الانتظار . وكنت أروي لها « فندق الشمال » . وسقوط آل « لوفاسور » والأساطير الغابرة التي لم يكن باقياً منها غير مصانع محوّلة لأغراض أخرى وحانات مهجورة وأكواخ مبقورة وركام من السيارات . بين القنال وجدران

طويلة عمياء . وكنا نذهب فنجلس غير بعيد عن ساحة القرية نصف الدائرية التي تواجه بوابة مستشفى سانت–لويس ، آخر ملجأ ذي أبعاد إنسانية كان ما يزال قائماً على حافة تلك البركة من البترول والخمر الرديء التي يأسَن فيها الحيّ . وكان طيف ميمي العجيب المغوي ، المكيّف جيداً مع زمن الكرز ، يبدد السرّ المشبوه ، ويدفع بالبؤس الى الزوايا ، ويشيع لحناً راقصاً عبر الأراضي المبهمة . وكان هذا السحر يجعلني أخفّف من غلوائي ، ولكني كنت الوحيد . كان الناس يلتفتون اليها في الشارع . كانت ميمي ، على غير علم منها ، ودون ان تكفّ عن ان تكون « رياضية » ، قد أصبحت ذات جاذبية جنسية .

ذات مساء ، كنا على سطيحة حانة ففتحت قميصها عن غفلة ، فكان أن لمحتُ دمعتين كبيرتين من لحم في أعلى صدرها ، حبتين أو نفاطتين صدفيتين كانتا تجمّلانها اكثر من تلك النقاط من اللؤلؤ المركبة على منجد والتي تذكرتها سريعاً لسقوطها تحت العنق ، في محور الكتفين . وسرّني ان أرى ان القنبلة التي كانت قد مزّقتها لم تحفر في لحمها ، بل على العكس أضافت هنا وهناك لمسات تزيدها جمالاً . وقد أحمرت خجلاً وهي ترى نظرتي . وأثنيت على زينتها — التي لاتقدّر بثمن ، والتي هي فريدة في العالم ، فأزدادت احمراراً .

مرتين أو ثلاثاً ، اختفت عدّة ايام لتظهر ثانية ، من غير ان تعلمني ، وهـي تستبعد الأسئلة . وغضبت ، وهي كذلك .

– انتِ ولدٌ فاسد !

– وانتَ شيخ ضعيف العقل !

– هرّابة ، دوّارة هواء ...

– انتَ مؤخرة مزيفة . . .

ألوانُ من التصنع ، والسحاب ، والحرَد . وكانت ضروب غضبها أشدّ قسوة حين تتناولها ، هي بالذات .

– انني أغشّ ، يابوريس ، أغشّ ... أنظر !

ومدّت لي وثيقة للتنظيم مضروبة على الآلة كانت تنتهي كما تنتهي جميع البلاغات والرسائل والخطب التي عرفتها الحقبة بالمنظومة الكلاسيكية : « النصر او الموت . المعركة مستمرّة » .

أجَلْتُ عيني في الوثيقة : – ومـاذا بعد ؟ النغمة نفسها ، أليس كذلك ؟

– ربما . ولكني انا مهزومة ، ولم أمت . وإذن ، فأن توقيعنا لا قيمة له . ليست هذه الا كلمات في الهواء !

كانت تشهر تحت عيني وثيقة اتهامها لذاتها ، وتضرب طبلة اذني بدعوى لاجدارتها القومية .

– كوني رصينة لحظة . يامس بلاكبورن ، بـليز !
اولاً ، لا تبدو عليك إطلاقاً هيئة امرأة مهزومة . ثانياً
« يارفاقي المتمرّدين ، كونوا آخر من يعيش لقتاهم حتى
آخرهم ! » إن من قال ذلك هو رجل مقاومة من عندنا ،
منذ وقت طويل ، حين كان الألمان يضربون بقسوة . إنه
شاعر مبطن بقائد . وقد بدت لي مقولته دائماً مصيبة ،
فماذا تظنين ، ايتها الأخت الصغيرة ؟ اذا ذهب الجميع
الى القتال ، فمن ذا يبقى هنا ليثأر لكارلوس والآخرين ؟

كوفئت جهودي الجدلية مكافأة سيئة . فترتا صمت
وثلاث هجمات مفاجئة ، مقابل نظرة وديعة . وكانها كان
غير متوقع . وكان ذلك متعباً ، لاسيما واني لم اكن أستطيع ،
في باريس ، ان أمنحها كامل وقتي ، إن هناك لقاءات سرّية
قصيرة ليست غرامية . اما لقاءاتنا فكانت إما غاضبة أو
مثلجة . كانت تنتقل ، على غير ما انتظار ، من العاصفة الى
السماء الصافية ، من الخصام الى الترهُّب . مقطبةً ساعة ،
لعوباً في الساعة التالية ، عنيدة أو مرحة ، مفرطة الخفة تارة ،
مفرطة الثقل تارة أخرى ، تترجّح بين موقف وموقف ،
وأنا معها أترجّح . كان الماضي يهبّ نفحات من حرّ أو
من برد ، محيلاً لون بشرتها من تورّد الى امتقاع . ومن غير
ان أكتشف شيئاً ، كنت مبلبلاً . كانت هي حقاً ، ولكن

ممزّقة أو مضخمة حتى التطرف . أشبه بمغنّية لم يتغير صوتها المألوف في الرنة بل في سلّم النغم. كانت تتأرجح بين الصوت المرتفع والصوت الأصحل . بين المزماريّ والكامد ، حين لا تكون في بكم الباب المسدود الذي أدقه عبثاً . وكـــانت تتردّد كذلك بين العتمة والضوء ، متأرجحة على حافة الحياة كمرشّحة للانتحار من أعلى السطح : تقفز أو لا تقفز ؟ وحين كانت تقرّر ، كانت تأتي الحكايات الطيبّة في تشابك الذراعين على الشوارع ، والنبيذ الأبيض في الحانة الذي كان يذكّرنا سانيتاغو ، وصينيات الأسماك ، فاكهة البحار ، فائحةً بالبترول او بالماء التـفـه الذي كان يبتعث فينا الحنين . ثم كانت تطفو فجأة على إفريزها ، صمّاء بكماء ، مغلقةً باحكام . ومن حسن الحظ ان غريزة البقاء فرضت نفسها ، وحين كانت ترتمي في الفضاء فقــد كانت تفعل ذلك في حميّا واندفاع .

ولا بدّ أن هذه الأرجوحة كانت تُتعبها اكثر مني . ليس ثمة من هو سيّد مزاجه، وقد كانت هي لعبة مزاجها — وفي غير ما هوادة . إنّ تقلّبات الذاكرة لا تُراقب نفسها ، وما السبيل الى الحدْس بالأطياف خلف الجبين تروح وتغدو ؟ وقد ثبت ميزان الحرارة آخر الأمر على الزرقة . كانت قد استردّت وزنها الطيّب ، ومزاجها الطيّب ، وسرعتها الطيبة ، أي سنّها . كانت في الثالثة والثلاثين . والحماقات

التي تُرتكب في تلك السنّ هي إجمالاً ثاقبة، حادّة البصر .

والدليل: انها لكي ترتكب حماقاتها، انحازت الى جانب الضفّة اليمنى . لقد حدّدت لنفسها جنّةً من الزخارف والحرائر رفضت طويلاً الخروج منها : شارع ريفولي ، وساحة المادلين ، وساحة الانتصارات . ومن سورها المليء بالأحلام والتسكّع امام الواجهات والانسياقات ، كانت تحمل إليّ في المساء حكايات مُندهشة . حين لاتكون قد التهمها في هذه الأثناء فمُ نفق مترو تتعرّج داخله طوال ساعات ، بلا هدف ، بين محطة وأخرى . وكان قد وقع اختيارها ، مما روته لي عن نَشواتها على طريقة « زازي » ، على خط « شاتليه—بورت دي ليلا ». سكّة حديدية اكثر هدهدةً ، وأطول مدى ، برودة الحافلات الـوظيفية . الإضاءة المخفّفة ، تنكيل الأبواب المعزّز ، كل ذلك ممزوجاً بلامبالاة في سيرورة القطارات على هذا الخطّ الحميميّ . وقد كان ذلك يذكّرها بالعربات النمسوية ذات الأنفاق التي لا تنتهي ، بين « فيلاش » و « سالزبورغ » . تلك التي تنقل الصبيان المتجهين الى مدرسة القرية المجاورة ، والمستشفين بالمياه الحارّة والنساء العجائز .

— ياعيني ! اعترفي بأنك أُهملتِ في باريس ، وبأنّك

فوّتَّ موعداً مع قائد « ايماري » كبير عند محطة مترو ، وبأنك تبحثين عنه يائسةً وانت تذرعين الممرّات ...

– على الإطلاق . أؤكد لك . ان المترو يثير كبير اهتمامي . لاسيما في ساعات الزحام . الناس في المترو . إني أشعر معهم بالراحة .

ولم لا ؟ لقد انعزلتْ وقتاً طويلاً بين السماء والأرض وأُرهقت بالنجوم والعلوّ . وعادت من السهوب والثلوج الحُبَيْبيّة. فلعلها كانت تعزيةً لها أو عِوَضاً، تلك الاهتزازات اللزجة في الساعة السابعة مساء ، حين تمضي غائصةً ، نائمة في هُلام انسانية لاعيون لها ولا وجه ، ممتصةً ومدفوعةً من محطّة الى محطة ؟ أتراها كانت تتذكّر آنذاك رِفْقةَ المذَلّين الغُمْل ؟ ام تراها كانت تريد ان تقوّي وَحْدتها الخاصة بتذويبها في وحدة الجميع ؟ الاّ ان يكون الأمر بكل بساطة يكمن في الإغرابيّة الديماسيّة أو جاذبيّة الروائح الباريسية الكريهة ...

ومع ذلك ، فلم يكن أيّ من هذه العادات المضحكة العصبيّة ، الخاصّة باولئك الذين يُترَكون مهجورين ولا يجرؤون على الاعتراف بها ، يرتعش على وجهها .

كانت تقول ، مشرقة الوجه ، منهمكة بشأنها :

– انني أنتظر التعليمات .

– ممّن ؟

– من التنظيم ، ايها الأبله !

– هل انت واثقة من أنه لا يزال قادراً على إعطاء تعليمات ؟

– وجواز سفري ، أتظنّ انه هبط عليّ من السماء ؟ صبراً ، يابوريس ، صبراً ...

لم أكن ، بعد كل حساب ، مُدّعياً . ولم تكن ميمي ، من جهتها ، عضواً جديداً لتمارس التخفّي . كانت في الماضي قد غطّت نفسها بالظلّ ، كما يغطّي آخرون أنفسهم بالمجد ، فلم تكن تخشى بعدُ المجالات المفتوحة ولا ضوء النهار . واذ كانت قد تعلّمت ، مرةً والى الأبد ، قواعد التآمر–التآمر الذي هو مهمّة ، وليس حالة– فقد تركت طقوسه تسقط . كانت متآمرة شفّافة ، مقاومةً سرّيّة في الحقول والغابات ، فأدركت انه لم يكن في باريس ، وفي أي مكان آخر ، ملجأ اكثر أماناً من الهواء الطلق . وان أفضل « صناديق الرسائل » لاتزال هي العلب الصغيرة من الصفيح المفرّغ المثبتة على أبواب البيوت التي تحمل الأسم نفسه ، وان الحدائق او الأرصفة العامة ، التي تفضُلُ المكتبات والمطاعم الفخمة ، تمثّل « نقاط اتصال » ممتازة .

وبالاختصار ، فإنها لم تكن تُجري المقابلات الاّ في الهواء الطلق . وقد كنا نتسكّع على الضفتين ، فنعبر العوائق بلا مفكرة ولا هموم .

ولكن ليس دائماً بلا عائق . كان التنبّه يسترخي على مرّ الأسابيع ، فانتهى بنا الأمر الى ان نستسلم أحياناً للريح السيئة التي كانت تردّني الى الضفّة الشمالية حيث لم نعرف الا المرارات . وانا لا أذكر هذا التفصيل من أجل المتعة . بل لأنه أسهم اكثر من أي شيء آخر في قلب علاقة القوى او على الأصح في اقامة علاقة بيننا غير ملائمة إطلاقاً . وقد كنت مع ذلك أعطيتها نظارات شمسيّة مظلّلة ، حتى لا يُرى بريق عينيها ، ونظراتها السيفيّة ــ مما كان يمكّن من إثارة التنبّة في عالم تقتضي اللياقة فيه ان يحيل المرء على الأشياء والناس حدَقةً متحفظّة ، متقزّزة او محايدة . ولم يحدث مرة واحــدة ان عبرنا عاصمة الفنون والآداب ، مــن « مونبارناس » الى « بون ــ نوف » ، من غير ان نقع على طفيليّ كنت أتظاهر بأني لا أراه ، ولكنه كــان يرهقني بالمناورات كتوأمٍ وجد توأمه . ولابدّ ان الطفيليّين تبادلوا كلمة السرّ . لم تكن باريس هي بعدُ باريس . بــل كانت التهريج ، وكانت النحس ! جميع الناس مرّوا بنا . أغرار ناقمون ، إمّعات متهورون ، أصحاب أوهام نحّابون ! حتى لكأنها كانت تخرجهم من جيبها ، وتوقفهم بنفسها عند

زوايا الطرق . لا لشيء الاّ لكي تفاجئني متلبساً بالتمثيل ، ممثلاً فاشلاً متواطئاً مرتدّاً . وكنت أتمتم بعبارة غامضة : « سيلفيا ... عالمةُ اتنولوجية عابـــرة ... لا تحسن النطق بالفرنسية ... » ويأخذ الثرثار المزعج في الدوران. لقد حلّت طاحونة السخريات ، لدى هؤلاء الأتقياء بالمقلوب ، محلّ طاحونة الصلوات . كانوا منهوكين بالبطولة ولا يـــزالون ممتلئين بذكرى معاركهم ، مثقلين ، بالمرارات والخيبات ، فكان كل من هؤلاء الشبّان يسرد على مسمعنا فصلاً مـــن « مذكراته » . وكانت هي تصغي في صمت ، متهللة بالخفاء ، وكانت ترميني بنظرات مدّع عام يصغي الى شاهد اتّهام طيّب طيبةً خاصة . بم كنت متّهماً ؟ « انهم اصدقاؤك ، أليس كذلك ؟ انهم يعرفونك أو تعرفهم ، فلا بدّ أن هناك سبباً ... »

بل لقد كان ثمة واحدٌ اصطادنا في أعلى جادة « سان ميشيل » ، وأجبرنا على الجلوس امام كأس ويسكي في « لاكلوزوري دي ليلا » ليروي لنا مآثرة اللاتينية ـــ الاميركية. وقد أخبرنا أنه تعرّف عن كثب الى كارلوس ، وكان يعرف كل شيء . كانت قاسية ، « المقاومة » هناك ، ومن حسن الحظ أنه كان ثمة أشخاص مثله مستعدّون لكل شيء .

سألته ميمي : ـــ مثل مَنْ ؟

فأجاب : ـــ مثلي .

وقد أدهشه ان يكون مضطراً لهذا التوضيح ، ثم واصل ، رابط الجأش ، «اوديسته» التي أودعها لدى أحد الناشرين وبدأ بسطـها في الصحف .

كانت ضربات المرقاش هذه تسقط عمودياً : كانت ترسم لوحةً وعلى رأسها مخططها منذ وقت بعيد . لم تكن فرنسا في عينيها الا تهريجية عريضة ، مجموعة من مغامرات «تانتان» ، لا تضحك من نوع : رصيف مقهى مـــدخّن يصنع ثلاثة مثقفين ، حول طاولة من طاولاته ، الثورةَ العالمية ، في حين يدخل خادمان ، يرتديان قبعة واطئة ، المقصورة والعصا تحت ذراعيهما، ويخرج متنكّر من المرحاض وهو يخفق بجفونه . كانت تردّ ، أضعافاً مضاعفة ، الصاع للكسالى الذين رأوا دائماً في بلادها هي ، الشديدة التقشف ، مشهد أوبريت صبّاريّة يـــرقص فيه جنرالات مزّينون بالريش ، فيجتازون النافذة حـــاملين حقائب محشوّة بالدولارات ، يلاحقهم «ثوريون» ذوو شوارب رافعين قنبلتهم ذات الفتيل ... ولكنها كانت في الواقع تردّ لي الدراهم ، بصفتها نصيرة صالحة للمسؤولية الجماعية وأخذ الرهائن . لم تكن تحتفل بالنصر احتفالاً متواضعاً . وكان الأفضل ان أضحك من ذلك : وكنت أفعل هـــذا بطيب خاطر – اما هي فكانت تضحك ضحكة صفراء وكانت ترى في تلك الزقزقات الخفيفة ضرباً من الدجل .

ـ اسمعي ، إن لكلّ فولكلوره . لكم الـــرشيشات والكولونيلات ومعاطف البونشو . ولنا الأرائك الطليعية ، وتقزّزات الحياة . يجب ان تفهم . كل شيء يتوقف على الأوضاع المحيطة . انها قضيـّة مردود لكل شخص : اكثر او أقلّ من الف وخمسمئة دولار لكل رأس : كل شيء يكمن هنا ، أؤكد لك ...

كانت تمضي عني من غير ان تقول شيئاً : مقطّبة . متقززّة .

ونقطة الماء ، كانت تلك التي اوقفتنا عند مفرق « دو بوسي » ، وكانت تتهيأ بحيث لا تباعدنا ـ والله يعلم كم أن أرصفة شارع دوفين ضيـّقة. كان يمثّل نقطة الماء هـــذه راديكالي شديد التأنق . ولم يُتح لي الا ان أقول لميمي :

ـ صبراً ! لا كلمة، بل مزيد من الاحترام : ان هذا نجم ، نجم حقيقي ، يتنازعه الناس .

كان في احسن حالاته ، فكان يستحيل ان يقال له الى اللقاء . او انه كان قد شرب ، لا ادري .

ـ ... عجباً اين اختفيت ماذا تفعل اين وصلت بالنسبة للأمر المعروف التطورات الأخيرة لـ GRCP هل يجب الردّ على افتتاحية ذلك الصحفي هل رأيت قذارة ذلك الذي تلفن للشخص ليقول له ألاّ يدعوني الى المناقشة التلفزيونية لقد

أصدرنا بياناً الا تريد ان توقعه الحقيقة أن الحصار ثلاثة تسللات فقط هذا الشهر بينما فلان مرّ خمس مرات مؤامرة للبورجوازية الجديدة الحمراء بالطبع القياصرة الجدد لقد رأيت التشيلي أليس كذلك هذا سيعلمهم نتيجة حماقاتهم بشأن الوحدة ضربة جيدة على الأصابع لا توجع الشيوعين قط انتهت الثورة الاشتراكية الاساطير القديمة مات ماركس ياعزيزي طارت الأقمار القـــديمة خارجاً الآن ارتعاشات التصعيد هناك لنا دور نلعبه أتفهم اننا نصبح لا غنى عنا لأن التصعيد نعرف طرفاً منه ما اسمك ياآنسة عفواً ...

لم تحافظ ميمي ، هذه المرة ، على أعصابها . كانت محبطة ، فغيّرت الرصيف . وقطعت شارع دوفين كلّه من غير ان تفتح فمها . وعندما بلغت « بون-نوف » انفجرت :

– وإذن ، فمن أجل هذا الخراء كلّه ، تخلّيت عنّا ؟

ودلّت على « السين » ذي اللون الأصفر المزرقّ أمامها. واتاح لي اللّبْس ان أتظاهر بالدهشة .

– ... أهذا هو بلدك إذن ؟ تنّور العجائب الذي كنت تحدّثني عنه في سانتياغو ؟ انت تمـــزح ! والحقيقة أنكم كلّكم هنا متشابهون . انت كالآخرين . لاتستطيعون ان تهبوا أنفسكم لشيء ،لأنكم لا تعترفون بشيء يكون اكبر منكم ، بشيء يتجاوزكم . انتم تفضلون أنفسكم على كل

ما تفعلون ، بل حتى على كل ما تؤمنون به ! هواء، هواء، وهذا كل شيء !

دفعتها الى مستديرة حجرية من تلك التي تحاذي الجسر :

— انتِ على حق ، وليس لديّ ما أقول . اهدئي ، واجلسي ، هنا . والآن ، إصغي إليّ . إن ما لمحتِه ، وانت تمرّين ، انما هي مِطْيَرَة للنرجسيّين ، مليئة بالمرايا والاصداء ، تسكر فيها مئة ذبابة بصورها ويزعج بعضها بعضاً من فرط الدوران . انها تُدعى « الضفّة اليُسرى » : أية أهميّة ؟ إنها ليست فرنسا ، حتى ولا باريس . ولا « رودولابي » الذي يبدو أنه يسحرك اكثر بتماسيحه ومجوهراته وعرسانه . في الضفة الأخرى ، طيور نادرة اخرى . الاثنتان هما مرايا للقبرّات ينصبها الباعة للأجانب ليجدوا فيها الفكرة التي سبق ان كوّنوها عن هذا البلد ... لا تقعي انت أيضاً في الفخ ... إن هناك اشياء كثيرة أخرى .. واشخاصاً آخرين .. ذات يوم ، سترين ما الذي يشبهه بلدي ... انتظري قليلاً ...

— الكوت دازور — هوذا ؟

إن « الحي اللاتيني » و « الريفييرا » هما ثديا فرنسا كما تُرى من الخارج . مع « بيغال » ، تحت ذلك ، بين الساقين . وهذا الجسم المشوّه يجعل جميع العيون تغمز ، من بوليفيا الى التايلاند ...

ــ اناك تزعجيننا ، ياميمي ، ببطاقاتك البريدية .سأريك أمكنةً لم تسمعي بها قط . خشنةٌ ومتحضرة معاً ... هل تعرفين « السيفين » ، منابت الزان في « الجبل الأسود » ، « كوس » الكلفانيين ، صحارى « سوفوتير » و « ميجان » ؟..
أتراك قد انتجعت في سهل « فيركور »و « باراكروسيه » ؟ أتريدين أن ننحدر معاً الى غابات البلّوط في مستواها الأدنى ؟ إني أنبّهك ، ستجدين في غابة « لانت » ظباء الجبل ، وخنازير بريّة ، وطير القرقف ، وملتهم الذباب الأسود ! الا يعني لك سهل « الفيركور » شيئاً ؟ ألم يحدّثك أبوك عن المقاومة السرية في فرنسا ؟ أتعرفين « فال داران » قرب منابع « الغارون » ؟ أترين ان نصعد الى « غانا غوبي » بطريق « الموان » ، على آثار « هوسار » لنعانق وادي « لا دورانس » كلّه ؟ اختاري ! كلمة واحدة ، وننطلق غداً صباحاً !

ــ فات الاوان قليلاً للسياحة ، ياعزيزي بوريس . لو كنت تعلم ...

ــ لو كنت أعلم ماذا ؟

ــ غداً . في حديقة « مونتسوري » ، سأروي لك كل شيء . وبانتظار ذلك ، ادعوك الى « اللوفر » على نفقة التنظيم بشرط واحد : ان تؤمن لي زيارة متقودة. ومفسّرة ، ومليئة بالحب ...

كانت إشارتي الى المناظر الغولوازية الكبرى قد أزال على الأقل تقطيبها . وكانت تطلق بسمة من تلك البسمات التي تطلقها ماكرة صغيرة اكتشفت وعاء مربى الغريز في أعلى الخزانة . اما انا ، فقد كان بإمكان وعاء المربى ان يفقأ عينيّ ، ولكني أمرّ دائماً الى جانبه .

– إن زيارة مقودة ، يامس بلاكبورن ، تكلّفك خمسين فرنكا للساعة . تعرفة ربيعية خاصّة للسوّاح الاوستراليين .

– إنك ستدمّر ميزانيتنا ...

– ليذهب الشيطان بالبخل ! تعرفين اللازمة : تفرّج على باريس ومُتْ ...

هذه المرة انفجرت ضاحكة ، بسلامة نيّة .

* * *

كانت هذه كلماته الاولى :

– « انايا » في هامبورغ . في القنصلية .

فتاة صغيرة شقراء ، ممتطية حصانها الخشبي ، وهي تنادي « بابا ماما » .

– هل تريد ذلك ؟ يجب قطعاً ان يكونا اثنين . الخطّة جاهزة .

كان زوجٌ من المتقاعدين يتّجه الينا بخطى قصيرة . وعلى

مقربة من « باردو » البئيس ،كان النرجس والخزامى ينحنيان تحت النسيم.وكانت الشمس لا تزال تلعب في أشجار الكستناء، وفوق البحيرة ذات التمّ المنتوف . وكنت أستردّ نَفَسي ، مستنداً الى الجذوع الاسمنتية للجسر الصغير . « ايتها العدالة . إعطينا غايتنا اليومية . إعطينا القوة والرغبة بألا نتوقّف على حافة الطريق . إعطينا الشجاعة والسيقان لنمضي ثانية بعد المرحلة . آمين »

– ما هذه الحكاية ؟ هل حلمت ؟

– يحدث لي ذلك . ولكن الحكاية صحيحة . لقد أرسلوه يشمّ الهواء كقنصل عام ، باسمه الثاني . لكي يُنسى ، على ما أتصوّر . ويبدو أنهم على وشك ان يستدعوه .

– منذ متى وانت تعرفين ذلك ؟

– منذ لندن .

– لم تقولي لي شيئاً .

– لو قلت ، لكنت وبّختني توبيخاً شديداً .

– لم تكوني انت من قام بالتحقيقات ، كما أرجو ؟

– لا . بل هي الصديقة التي حدثتك عنها في لندن . ولكنها لا تعرف لماذا . ورفيق، كان عائداً من هناك . وقد تسلّمت التقرير منذ يومين .

– وإذن ؟ فقد اشتغلت شغلاً قاسياً ، المتعطّلة !

– ما تظنّ اني كنت أفعل حين ذهبت من هنا؟ دورات غائية ؟ انتصارات في النوم ؟

– لا . بل اختفاءات مع عشيق في سيارة الفاروميو . مدير مصرف شاب مجنون بك . دوفيل ، مونت–كارلو . يحق لي ان أحلم ، أليس كذلك ؟

– نعم ، ولكن ليس بالحماقات .

– ولكن بم تريدين ، ياأختي الصغيرة ، أن افكر ؟

– بي ، مثلاً . اذا ظننت أنني انما كنت أتركك من أجل متعتي ..

– المال ، السلاح ، سيّارات الشحن ؟

– كنت أنتظر جوابك لأنجز هذا كلّه . معاً . برأس مرتاح .

– وغطاؤنا ؟

– أسخف الأمور اكثرها أماناً : عروسان في شهر العسل . ليس الأمر معقداً ، الا ترى ذلك ؟

كنت أنظر الى مكان آخر . الزوجان الشيخان اللذان كانا يلهثان ايضاً على المقعد المجاور . إن جميع شيوخ حديقة « مونتسوري» مقدودون في شكل واحد .

– الاتعتقدين أن هذا يعقّد كل شيء ؟

هزّت كتفيها :

ـ انظر ، يابوريس ... سيقال إن الشمس ستطلع من جديد . إنني احبّ الأمسيات كثيراً ، هنا . انها تشبه فجراً يغيض ، نوعاً من منحة ٍ ضوئية عند الوصول .

ـ لقد وجدت سرّ الشفق والغسق في بلدي . إن هذا لايُرى الا في فرنسا .

ـ لا . هذا هو الشأن في العالم كلّه . إن هناك ، في كل مكان ، لحظةً حين يهبط فيها النهار فكأنه يبدأ من جديد .

وأمسكت بذراعي في رقّة .

# الفَصلُ الخامِس

منذ اليوم الذي استيقظت فيه ايميلا في سريرها الحديدي ، وفي حلقها تلك الكتلة وذلك التجويف في بطنها اللذان لم يغادراها بعدُ قطّ ، انقضى زهاء تسعة أشهر ، وكان هو اليوم نفسه . كان ثمة ساعات بيض وحُمر وسود : الساعة الآسنة نفسها التي كان ينطبع سطحها بانعكاس من غضب أو حنين او لا شيء . كان الزمن قد توقّف في فرقعة زجاج محطّم ، وكانت هي باقية في الداخل مشلولة لا لون لها . منذ تسعة أشهر . كانت ساعة ذات عقارب ثابتة تتكتك عبثاً . كانت تسمع صدغيها يخفقان ، وكان ذلك صوت دمها ، هناك ، في غرفة الجلوس بالبيت الذي كان كارلوس وماريو يقومان فيه بالرصد . نبضها نبض تمثال مباغت ، في وجه المستطيل الأزرق الباهر الذي سينبثق منه الموت بعد لحظة . تلك الزرقة الموتية ، تلك الزرقة الثلجيّة —سماء ذلك الصباح— كانت قد بقيت في عينها كـوردة مضيئة . كانت

هي ، تلك الشعلة الثابتة لأعمى مُفرط الصحو التي كان بوريس قد ظنّها كثافة . والحقيقة أنها لم تكن ترى شيئاً بعد ، ولا تسمع شيئاً ، ولا تفكر بشيء . كانت تجتــاز الحدود خمية ، وتنتقل جامدة من مدينة الى أخرى ، وكانت نهارات ساعة ، وأسابيع يوم ، و الشهور اللامجدية تنقضي من غير أن تخفّف خمق النبض هذا ، المكتوم تحت الضحكات والكلمات . « سيكون الغد يوماً آخر » هذا ما كانت تقوله لنفسها في تقى . كل مساء وهي تغمض عينيها ، وكل صباح كان يجيء التكذيب الباهت نفسه .

وقد كانت لتترك نفسها تنسال في جوف سريرها لو لم يكن الكبرياء يجبرها آنذاك على ارتداء ثيابها . الكبرياء وصوت كارلوس : « يجب الصمود ، يا ميمي . وليس غير » كان صمودها هي ، الآن : ان تبقى واقفة . ان تخرج ، ان ترتدي فساتين ، ان تتزيّن كل يوم على نحو أفضل قليلاً . كانت ايميلا قد رفضت ان تتخلّى ، ووضعت قدماً امام أخرى وفي رأسها تلك الفكرة وحدها : أنها لم تكن تستطيع ، وما كان ينبغي لها أن تموت قبل ان تكون قد رأت مرة أخرى الزمن الذي لا تشبه فيه ساعةٌ ساعةً أخرى ، والذي تطير فيه الساعات جميعاً لأنها كلّها فريدة ، قبل ان تكون قد سيرّت من جديد ، ولو لبضع ساعات ، عقرب ثواني

السعادة الذي يُنسينا خفق أصداغنا، لم يلامسها طويلاً ، في سفارة ايطاليا ، وفي مكسيكو ، وفي لندن ، إغراء وضع حدّ لأيّامها : « انا مقاتلة . ولا يستطيع المرء ان يقتل نفسه حين يحتقر نفسه . لأنه في تلك الحالة يجب ان يزداد احتقاراً لنفسه . انني لا أستحقّ بعدُ ان أنتحر . لم يئن الاوان بعد » . في اليوم الذي تلقّت فيه وهي في لندن رسالة مرموزة من راوول تخبرها ، مع علامة استفهام ، بوجود « انايا » في هامبورغ ، في الدقيقة نفسها التي فرغت من فك رموزها ، دلّتها رعشةٌ أنتابتها أن توقُّف الزمن ، في أعماقها ، ربما كان قابلاً للتصحيح . وذلك المساء نفسه ، خابرت بوريس في باريس .

ولكن بعكس ما كانت قالته له ، لم تكن تنام وحدها ، منذ ان كانت وحدها . كانت ايميلا النهار تريد ان تعود النهارات من جديد . إن المرأة العنيدة ، ذات المعصمين العريضين القاسيين الشبيهين بمعصمي صبيّ ، كانت تملك ، لسوء حظّها ، جسد امرأة كان يجعلها تعيش مرة أخرى العناق الأخير قبيل المعركة . كان كارلوس « خسارة حربية » . ولكن الجثث ، في ايام السلم ، ذات حياة قاسية : هناك منافسةٌ أقلّ ، ويحتفظ المرء بالصور . كان في كوخها اللندني يضمّها عند الفجر ، متمدّداً عليها ، ويمنحها لذّة كانت تستيقظ منها منتفضة ، كأنما من كابوس ، غارقة

في العَرَق، ملويّة الفم: « لا تذهب ! لاتذهب! » وتنخرط في البكاء، خجلاً وغماً وفرحاً. مَنْ واين تراها كانت لتلمس جسداً متلاشياً ؟ كانت تلكَ الانتعاظات المستحيلة تُرعبها، وتشوّش الزمان والمكان، وتجعلها تشكّ بحياتها نفسها. إن موت كائن شابّ لا يخلق فراغاً عند من بقي حيّاً، بل يسدّه ويزحمه. كانت ايميلا مسكونة بشبح ذي دم حارّ، فكانت تفيض بكارلوس، تختنق به. كان ذلك الجوّال الذي لا يُراقب، والمقتول منذ بضعة أشهر، يـــردّها بلا انقطاع الى خلف، يبللها بالعدم في نهاية الليل. وكانت فكرة فظيعة تخترقها أحياناً: ان شهوة الأرامل شبيهة بألم المبتورين. انتصار للحواسّ على المادّية الفظّة، كما يقولون، يعطي الرغبة في الانتحار.

وصلت رسالة راوول في حينها. بالرغم من انّها لم تعط ايّ توجيه، بل كانت توحي بعلامة تحتاج الى تحقيق. انايا متستراً بدبلوماسي، منقولاً خفيةً الى قنصلية من درجة ثالثة، في متناول اليد! هذا النبأ الذي لا يُصدق نبت من تلقاء نفسه في رأسها كمشروع عملية، لأن جسدها في ذلك الوقت، كان بلا شك يتلمّس نفسه بعد بَتْرٍ نهائي. هل تنقطع نهائياً عن الماضي وتقفل الحلقة كلها ؟ كانت وهي تتحدّث الى بوريس، في شوارع لندن أو في غرفتها، تفاجيء نفسها أحياناً وكأنها في سنةٍ سابقة. كانت تغمض عينيها، وها هي

ذي تتحدّث الى كارلوس الذي لم يكن بوريس ، من غير ان تعلم ذلك بعدُ ، إلا امتداداً لـه وخلفة . كانت تلذّ لها هذه الالتباسات ، كما تلذّ لها فيوضها الليلية . كان بوريس كارلوس ولم يكنه. وهي نفسها كانت ايميلا ولم تكنها بعد. إن نصف امرأة مع نصف رجل لا يقومان بالأمر ، لا يصنعان الزوج . ما كان أكثرها حبالاً يجب أن تقطع في جانب الموتى ليستطيع كل فرد أن يستردّ يوماً ، إن لم نقل كماله المفقود مرةً وإلى الأبد ، فعلى الأقل حدّاً أدنى من كماله الجسميّ . وكيف لها أن تنفصل حقاً عما كانته من غير أن تتعلّق بشخص آخر ؟ أو بعمل تشارك فيه يصفّي حساباً مفتوحاً ويلأم جراحها هي ؟

في لندن، كان بوريس قد أخرجها من خدَرها إذ جعلها تتذوق تسويةً عذبةً — مرّة ، ومناسبةً حقاً ، بين اميركا وأوروبا ، بين موت الأمس وحياة الغد . وكانت تتأرجح بين الأولى والأخرى ، ولكن لا بدّ يوماً أن تنكفيء . وأياً ما كان ، فحين رأت السيارة التي كانت تعود به إلى المطار تختفي ، انبثقت بديهةٌ كانت قد انطبعت على شفتيها : لم تكن تستطيع أن تبقى بعدُ في الغموض. إذا كانت تريد أن تعيش مرةً أخرى، فلا بدّ لها من أن تقتل كارلوس في نفسها . كان لا بدّ من أن يسيل دم أحد ليولّد إيميلا أخرى . لم يكن انايا بعيداً — فهو وشأنه . كان يستحقّ ذلك

كل الاستحقاق. وبدأت تعطي هذه المناضلة المستقبليّة ذات الندوب الناعمة والنبض الذي لا يُسمع اسمَ معموديّة : اماندا . بسبب أغنية فكتور جارا ، من غير شك ، ذلك المغنّي التشيلي الذي كان قد قُطع معصماه في ملعب « سانتياغو ». اسم جديد مستعار لتطرد حرارة الذكريات وتواصل الحرب داخل جلد امرأة مجهولة كانت تستطيع على الأقل أن تعايشها من غير أن تحمرَّ خجلاً .. وكان ينبغي لها أيضاً أن تفكر بحالتها المدنيّة . وفي اليوم التالي، طلبت من صديقة استرالية واحدة من اثنتين أو ثلاث كانت تعرفهنّ في لندن — أن تقوم برحلة ذهاب وإياب إلى هامبورغ لتحصل لها إن لم يكن على صورة من القنصل البوليفي ، فبالأقل على تسجيل لمحادثة تليفونية وعلى دليل قنصليّ للمدينة — ولكن من غير أن تظهر أو تذكر هويّتها . وحين عادت صديقتها ، وتمّت تلك التحقيقات ، اختلست لها جوازها من محفظتها . فحكّت رقمين ، وغيّرت الصورة وأصلحت الطابع الجافّ كما كانت تعلّمت . وهي تفكّر بأن القناصل الاستراليين، عبر العالم ، سينزعجون كليّاً إذا لم يتلقّوا بين الحين والحين تصريحاً بفقدان أحد الرعايا . وحين سافرت للقاء بوريس في باريس ، لم يكن هدفها بعد أن تبقى على قيد الحياة، بعد موت آخرين ، بل ان تولد من جديد .

كانت قد وُلدت مرة اولى مع كارلوس ، لأنها معه

كانت قد عاشت حقاً ، كياناً واحداً ، بلا تزييف . أما مع بوريس ، فقد عانت من أن تدشّن حياتها الجديدة وهي تمثّل . لقد حاولت أن تتجمّل ، ولكنها ظلّت قبيحةً من الداخل . كانت تريد أن تكون ربيعية ومنطلقة ، وكانت قد حرّمت السواد والازرقاق الدائريّ حول العينين ، ولكن كانت في الداخل ايميلا ثلجية ذات سحنة رماديّة ، كعجوز قصيرة متجمّعة في حزنها ، تترصّد الأرملة الطروب المرتدية ثياباً قصيرة . لم تكن تُساقط أوراقها إلاّ لتتستّر ، ولم تكن تعيّث في الدكاكين ومجـلات الدُرجة إلاّ لكي تصطنع لنفسها وقاءً من القماش الموصليّ . ولكن من غير أن تنجح : كانت تنظر إلى نفسها وهي تتغيّر ، فلا تحبّ نفسها . والدليل على انها لم تكن تحبّ نفسها هو أنها لم تكن تكفّ عن أن تنظر إلى نفسها . وان تعود فتشنّ وحدها الحرب في هذه البلدان المسالمة ، وأن تخض نارها بين رجال خَرِعين ، ذوي نظر منطفيء ، كان ذلك يقتضي كثيراً من العناد والمكر . كانت تملك العناد ولا تحسن المكر ، وبخاصّة إزاء بوريس . كان قد رماها بقوله ذات يوم في باريس :

— أخفي لعبتك . ضعي نظارات سوداً . إنك تبدين مُفرطة الاقتناع ، وحتى إذا لم يعرف الناس بمَ أنت مقتنعة ،

فلن يجدوا هيئتك كاثوليكية جداً . لا تنسي أن ليس هنا من هو مؤمن .

وكانت قد وضعتها ، نظاراتها السود ، ولكن حتى لايرى في عينيها الرغبة التي كانت تأخذها أحياناً بأن تتجمّع بين ذراعيه ، وان تروي له كل شيء .

— أجل ، أريد حقاً أن أُدلّل ، ولكن على ما أنا في الواقع . فعلى مرّ الأيام ، سأصبح عاهرة ، وأنسجم في اللعبة.

كانت الظنون التي تصرفها إلى الخارج تحطّ داخل نفسها وتصبح عنيفة .

— انني بحاجة ماسّة إلى شخص ما ، من أجل العملية . ولكن ليس ثمة من هو بحاجة إليّ ... هذا فظيع ... فظيع !

وكانت تُمرّ ذراعها تحت ذراع بوريس ، مبتسمة للشمس والدموع في عينيها .

كان لا بدّ لها من أن تكذب عليه لتقيم أدلّتها على أنها مقاتلة ، ولكن كان لا بدّ لها كذلك من أن تثق به لتستردّ ثقتها بنفسها . وكانت تلك التي تحدّثه بصوت عالٍ تستعد للمعركة ، اما تلك التي كانت تتحدث الى نفسها سرّاً ، فربما كانت تتهيأ للحبّ ، ولكنها لم تملك الجرأة على ذلك. حتى متى لعبة التخبئة هذه ؟ حتى عودة الرفيق الذي كان راوول قد أرسله الى هامبورغ والذي كان المفروض ان

تلتقيه في امستردام لتتفحّص بدقّة تقريره عن داخل القنصلية وجوارها ، باعتبار أنها وحدها كانت تستطيع تقرير ما اذا كانت العملية قابلة للتحقيق ام غير قابلة ، وبأي ثمن : فمن الذي يستطيع خيراً منها ، هي الألمانية تقريباً ، التسلّل الى جمهورية المانيا الاتحادية ، وان تهرب من غير أن تُلاحَظ ؟ ولكن اتكون اقلّ خوفاً من انايا منهامن بوريس ؟ كانت تعوم في حقيقة قلقة ، من غير ان تعرف اين تحطّ ولا ما الذي ستؤول اليه . ذلك هو القدر التافه لجميع لاجئي العالم : ان ينتظروا ليل نهار بين بابين مغلقين ، بين مسقط رأسهم الذي طردهم وبلد الاستقبال الذي لن يدخلوه ابداً كلياً ، ممزّقين بين ذكريات لا تُحتمل ومشروعات غير قابلة للتحقيق — رافعات من غير نقطة ارتكاز . ولم تكن المرأة التي تتحمل طويلاً هذه العرَضيّة . كانت في حاجة على الأقل ، سواء أكان ذلك في اللاشرعية ، أو الوحدة او الموت ، ان تحسّ انها في بيتها . ان تعرف بأي شيء وبأي شخصٍ تتشبث . وفي هذا الضلال ، كان بوريس هو وحده معلمها ، مرساها الأخير . هذا الرجل العَرضيّ كان رجل الموقف حقاً ، رجل هذا الحاضر المليء بالثقوب والغيبات الذي تمتلكه بوضع اليد ، لعدم وجود خيرٍ منه . معه ، لم تكن تخون الماضي ، من غير ان تُلزم شيئاً من مستقبلها .

كانت تهرب منه وتعود اليه رغماً عنها تقريباً ، كما كانت

تهرب من نفسها من غير ان تنجح في الإفلات ، كما كانت تهرب من الجميع ، بمن فيهم الباقون على قيد الحياة من التنظيم الذين كانوا يسعون الى لقائها . كان مستحيلاً ان ترى هؤلاء من غير استياء . امام الرفاق، لم تكن بعدُ هي نفسها، بل امرأة البطل . وفي كل مرة ، كانت قد قرأت الدهشة في عيونهم : « مع هذه الفتاة إذن ، قد عاش ؟ » ، وكانت تؤثر صرف بصرها قبل ان تقرأ التتمّة : « لئن كان قادراً على حبّ هذه الفتاة ، بعد كل حساب ، فلانه لم يكن خارقاً الى الحدّ الذي يقال عنه ... » كان أخو كارلوس وأمّه ، اللذان لم تكن تعرفهما ، قد كتبا له وأرسلا لها رسلاً . كانا مستعدّين لعبور الأطلسي ليريا كارلوس ثانيةً عَبْرها ، لحظةً واحدة . كانت تتظاهر بالصمم وتظلّ مختفية . كانت قد اتخذت قرارها : إنها لن تتحمّل نظرات أقرباء كارلوس أو ذويه إلاّ يوم تستطيع قبول التحدي وإجابتهم بصمت : « هأنذي . إنني أنا نفسي . إنني مستحقّة. وترون جيّداً بأن كارلوس كان على حق بأن يحبّني » في اليوم التالي لرحلتها إلى هامبورغ . وليس قبل ذلك .

إذن لماذا بوريس ؟ سؤال معذّب كانت تودّ لو تتركه بلا جواب ، وكانت تعجز عن ذلك كل يوم أكثر فأكثر . وكان الأمر سينتهي بالجواب إلى الانفجار ذات يوم : بسبب من زهدها بالوضوح — الغامض والمواقف المزيّفة . كانت

تغفر لنفسها أن تمارس السياسة ، أي أن تتلاعب بالآخرين : كان لا بدّ لها من ذلك ، فقد كانت تدلّل على قوّتها حين تكتشف مقدار قدراتها في هذا الميدان . ولكنها لم تكن تغفر لنفسها ان تغشّه هو : أكان ذلك ضعفاً ؟ كانت قد تردّدت قبل أن تأتي إلى باريس ، واخيراً انتصرت فرحة دخول عالم بوريس على خوف النفور منه . وإذ وصلت ، انعكس الوضع . فقد بصقت في وجهه . الاحتقار الذي كانت تكنّه لعلاقاته ورفاهيته وتلك الطريقة التي يتبعها لكي يدفن ،تحت الوان التهكّم والسخرية وهو يحطّ نفسه ، معركتهما القديمة لينسيها زمن المشاركة . ولكن الباقي كان يبقى في حلقها ، او يخرج معكوساً . كانت تعنّفه لتعاقب نفسها ، وتأخذ عليه ان يكون الى قربها وتنتقم منه لإفراطها في الطلب . في لندن ، كانت قد تعرّت معنوياً أمامه : وكان ذلك يستحّق أخذاً بالثأر . « ومع ذلك، فليست هي غلطته اذا لم يكن كارلوس واذا كانت لديّ الرغبة ان أحبّ ، رغم كل شيء ، ورغم ان هذا مستحيل . » ربما كانت فظاظاتها دعواتٍ لبقة ، ولكن رأسها كان ما يزال مقلوباً اكثر مما ينبغي لتقول صراحةً ما لم تكن تجروؤ على الحدْس به . « هذا طبيعيّ ، فانا لا أستطيع بعدُ ان اقف وحدي !ومع ذلك ، فلن أقع في حسد عكّاز ! » بيد أن فكرة ان يستطيع بوريس مواصلة طريقه بدونها كانت قد بدأت تتأكلّها .

وقد كانت على حق في ان تقاقمها هذه العزلة : فهي لا تتم ابداً من غير ان تعاق فكرة أنانية على ما يفعل المرء . لم يحدث مرة واحدة ان تصرفت ايميلا لحسابها ، بلا وكالة ولا مهمة و بلا رفاق ولا قائد. والآن، لم يبق لأماندا شيء ولا أحد ، حولها ولا فوقها . إن العزلة تقود الى الأعمال غير المسؤولة ، وكانت اماندا عازمة على ان تبقى مناضلة ليس همها ان تكون استثناء . وانما ان تحسن العمل ، وليس بالضبط ان تحسن مطاردة ظلها ، ولا ان تهزأ بانعكاساتها في المرآة . كانت تحتقر المحتقرين ،ولم تكن في حرب مع ذاتها، بل مع اعداء مضفورين بشرائط كانت تطعن في تفوقهم الموقت . «أجل ، انا على حق بأن أفعل ما أفعل . ولكن اذا لم يمتزج الشغف والحماسة بذلك ، فسوف أغدو مغامرة . إنني لا أنتسب لشيء ولا لأحد،ولا يستطيع المرء ان يعيش على هذا النحو . » وقد كانت أماندا ، بعد الانتكاسات التي أصيبت بها ، بأمس الحاجة الى رفيق تعمل معه . وعشية طرح مسألة الثقة ببوريس ، أصبحت وخزات الشك خفقات ، وهذا القلق الحميمي المفرط أقلقها أكثر من خوفها من الرفض .

بعد أربع وعشرين ساعة ، كانت تنسل من باب حديقة مونتسوري ، ببولفار جوردان ، مذهولة وخفيفة بين المارة ، ليست أقل تخففاً من مجرم في الدقيقة التي تلي الاعترافات .

كان بوريس ، بموافقته . قد ردّ لها الاوكسجين . وبدءاً من صدقٍ وشرف . « اذا كان ثمة من فخّ . فنحن الآن اثنان لنسقط فيه . اثنان ... مثل « نحن الاثنين » والرواياتِ المصورة ؟ ... لا ، لا أستطيع . لا أدري . ينبغي الا أفعلَ ذلك. حين ينتهي الأمر مع « انايا » ، سأبصر طريقي بوضوح اكثر . وحتى يحدث هذا . لا يزال امامنا وقت . »

* * *

كانت جميع الألوان الرمادية تتــلاعب معاً في سماء صَـدفية ممتقعة ، حين ألتقيا في الميناء ، في لاندنغسبروكن ، رصيف سان ـــ بولي . كان كلٌّ منهما قد قام بالرحلة مـــن جانبه : هي عن طريق هولندا ، في سيارة مستأجرة ، وهو مباشرة بالطائرة . ووصلا في اليوم نفسه ، ودلفا معاً في ذلك النور العنيف النيء ، وتلقيّا في اللحظة نفسها الصفعة البحرية الكبيرة التي أورثت خدودهما تورّداً ، ورئتيهما قدحاً كبيراً من اليود والحيّز . إن هامبورغ مدينة ذكورية ودقيقة ، تعدّ عدداً مماثلاً من الساعات والأشجار . وقد كانا دقيقين في موعد اللقاء . ففي الدقيقة التي دلفت فيها إلى المحطة ، من جانب القبّة البالية التي تغطّي النفق القديم تحت « الإلب» برز هو في الجانب الآخر . حيث تنتصب المنارة التي بلون البرج المصفَّح . وفي منتصف الطريق . اصطدم بها . وقد وجدها بوريس ، بقبعتها البحرية ، وقميصها النيلون ذي

الياقة الفرو ، وبنطالها المخمليّ اللاصق وحذائها الجلديّ الأحمر ذي الكعب العالي ـ وجدها بذلك كله متغيّرة وهي نفسها تماماً : منسجمة غريزياً مع صراحة المشهد الخشنة ، هذه التدرّجية المصدّأة بالرذاذ ، منذ برج أجراس « سان ـ ميشال » حتى أبراج « ألتونا » وهياكل السفن الشاحنة الموضوعة في الترميم . كانت تنبعث من ذلك رائحة السمك المقلي ونقيع الملح والقطران .. وأحسّ بوريس من صراخ القبّرات ومن حقل الكركيّ ذي الأسهم المتأرجحة المختفي على مدى النظر ومن القمع الهائل للأفق البحريّ ـ أحسّ من هذا كلّه إحساس سُكْرٍ ملحميّ . كان يتهاوى نحو المجهول ، نحو عُرض البحر ، ونحو الرحلات التي لا عودة منها . وأرخى قلوسه زورقُ سيّار ، من تلك التي تقوم بدورة المرفأ فسارعا يعبران الجسر ليجلسا في المقاعد الأولى ، تحت هبّة الريح المالحة . كانا وحدهما على المقعد الخشبيّ .

وظلاّ ردحاً من الزمن نَزِقَيْن لا يتكلّمان ، تجاه منظر الميناء المُذْهل . وأخذ مكبّر صوت خلفهما يهدر بأسطوانة الزيارات المقودة . ولم يكن بوريس يدري ماذا يحبّ أكثر ، هذا الصوت الحنجريّ ام كونه لا يفهم شيئاً مما يقول .

ـ الحدود ؟

ـ ممتاز . إنهم لم يطلبوا مني حتى جواز السفر .

— والمواسير ؟

— لا مشكلة . أخفيت كل شيء غير بعيد من هنا . زاوية ضائعة في براح . قرب « لونبورغ » .

— وما نوعها ؟

— « كولت « ٣٨ » و « ولتر »

— ما مصدرها ؟

— « تونيو »الرفيق الذي أرسله راوول .

— مَنْ يعرف الأمر ؟

— كلاهما .

— وأنّي أُرافق العملية ؟

— أنا .

— حتى ولا راوول ؟

— لا .

— نوقف هنا التعداد ، أيتها الأخت الصغيرة ؟

— طيّب . ولكن لا تُسمّني أختاً صغيرة .

— قولي . هذا كلّه ليس بالمجان ؟

— تسلّمت الخمسة آلاف دولار قبل الذهاب .

— من نصير للآداب والعلوم ؟

— من الأرجنتينيين . التضامن لا يزال موجوداً .

— نستطيع أن نشتري سيارة مستعملة من أجل العودة .

— تمّ ذلك . انها تنتظرنا في مرأب .

— ارفع لك القبّعة ، يا ميمي !

— اماندا !

تنقّلا طوال ساعتين عبر ستين كيلومتراً من الأرصفة والأحواض التي تحاذي المصبّ . وفي الأنبار ، وعلى الوُرش ، كانت السفن خارج الماء تصيبهما بالدوار ، وكانا من قعر قاربهما يتأمّلان فاغريْ الفم الغواطس الشاقوليّة والمراوح المرتفعة كالبروج والصوالب المائلة . وكان الذباب يتطاير على الأرصفة . وكان القالفطون والدّهانون ، الواقفون على الإسقالات ذات البكرات ، يشبهون منظّفي الزجاج في نيويورك . وقد كان صرير الرافعات والجسور الدائرة ، وضجيج الدواسر والحفارات والمطارق على المطيلة ، وصفارة سفن الجرّ الضخمة وفرقعة الصنادل والمحركات — كان ذلك كلّه يُغطيّ نداءات عمّال الأحواض والبحارة على الجسر ويرتدّ في أعماق رأسيهما اللذين أفرغهما الذهول . كان عليهما ان يتكلّما بصوت مرتفع ليسمع أحدهما الآخر . وكان صوتاهما في ذلك الضجيج يحفران عُشّاً حميمياً .

— ويدكِ ، كيف حالها ؟

— يبدو أن الأعصاب نمت من تلقاء نفسها من جديد .

الطبيب لا يصدقّ ذلك . يقول اني املك صحّة حصان ، وجسماً يعرف ما يريد ... انظر !

وبسطت ذراعها في الظلّ . فمدّت أصابعها وطوتها عدّة مرات . من غير تكشير . بفمٍ مستدير مندهش . ولم يسبق لبوريس ان رآها تبتسم على هذا النحو : جميلة وعازمة وعذبة الارادة . ومن جهة البحر . كانت الشمس الغاربة تقزّح القطن الشفاف المرتفع في الأفق ، وتلوّن بلون النحاس الماء الأسمر المشقرّ الذي كانت تعوم عليه تموّجات مخضرّة من المازوت .

— ما قولك في أنهم منذ تسعة أشهر كانوا يريدون أن يقطعوا ذراعي ؟ لم يكن السخفاء يثقون بي . إن لي مع ذلك طبيعة طيّبة . هذا واضح . أليس كذلك ؟

— من حسن الحظ أنّها هنا . الطبيعة . لتصلح هفواتنا. ولكن انظري قليلاً ما صنعوا بالطبيعة ...

لم يعتد بوريس زيارة المصانع . فكان مذهولاً . لقد استطاع بعض الرجال إذن ان يصنعوا هذا الجرس الهائل من السخام والقطران والصدأ . بأبعـــاد عالم . أبعاد عالم اليوم . فماذا كانوا في وجه هذا الكون من الفحم الحجري والنفط والكهرباء ، هذا الكون العمودي المُحكم السدّ ؟ وخيّل اليها أنهما هي وهو . كانا يلاحقان حُلماً تافهـــاً

وزهيداً ، عاجزاً عن تغيير أيّ شيء في مجرى ألوان المدّ والجزر والبضائع والتقنيات والموادّ الأولية . لن تحيد أية باخرة نفط عن طريقها ، ولن تتأثّر أية معاملة تجارية بالأمر ، ولن ينزعج من ذلك أي فرد من عمّال هامبورغ هؤلاء وسواهم ، وسيواصل عملهم الوف ال« انايا » على سطح الكرة . وبدلاً من ان ترعبه هذه الفكرة ، طمأنته وحملت اليه العزاء . إن ما كانا يستعدّان للقيام به لم يكن ينتمي الى ذلك العام ، حتى ولا الى تاريخ البشر ، بل كان ينتسب الى حركات الطبيعة الواضحة والخفيّة معاً . وفي مواجهة هذه الفوضى من الحسابات والحديد والدخان ، سيشهد انه ما زال بالامكان نصْبُ حُلمٍ بيدين عاريتين ، مرتهناً بعودة الفصول ، ودورة البذار والزهور ، والصّحة العميقة للأشياء البدائية . ذلك العمل الذي كان يخيفه أو الذي لم يكفّ منذ ذلك اليوم ، في باريس ، عن معارضته بجملة من الاعتراضات المعقولة والملائمة ، كان يتصوّره بسيطاً ، صحيحاً وجميلاً كبطنٍ امرأة ينتفخ ، وبسمة طفل أبكم ، او كهذه اليد العائدة من تلقاء نفسها الى الحياة : ليس الثأر : بل الأمل .

حين عادا إلى الرصيف ، ثـمِلين بالغاز والضجيج والوحل ، كان بوريس يعلم انه لم يكن لحكايتها الصغيرة أية أهمية ، ولكن ذلك كان سبباً إضافياً للقيام بها في خضوعٍ دقيق ،

من غير تحمُّس . لم تكن نهايتها متوقفةً عليها بعدُ ، ولا تهمُّه دونيّتُها تجاه القيَم السائدة والعالم كما كان يجري . ذلك أن يقيناً قد انبثق ، في هذا الضباب الشبحيّ . وإذا تمّ كلّ شيء على ما يُرام ، فان قطعة صغيرة جداً من ساعة ستعود إلى مكانها ، في تكّةٍ لا تُسمع ، وسيستيقظ قرابة عشرةٍ من المجهولين مرةً على الأقل وهم يبتسمون إذ يفتحون جريدتهم الصباحية ، في عالم أقلّ فوضى ، بمقدار قليل جداً من عالم الأمس . أما أجمل المكافآت : فدقيقة صمت في الضوضاء الكونية ، وكون حفنةٍ من الرفاق ، منتثرين على كرةٍ أرضية لا يُصدي فيها بعدُ إلاّ المعدن ، يسمعون ، بفضلها ، العشبَ ينمو .

* * *

كانت اماندا قد عادت إلى بلدها . وكان الرايخ الثالث قد اختفى منذ وقت طويل، ولم تكن المانيا بلدها . ولكنها فيما كانت تعبر « الباس—ساكس » وفيما كانت تنعطف قليلاً نحو الشرق عبر سهول « لونبورغ » . أخذت جسمها رعشة خفيفة ، كأنما من عملية تحسير (١) . كانت هناك أغشية تتمزّق ، وكان جلدٌ جديد ، أو قديم جداً ، يحقّق الغَلَبة . أتراها كانت ذاكرة العِرْق ، ما قبل المهد وماوراء

---

(١) استبدال الريش عند الطير .

القبر ، تتسلّل إليها مع تلك الروائح من الصمغ والعسل التي تتنفّسها حقول الخلنج ؟ أم طراوة لغةٍ مَوْلديّة تنبثق فجأة ؟ أم تراها كانت ، بكل بساطة ، مبهورة لاهثة وقد أتعبها أن تتيه على غير هدى ، وعزّاها أن تلامس الهدف ؟في ضواحي المدينة التحالفيّة الكبرى ذات الفوحان الميناثيّ ، من حيث أقلع سابقاً كثير من المهاجرين نحو الأميركتين ، ومن حيث أبحرت هي نفسها مع أبيها نحو الارجنتين . شمّت رائحة مرساها بالذات ، وهذا العزاء الحميمي وضعها في أرفع درجات قوّتها .

إن حميّا الهواء عند منفذ « الإلب » وهذا الجوّ من التوحّش والخشونة الذي يملأ أرض ألمانيا الشمالية وسماءها ، أنعشاها كثيراً في نهاية العِقْد الوراثي والسرّيّ الذي كان يشدّ جسدها إلى مثل ذلك الجو. وفي ضواحي المدينة الهادئة ـ أجنحة أنيقة ذات جُنينات مصونة جيّداً ـ. ارتدت بالغريزة بذلتها الداخلية ، بذلة المقاتلة ، التي كانت تشبه ثوب طالبةٍ شبهاً عجيباً . ولكن قليلاً ما كانت تهمّها هذه المناظر المرمّدة ، تلك المدينة ذات الوسط المخرَّب البارد حيث اكتشفت بدهشة مباني من زجاج وفولاذ كان يحلّ محلها منذ عشرة أعوام حُفَرٌ وأراضٍ قفراء . إن ما كان يغيّرها من الداخل ، إذ يردّ لها وجهها الحقيقي كجنديّة وكطفلة ـ الوجه الوحيد ـ الذي تعتزّ به ـ إنما هو دنوّ لحظة جوهرية كانت تدلف هي

اليها مستيقظة تماماً ، بعد حمية طويلة من النوم ، ناعمة الأعصاب متوترتها كأسلاك كمان . إن الهواء البحري ليس أقلّ تنبيهاً من رائحة الخطر .

وعاد إلى ذهنها وصولُها إلى « لاباز » مع كارلوس ، لسنتين خلتا . ولقيت مرةً أخرى التركيز الهادىء نفسه الذي يتميّز به الصيّاد المتربّص . كما في أثناء إقامتها المتخفّية ، هناك : كانت لامبالية وجادّة في الوقت نفسه ، فكانت واثقة غير مهتمّة بنفسها ، مطمئنة إلى الجوهريّ وإلى ان باستطاعتها أن تحضنه في الخفاء . كانت لامبالاتها تجاه نفسها وتنبّهها للعالم الخارجي متعادلين . وكان هذا الشكل الممتاز « للرقابة الذاتية » لا يخلو من مغنطيسيّة ، مضيفاً على حركاتها طمأنينة سَرْنميّة وعلى حواسها الخمس حدّة تكاد تكون مؤلمة . وقد تعرّفت بوريس عن بُعد ، في الجانب الآخر من السدّ ، دقائق ثلاثاً قبل أن يلمحها هو في الحشد . وكان ذلك كأنما هو ، في تلك اللحظة بالذات ، كارلوس قادماً للقائها ولم يَعُدْ بطنها غير مسكون . وفكّرت وهي تراه يهرع أخيراً : « هذا عجيب حقاً ، لقد أتيت إلى هنا لكي أقتل ، وأنا أحسّ شيئاً ينمو في أعماقي ، وينضج من تلقاء نفسه ويُشعّ عليّ بحرارته » . كانت اماندا تتهيّأ للقتل في الجدارة الصامتة للنساء الحوامل .

وعادت ساعتها ، وهي الاحتياطية المجنّدة ، تدور ،

وكانت ملكاتها سليمة معافاة. كانت تفرط الساعات والدقائق بدقّة شَرِهة متأمّلة . ان المرء لا يحصي شيئاً إلاّ عكسيّاً : فحسُ الدقّة لا يوهَب إلاّ للمحكومين في السجون وإلاّ للرياضيين في الميدان . وقد كانت كليهما : محكومة ولكن مع قياس تضربه ، مع حدٍ لا تتجاوزه كانت قد حدّدته في أعماقها : اسبوع . كانت أمينةً لدارات الروزنامة ، فكان الاسبوع الانكليزي الخاصّ باللانشاط الدبلوماسي يدلهّا على أنهما اذ يصلان بعد ظهر يوم الاثنين ، فعليهما ان يغادرا على الأكثر يوم الاثنين التالي – باعتبار ان القنصلية تكون مغلقة يوم السبت ومفتوحة فقط في الصباح من الساعة التاسعة حتى الثانية عشرة . أي اربعة أيام للعمل ، كافية لزيارة تعرّفٍ او زيارتين .

إن الأسبوع قليل ، وكانت تريد ان يكون هذا كل شيء : حياةٌ في سبعة أيام . ولما كانت كلّ ساعةٍ متذوّقة تُعَدُّ بالنسبة اليها مضاعَفة ، فأن أية ساعة لم تكن صنوَ الساعة السابقة . كانت كلّ دقيقة تحت لسانها أشبه بقربانٍ حارق ، لا ينتهي . وكانت تجاه هذا الاثنين الأحمر الذي ينقضّ عليها كالمِصْدم تَشدُّ على المكابح بكل قواها ، وكان ان التمست اولاً الكثافة في حالة الابطاء ، وهي تعاير اندفاعتها عن كثب . ما كادت حبّات الرمل تتدفّق ، حتى كانت تفكر في إيقاف سيلانها .

وبدلاً من أن يوهن حلول الأجل عزيمتها ، ملأها بفيض من دم ، وطماحٍ من الرغبات. كانت تتفجّر حياةً غاضبة ، ولكن غير محمومة . وكان هذا الضغط العالي يوقعهـــا في دوارات ، ويدفعها بالزوابع خارج نفسها ، بحثاً عن حرارة حيوانية يستطيع رجلٌ واحد ان يمنحها إياها . كانت تتشبث بصورة كارلوس، بحشمته، بوسواسه أن يغيظ، ولكن عبثاً . كانت اذا ارادت ان تنتعظ ،فانما كان ذلك يشبه البحث في الظلام عن مخرج إنقاذ : ليس الجنس ، بل الإنجاد . أشبه بمسدس في الكليتين ، كانت تخشى أن تخفض ذراعيها ، في النهاية ، ولم تكن فخوراً بنفسها . لا لأنه كان بوريس ، بل لأنه كان هناك ، ولأن الوقت كان محسوباً . وقد أتتها هذه البديهية على السفينة ، عند زيارة المرفأ . لم تكن تجده حتى جميلاً ، ولو كان في ظروف أخرى ... ولكن حين كان يحدّثها ، كانت تنظر الى شفتيه وعينيه وهي لاتكاد تصغي الى ما يقول . كان الأبله يطلب منها تفاصيل عمليّة ، كما لو أن الاستعجال كان يكمن هناك ! كما لو أنها لم تكن راغبة بأن تتكلّم حقاً ! راغبة؟ لا. حين تأخذ المرءَ النارُ في قاعة مغلقة ، لا تأخذه « الرغبةُ » في الإفلات من الاختناق : انه يحطم الزجاج ويقفز .

ولقد حدست ، منذ أمسيتها الأولى في هامبورغ ، أنها نصبت فخّاً لنفسها ، من البداية ، إذ تعامتْ عن دوره هو .

وفي لندن . كانت قد نادت أخاً قديماً لها ليلتفّا على نفسيهما معاً في حرارة كارلوس ، لكي يستغرقوا ثلاثتهم ، اذا صحّ التعبير ، في رمال الماضي أكثر فأكثر . وفي باريس ، كانت قد اختارت زميلاً لصنع مفرزة مغاوير . كانت تكتشف ، عند حافة الهاوية ، أن جسدها كان بحاجة الى جسد رجل لبلوغ أوج الحياة وإيقاف الزمن . وقد أرعبها هذا الكشف . الحنان ، الأخوة ، التعلّق : لم يكن شيء من ذلك يصمد امام الموت . انه أدفأ مما ينبغي . كانت قد أعطيتْ حداً أدنى من الزمن الذي كانت غريزتها تطلب منه الحدّ الأعلى . والحال أن الحدّ الأعلى الحيويّ ، انما هوَ الحبّ . وحين لا يكون الحب عاطفة ، بل ردّ فعل ، فلن يكون هناك مكانٌ بعدُ للتنانير المرفوعة غفلةً فوق الركبة ، ولا لخفق الرموش ولا للــدلال والغنج . إن المرء اذ ذاك يُخرج الرفوش وينقضّ . ولقد أحسّت أماندا ، وهي في ذروة حنانها ، قسوةَ مصاصة دماء تصعد في أعماقها . كانت مستعدّة لمصّ الدم لتمنح نفسها الشجاعة . وبعد ذلك ، لترُيقه . لتأخذ رهوناً على الموت ، فوراً ، ونقداً . لقد تمتمت لنفسها طوال العشاء : « سامحني . ياكارلوس ، ليست هي غلطتي . يجب أن أثأر لك ، ولكي أثأر لك ، يجب ان أنساك . لا أن أخونك : فقد كان بوريس صديقك ، أخاك . لئن كان ثمة رجل تستطيع ان تسامحني به ، فإنه هو .

ولكني أخاف الاّ أخصاكَ بعدُ ، عمّا قليل . إن هذا يثير اشمئزازي ولا أملك تجاهه شيئاً . »

ذلك المساء ، في « دار السمك » المدخّنة الصاخبة حيث التقيا حول حساء بالأنقليس ، أعوزتْها الشجاعة .. تركت المقاتلة تتكلّم بدلاً عنها ، وتمــترست خلف يقينياتها السياسية : شكل الصمت الذي كانت تؤثره . اما بوريس ، المكسوب مادّياً للعملية ، فقد وضع شكوكه في المقدّمة . ودافع كلّ منهما عن نفسه كما شاء . كان كلاهما مزدوجاً . فكانا طيفين يتجاسّان عند طرفيْ الطاولة ، نهميْن للاطمئنان . وبدلاً من مواجهة ما كان يسدّ شرايينهما ويُغلق مسامهما ، التزما حدود ما كان لا يشغل بعدُ الاّ ذهنيهما .

ــ انت تعرفين ، يا صديقتي العزيزة ، أن التعــدّي والعنف يثيران اشمئزازي .

ــ وانا اكثر منك . ولكن لمّا لم نكن متأكدين من أننا سنكون هناك عند تحقيق الا « نورمبرغ » الكبير النهائيّ ... فلا بدّ من أخذ طريق مختصر ، الا ترى ذلك ؟

ــ انا ، عموماً ، ضد حكم الإعدام .

ــ وانا كذلك . اما هو ، فلا . وبعد ذلك ، فهو يبالغ . ركلةٌ في أسنان كارلوس ، ورصاصة في رأس « انتي » الذي كان يمكن إنقاذه . اما ما يصنعه بأسرانا ، « قبل ذلك » ،

فلا حاجة لرسم صورةٍ لك ، كما أعتقد ؟

كانا يتكلّمان بالفرنسية بصوت منخفض ، ورأسه مستند الى رأسها .

– نعم ، ولكننا في المانيا . تذكّري ان كلّ من يتنزه ، في أوروبا ، وفي جيبه مسدّس ، وعلى ظهره لافتة « ثورة » ، تفوح منه رائحة الشرطة على بعد مئة متر . اما الارلنديون والباسكيون ، فشيء آخر : إن هؤلاء شعوب .

– تذكّر أننا لسنا أطفالاً : ليس في التنظيم ولن يكون من يقيم اتصالات مع المتطرّفين هنا . واكثر من ذلك مع الألمان ! نحن مقاومون ، يا بوريس ! لا مُثيروافتن ! نحن لانضع قنابل بلاستيكية في الأمكنة العامّة، ولا نأخذ أُسَراً كرهائن . لقــد كنت أنا نمساوية ، فأصبحت استرالية . بلدان لا يبرع أهلهما كثيراً في المقاومة المناهضة للفاشية وفي ميثاق شرفها وأساليب سلوكها . اما الفرنسي ، بالمقابل ، فان بالامكان ان يتصور المرء ...

– ماذا تريدين ؟ ! انهم لا يعلّموننا شيئاً بعدُ في المدرسة.. كلّ ما أعرفه ، ان « المخابرات الاميركية » لا تموّل اليوم في بلادنا التي ادركتها الشيخوخة إلاّ الموظفين الكبار . ولكنها تموّل أيضاً اولئك الذين يطلقون عليهم الرصاص ، وهذا ما يعطي مزيداً من أرباح الأسهم ،سياسياً . تصورّي أن نتلقّى

بعد ثمانية أيام برقية تهنئة من « محطة المخابرات الاميركية » في فرانكفورت : ستكون هيئتنا لطيفة ، ألا تعتقدين ؟

– ليس هناك أي خطر . القضية بيننا وبين « انايا » هي قضية بين لاتينيي اميركا . قضية عائلية قديمة . اننا لا نمارس السياسة ، يا بوريس . بل نحن نرتّب بيتنا ...

كانا يردّدان محفوظاتهما . كان بوريس يعرف مقدّماً الأجوبة ، وكانت ايميلا تعرف أسئلته . لم تكن فيها ما لم يناقش من قبل عشر مرّات . ولكنها الآن كانت تجيب بلهجة قائد : صوت جافّ ، عسكريّ . كانت قد ترقّت من غير أن تعلم . أم انه هو الذي كان في تلك الأثناء قد خسِرَ من مراتبه ؟ كان يكتشف في ذهول نوعاً من التراتبيّة التلقائية ، وأن اماندا كانت قد أصبحت رئيسته . وخلف التصلّب ذي القامة المتيبّسة والشعر المعقوف كعُيكة ، كانت ثمة امرأة حائرة تطلب النجدة وهي تترنّح حتى لا تأخذ يده وتحلّ شعرها ، هناك ، على الفور . امامه – وهو لم يكن يراها . أتراه كان مغمضاً عينيه ؟ لقد فكّر : « القسوة الجرمانيّة : كلّهن « غريتشن » من حديد . كالمستشار الذي رأيت تمثاله ذي الثلاثين متراً المنصوب في قلب المدينة ... »

استطرد يقول ، وهو يضع نظارتيه ، عازماً على مواصلة الامتحان :

ـ أنت مفرطة التفاؤل . إذا لم تمـارسي السياسة ، فالسياسة هي التي ستعيد صُنْعك ، بعد فوات الأوان . هل فكرت بتدابير الثأر ؟ إن لك هناك معتقلين ...

انزعج القائد . انفتحت شفتاه ، وتردّدتا ، ثم انغلقتا من جديد . تقطيبة ، ثم :

ـ ليس رفاقنا في السجن مصادفة ... لقد اضطلعوا بمسؤولياتهم ، كما أفترض .. ونحن أيضاً .. سنضطلع بهـا معاً ، حين يحلّ الموعد .

صمت .

ـ ليست الحرب بالشيء اللطيف ... بالنسبة للجميع .

ـ واستغلال العدو النفسيّ ، هل فكّرت فيه ؟ تأثير العناوين الكبرى ، والروايات المسلسلة الموجّهة والمجوّقة ؟ والعناوين الثأريّة ...

ـ ما تريدين أن تصنعي بها ؟ إن الصحفيين يخترعون ، وهذه مهنتهم . اما هنا ، فلن يكون لهم ما يروونه : إلا مقالة صغيرة . وهناك ، في بوليفيا ، فلن يكون في صالحهم أن يجعلوا من القضية عنواناً رئيسياً : فذلك مثّل مفرط السوء والرداءة ...

ـ أتعرف شيئاً ؟ إن الاقذار ، بيتيةً كانت أم لا ، ذات طابع خاص : إنهـم أشخاص شجعان ، في الحياة

الخاصة . العائلة . يجب أن يُحسب حسابها . ماذا تظنّين ؟

— إن زوجته هنا أيضاً . هما يعيشان معاً في القنصلية . وله ولدان ، ولكن من حسن الحظّ أنهما بقيا هناك ، في الكلية الأميركية . لأنّه تلقى تربيته في واشنطن ، هــذا السيد. « أكاديمية الشرطة العالمية » . ولكن قلْ لي ، متى تكفّ عن طرح الأسئلة على نفسك ؟ إن المرء لا يستطيع أن يعيش إلى الأبد بالنسبة لأسئلته ... إلاّ إذا بقي في مقعده المريح . يجب عليه أيضاً أن يضطلع بالأجوبة ...

— ليس لي ما أقوله هنا ، ايتها الأخت الصغيرة . إنني أنحني .

صباحاً ، في طائرة باريس–هامبورغ ، كان قد مثّل ، وهو مستغرق في مقعده أمام قدح من نبيذ « بوردو » ، دور « سان–جوست » أمام لويس السادس عشر : « ليس هناك من يسيطر ببراءة . فإذا كان « انايا » بريئاً ، فهذا يعني أننا نحن المذنبون . ايها المواطنون ، إنني أطالب بالاعدام ! وسيتولى القضاة بأنفسهم تنفيذ الحكم هذه المرة ... » نقاش بالٍ . لم تكن ثمة إلا قيمة ضئيلة لحالة الــذنْب وكيف كانت توزّع . معسكران وجهاً لوجه . ولقد ارتكب أقوادهما غلطة بإرسال صاحب رتبةٍ دنيا إلى أرض مكشوفة . غلطة تقنيّة لم تكن تستدعي من قِبَلِ الضعفاء إلاّ جواباً تقنياً .

كانت أماندا على حق . لنكن فعّالين . وإذن معتدلين . ليس ثمة من يحارب ببراءة . إن هناك حروباً عادلة ، ولكننا لن نرى أبداً جيشاً بريئاً . إن ملح الأرض لا يمكن أن ينسب لنفسه ضميراً نقيّاً . وما كانت تلك الحكاية مستمرّة في الدوران ، فليس ثمة مناضل واحد أو قنّاص واحد أو محارب أو جندي في جيش إلاّ وهو بصورة فردية على خطأ ، فيما هو على حق بأن يقاتل . مستحيل ان يلتزم المرء من غير أن يُلفي نفسه « متورطاً » . وإذن ، فسأكون جباناً قذراً في رأي عدد من الأشخاص . فبئس ما أنا . إن المرء لا يكون في وقت واحد فاضلاً وعادلاً . فبئست الفضيلة !

ـ قولي لي .. أودّ مع ذلك أن أكون على بيّنة . لماذا طلبتِ مني أن أجيء ؟

ـ هل تخاف على حياتك ؟

ـ طبعاً ، باعتبار أني هنا ! ولكن لماذا ليس شخصاً آخر ؟ ما يزال هناك ، في التنظيم ، رفاق يصلحون لمثل هذا النوع من الأعمال ... ثم انني لستُ بعدُ رفيقاً تماماً .

ـ لأنّ .. لأن كارلوس كان سيفكر فيك . أنا على ثقة من ذلك . ثم سحقاً ! انا التي اردت ، إذا شئتَ أن تعرف كل شيء . لا دخل لكارلوس في الأمر . ولا لك . وليس هناك من « لأنّه ... » . هل حجزت فندقاً ؟

ـ كيفما اتفق . « الامبريال » ، في مطلع « ريبربان » . ليس فخماً .

ـ مع الساهرين ومومسات سان ـ بولي . هذا لا يُدهشني . إن لي في « الاتلنتيك » ، المشرف على البحيرة ، غرفة جميلة جداً . لماذا لا تأتي ؟ ستنعم بالهواء النقيّ وبسربٍ من الغلالات البيض تحت النظر .

أخذت بوريس رغبةٌ مفاجئة في الفرار : بعيداً عنها وعن نفسه . ان يذهب . ان يعود وحده إلى فندقه . من غير أن يدنّس شيئاً أو يحطّه .

ـ إسمعي ... الأفضل أن لا . إذا عملنا معاً ، فلا فائدة من الظهور معاً منذ الآن .

ـ لن نعمل معاً . ستبقى تحت .

ـ وماذا أنفع آنذاك ؟ أنقل روزا لوكسمبورغ في السيارة ؟ إن الأمر لن يجري هكذا . على الإطلاق !

ابتسمت اماندا ، متعالية :

ـ حماية وانكفاء . هذا هو المهمّ .

ـ هذا يستحق مناقشته .

ـ حين تشاء . ولكن لنبدأ من البداية . صباح الغد ، انا التي سأذهب لاختبار الأرض ... سأذهب وحدي . سيكون الأمر مستحيلاً وأنت بهذه الهيئة .

– وبهيئتك أنت ؟ تقصدين المزاح ؟

– انت لم ترني بعد في البزّة ؟ تستطيع ان تلتقيني في الشارع فلا تعرفني . هل تريد أن تأتي لتراني في الفندق ؟

– ليس على الفور . سنرى فيما بعد ...

– فيما بعد ، دائماً فيما بعد! انت تذكّرني بكارلوس !

كان بعض الجالسين قريباً منهما يلتفتون اليهما ، ساخرين. كانت اماندا قد أخذت تصرخ :

– ... أريد كلّ شيء الآن . الآن وإلى الأبد . هذا القدح من صنع « ترامينه » ، الآن . هذا السيكاريلو من عند دافيدوف ، الآن . ليس هناك شيء آخر غير الآن . كم الساعة ؟ تجاوزت الساعة العاشرة مساءً . لقد فاتتنا الاوبرا. انهم يعزفون « فوزيك » ، هذا المساء ، واريد ان اسمتع إلى « فوزيك » معك . الآن . تعال .

– سنذهب غداً ، إذا كنت حريصة على ذلك . كوني عاقلة .

– غداً ، ربما يكون قد فات الأوان .

كانت اماندا قد تعبت من رؤية عودة وجه كارلوس في انتظار « الثورة » . كانت قد تعبت من الإحساس بالوجع ، دائماً في المكان نفسه . وفي تلك اللحظة ، لم تكن لتطلب حتى ان تولد من جديد ، بل ان تكفّ عن ان تعيش ثانية ، لتعيش على الأقل لحظة .وفي تلك المنطقة العجيبة من الاستمرار

والبقاء التي كانت قد دخلتها ، محمّاة ومردودة الى عناصرها الأولى، كان جلدها هو الذي يتطلّب البدائيّ . بل حتى لا أن ترى وأن تسمع . بل ان تلمس ، ان تخدش ، ان تعضّ . جميع أنواع الاوبرا مقابل لمسة .

افترقا من غير ان يتبادلا قبلة، من غير ان يتلامسا باليد .

قالت لنفسها وهي تمضي : « الحقيقة أن الأذكياء لا يفهمون شيئاً . إن هذا الأبله ليس بالوزن المطلوب . انني أفضله اكثر مما ينبغي . »

إن حبّاً جديداً يغيّر كل شيء ، الاّ المكان .

* * *

« الويلفيغستراس » ، قصيدة ريفيّة غزليّة . وقد غاصت أماندا في إيراقاتها ولديها إحساسٌ بأنها تتغيّب عن المدرسة وعن ذهول النهّابة الخطّافة . ولكنّ قلق الخفايا والأسرار يتبدّد كلمّا تقدّمت ، ويغمر الفتاة الصغيرة المتنكرّة بثوب سيّدة أعمال شعورٌ عميق من الأمن والطمأنينة . منذ أقلّ من ساعة ، كانت تترك سيارتها امام المحطة المركزيّة ، وتستقلّ المترو ــ خطّ « وي » ــ وتهبط في محطة كلوسترستن ، ثم تبلغ ، عَبْرَ « بوليفار بارك » ، طرف بحيرة « اوسانلستر » . وفي شمال « الإلب » ، بحيّ « هارفرتهود » ، كان شارع « الويليفغستراس » يتلوّى على مهل محاذياً « الألستر » ، النهر الذي يرتمي في البحيرة . لقد ارادت ان تصعد الشارع

منذ بدايته ، بالرغم من أنها تقصد الـ « ١٢٥ » ، في الجانب الآخر ، لكي تدسّ جيداً في عينيها خارطة الحيّ . وجميع المفارق والدُروب والإشارات الحمر حوالي ذلك . إنه شارع مرفّة ، رزين ، بلا مخازن ولا زحام ، ذو أرصفة شبه مقفرة ، تحفّ بها مقصورات باذخة على غير زهو . وفي منتصف الطريق ، مرّت تحت جسر ، تاركة الى يمينها متاهةً من القنوات والعبّارات . هو ذا مكان تأخذ هامبورغ تشبه فيه امستردام او دلفت : السكون المبرنق المعدّ للسكن ، الزنجار نفسه على الواجهات القرميدية القديمة التي تنعكس في ماء الأقنية الساكن ، بين الدردار والحَور . إن المرء ليشمّ الورنيش خلف الأبواب ذات المطارق ، والنحاس القديم ، والاثاث الثقيل الملمّع جيّداً . ان ذراعيْ النهر الذي تعكّره سفن صغيرة مسطّحة ، رائحة غادية ، يأسنان كمخطّطات مائية ، وإن هدوءاً كثيفاً يميت جميع الأصوات . إن الرفاه المدنيّ ، حين يكون محترماً ، يغدو من جديد ريفياً بسيطاً ، وفي المدن الشمالية اكثر منها في أمكنة أخرى . قليل من السّيارات . بعض صيادين بالصنّارة هنا وهناك . بعض متقاعدين وبعض صبية يعيشون على عشب المنحدرات . في جنينة صغيرة تشكلّ من « الألستر » و « الايزبيكانال » زاوية ، والى يسارها كان ثمة نادٍ للتجديف يقدِّم رصيفاً عائماً من الألواح تصطفّ عليه زوارق رياضية ضيقة وقوارب سباق مقلوبة .

تابعت سيرها . وهاهي ذي أخيراً في مواجهة « الـ١٢٥ » :
بناء قرميديّ بثلاثة طوابق . في صف الأبنية المجاورة ،
بلا علامات خاصة . وتشرف نوافذ قنصلية بوليفيا العامة
على حديقة عامة بشكلٍ مثلّثٍ يغطس رأسه مباشرة في النهر.
تمثال نصفي لرجل ملتح على قاعدة . ملعب ومربّع رمليّ
للأطفال . مقاعد فارغة منتشرة هنا وهناك . وفي الوسط .
باقة من أشجارٍ نحيلة . وقد عبرت الحديقة . وتمهّلت عند
حافة النهر . كان في مواجهتها . تحت شجرة صفصاف ،
جسر عائم أبيض يقوم على مَوْتَدة . ولم يكن ثمة زبون واحد
على سفينة النزهة . وانسلّ أمامها زورق سريع . لايكاد
يلامس سطح الماء الأملس . ولا يُسمع اذ تغطس شفرة
مروحته الا خرير حريريّ يتغضّن . ثم يمْلس فور رفع
المجذاف. كلّ شيء ينام، لا صرير ولا صوت منبّه . لقد
توّقف الضجيج والغضب عند حواجز هذه الحديقة المقدّسة .
وفاجأها قطار مترو فجعلها تنتفض : كان يشّق الصمت
بأقصى سرعة على جسر معدني ذي رافدات صغيرة زُرق
كان يتخطىّ النهر ، على بعد مئة متر ارتفاعاً .

وعادت بخطى بطيئة الى شارع « الهيليغنستراس » .
مثبتة عينيها على الطابق الاول من « الـ١٢٥ » ، حيث كانت
دَرَقة مشتعلة معلّقة على حافة نافذة ، فوق سارية بلا عَلَم

تعرض شعارات بوليفيا : فيكونة (١) وكُنْدور (٢) وحزمة من رايات . وعلى نافذتين الى اليمين ، كما سبق لها ان عــرفت ، درقة الجمهورية الدومينيكية الناحلة اللون . كانت القنصليتان تطلاّن على قرص الدرج نفسه . وكان الضمُّ الدبلوماسي للديكتاتوريات في هــذه الزاوية اللبّدية يثير البسمة لو لم يكن ينطوي على بعض العوائق العمليّة التي فكّرت فيها سابقاً . وكانت لوحة أجراس تَصِل المدخل بمختلف المستأجرين . وتحققت من المواعيد على صفيحة النحاس ، وضغطت على الزرّ ، وسرعان ما انفتح الباب . وأدارت مقياس الوقت في قعر جيبها . كان الرواق مظلماً ، بالياً ، بمرآةٍ جدارية كبيرة هربت فيها من عينيها اللتين ستاحقانها على الدرج . لم يكن ثمة غرفة خادم ، ولا مصعد . خمس وأربعون ثانية ، بخطوة عادية ، حتى باب قرص الدرج .

بعد اثنتي عشرة دقيقة ، إذ كانت تمرّ ثانية في الرواق ، أرسلت نظرة جانبيّة : « انظــري إلى نفسك جيّداً ، يا عزيزتي ! إنها البَكرة التي ستتلقّينها عما قريب ، إذا كنتِ حتى ذلك الحين ... » . الباب مفتوح . وقد سلكت الشارع الى اليسار من غير أن تغيّر الرصيف ، نحو ملتقى الطرق الكبير الذي تتفرّع منه الجادّات الموصلة إلى « لوبيك » و كيال »

(١) لامة جزر الهند ، حيوان شبيه بالخروف ( هـ.م )
(٢) نسر اميركي كبير ( هـ.م )

والمطار. دقيقة وثلاث وعشرون ثانية، من غير أن تستعجل — وقد كان عليها أن تنتظر حين أضاء النور الأحمر — حتى الكنيسة الصغيرة القائمة عند زاوية « الهيلفيغستراس » وجسرٍ كبير للسيارات والمشاة كان يعلو « الألستر » . معبد لوثري من القرن الثامن عشر ذو جناح منتفخ، وبرج أجراس مروّس وبوّابة تعلوها ساعة . وعلى بُعدٍ يسير إلى الخلف، عند زاوية الجسر ، بحذاء جنينة مغلقة تشبه حوش كاهن الرعيّة . كان بوريس في الانتظار .

التقت نظره شمّاسة في الخمسين . وانزرعت أمامه :

— ممتاز . رُبحت القضية .

انها تتكلم الفرنسية . يا عيني .

— هذه أنا . لا تكنْ لك هذه السحنة !

كانت تضع نظارات ذات إطار حرشفيّ ، وشعراً مستعاراً رمادياً ، ومرهماً تجميلياً رمادياً، مع تغضينات شمعية وتجعيدات صغيرة عند ملتقى الشفتين . وكانت ترتدي ثوباً أزرق من قطعتين، وتحمل محفظة وقفازين من جلد الجَدْي . وقد أحدثت له رئيسة الجمعية الخيريّة هذه صدمةً في القلب .

— عالمة اتنولوجية ! ... حسبتك زوجة الكاهن !

— انت على حق . في المرة القادمة ، سأذهب بالبنطال . عجوز ، ولكنها نَشِطَة . الا تحبّ الكَهنَة ؟

— هل رأيتِه ؟

ـ انتظر حتى أشرح لك . لنمضِ سريعاً ، اولاً .

وعادا يستقلان المترو الهوائي ، على بُعد ثلاثمئة متر ، في « الكنغهوسنتراس » ، وبعد ذلك بعشرين دقيقة ، وجدا نفسيهما في موقف المحطة المركزية .

• • •

ـ اذا انتهى كل شيء بالإخفاق ، فلا ينبغي التحسّر على شيء . أتَعِدني ، يابوريس ؟

كانا يركبان الآن « الاوبــل » على الطريق السيّار « ٤٠١ » ، وكانا قد تجاوزا « الإلب » ، نحو الجنوب ، باتجاه « هانوفر » . كان هو الذي يقود . وقد نزعت نظاراتها وشعرها المستعار ، ونظّفت وجهها بقطعة قطن ، عبر مرآة السيارة. وكان على ركبتيها كيسها الجلديّ الذي اودعته وسائل التجميل وثوبها البديل .

ـ إن الأمر يبدو جيداً ، على ما صوّرته لي .

ـ صحيح ، وسنبلغه . هذا لايمنع ان نتوقع الأسوأ . حتى لا نخدع في الدقيقة الأخيرة ، ونستسلم ببلادة .

ـ إن كل ما ليس « الثورة » هو أسوأ منها ، هل أنت موافقة ؟

قبّلته في خدّه فداعبت عنقَه خصلاتُها الطويلة الشقر .

ــ استرجعي قبلتك . فــانا لم أفعل الآ ان استشهدت بمؤلفيّ .

ــ سأحفظ الصيغة. حتى ولو لم تكن منك . وخذْ هذه، من أجل « الثورة » !

وخلّفت القبلة الثانية على خدّه طابعاً برتقالياً ، ووضعت اماندا يدها على ذراعه :

ــ لاتمسحه ! أنهاسِمـَة حديدتي الحمراء . فاذا هربت الآن ، فسيعيدونك الى مالكتك .

ــ سيعلمـّني هذا أن أتحدث عن « الثورة » ...

ــ لم أكن المطالبة . انت مـَنْ نطق بالكلمة .

كانت الرسميّات بينهما قد طارت منذ وقت طويل ، وهذا ما كان يطمئن بوريس . وإذن، فقد كان رهان الأمس في هافانا قد رُبح :لم تكن الحبّة، في عـُشب الأوهام الكبرى، قد مـُسّت أو خـُدشت . كانت القشّة ما تزال تلمع في قعر الإسطبل . وإذ أصبحا جادّين معاً ــ وهي أكثر منه ، لإنها أشدّ منه انجراحاً ــ كان يـَسـَعهما بعد الآن أن يمزحا على هواهما . كانت أماندا قد اكتسبت مـَرَحَ الأشخاص العاقلين الذين يجدون خيرهم في أقلّ الأذى فتقوى عزيمتهم بمقدار ما يعرفون أنهم قابلون للانجراح . لم يكن ذلك من قبيل الاستسلام ، بل كان نهاية المراهقة . ذلك أنها طوباويّة أن يظنّ المرء انه يختار لنفسه الأفضل : فحسْبـُه ان يعرف

كيف يرفض الأسوأ ، في اللحظة الحرِجة . وقــد كان الأسوأ ، بالنسبة اليهما كليهما ، ان يستطيع ساديٌّ ان يملأ في اللحظة نفسها كرشه بالجعة ، لأنه عرف بكل بساطة كيف يستبدل في الوقت المناسب بذلة العقيد بثوب قنصل لاقيمة له.

— على العموم ، لن نذهب بعدُ إلى « الجنة » ، أنــا وانت . لا أمل بعد بهذا الصدد ...

— ولكننا سنذهب بعدُ إلى الغابة ، وهذا هو المهمّ .

وفكرت بصمت : « ليتني أستطيع فقط أن أغلق ورائي أبواب الجحيم ، إذن لكنت مسرورة جداً . »

« ايجستورف» . المفرق نحو « اندرلود » الذي يفضي إلى غابة الصنوبر الصغيرة التي توقّفت فيها ، عند الذهاب ، أمام مستودع « ويلسدر » ، في قلب البراح .

— إن على المرء ان يقطع كيلومترات طويلة ليثقب ، على نحو ملائم ، الفراش القشّي لوحشٍ قذر . ومع ذلك فان صاحبنا هذا ليس هو الشيطان ...

— ما زلت تتمثّلينه محاطاً بجميع جلاوز . . . سط « حرَسه » الحديدي .. اعترفي بأنك خفتِ قليلا ...

— بالتأكيد . بل خفت كثيراً .

— نستطيع ، إجمالاً ، ان نذهب اليه غداً .

— لا . لا يزال هناك أمران أو ثلاثة تتطلب التحقيق .

الباب على الشارع . هل يستطيعون أم لا اغلاقه من فوق ؟ جدول مواعيد الدومينيكيين إلى جانب ... أين يقيم الحارس الخاص ؟...

المعنى الحقيقي للتنظيم : أن يحسب المرء حساب كل شيء ، من غير أن ينسى قط انه تحت رحمة أيّ شيء تافه . ترتيب سرير الحدَث غير المتوقّع ، تمهيداً لحسن استقباله . كانت أماندا تسيطر على لعبتها لأنها تراجعت عن إرادة أن تكون سيّدتها ، من غير أن تهمل أيّة ورقة رابحة . كانت قد ارتفعت إلى مستوى القَدَر . ولم تكن تلك قَدَريّة . كان على بوريس ، الذي كان هو أيضاً مهووساً بالتفاصيل ، أن ينحني مرة أخرى .

كانت السماء تُظلم ، وكانت الريح تدفع سحائب سوداً فوق رأسيهما ، وكانت ذؤابات ضباب أبيض ترتفع هنا وهناك في الحقول . كان الشتاء يعود اليهما في أسى رطب . هاهما ذان في مواجهة بلد جديد ذي أودية صغيرة بيض وخبّازية تسبح في ضوء مرمّد : تلال من الخلنج الخبّازيّ على تدفّقات رمل أبيض . كانا يريان متارب ، وقطعان غنم وسط المراعي ، وضِيَعاً ذات بيوت واطئة بأبنية مفرّغة ، مع كنائسها التي تنتصب بروج أجراسها الخشبيّة إلى جانب الأجنحة ، ومزارع ذات سقوف من قش وجدران مدمولة بالكلس . وعند مفترق طرق ، على مقربة من ربوة جرداء ،

قالت له أماندا ان يوقف السيارة :

ـ إن زوجة الكاهن لا تذهب إلى أبعد . إسْتَدر إلى الجانب الآخر ، اريد ان أغيِّر ثيابي .

وتركا الطريق المزفّتة ، دالفيْن إلى درب صغير يتلوّى بين أشجار الخلنج حيث تنتصب طاقات العرعر وأحراج السندر الفضيّ ذي الساق النحيلة . مشيا صامتين على الرمل حتى بلغا هُرياً مهجوراً أو بالأحرى زريبة توقّفت اماندا عندها :

ـ نحن الآن في منجى . أنظر .

في أعلى جبهة الجَمَلون ، كان ثمة رافدتان صغيرتان مشتبكتان على نحوٍ خشن ، منحوتتان بشكل رأسيْ حصانين .

ـ للوقاية من العين الشريرة . لقد أخفيت البنادق إلى جانب .

وتبعا الخطّ الأسود لغابة صنوبر ، وبين مترٍ مكعّب من جذوع الصنوبر المقشور وإبّالة ، أخذت تعيّث بكلتا يديها في الأرض . كانت الأسلحة ، مع علبتين من الذخائر ، موضوعة في كيس من المطّاط ملفوف بقطعة من القماش المشمّع .

ـ هل الارقام مَبْرودة ؟

ـ وما النفع ؟ إنهم يستطيعون العثور عليها دائماً .

ـ هل نرزمها ؟

بدأت السماء ترذّ حين ثبّتا كرّاساً مطوياً سياحياً ،

أزرق وأحمر ، هدية من نقابة المبادرة في هامبورغ . بين صدعيْن من جذع صنوبرة . وأفرغ كلٌ منهما مشطين وهما يتبادلان الأسلحة : كولت ٣٨ اميركي ، بست رصاصات واستون قصير وقطر صغير . ووالتر ألماني بارابلوم تقليدي ، ٩ ملم ، قديم كالحرب العالمية الثانية .

– أترك لك الغدّارة ، وآخذ المسدّس . إن وزنه أقلّ . وهو أسهل دخولاً في كيسي .

– الولتر بثماني رصاصات .

– إن طواحين الإلقام أقلّ تعطّلاً . وإن ثلاث رصاصات ، في الرميّ القريب ، تكفي .

– كنت سأقول الشيء نفسه .

– نعم ، ولكن هذا انما يعنيني أنا .

– لنلعب الوجه أو القفا . لقد وضعتِ لي الخطّة . فأيّ منا يستطيع أن يصعد .

– لقد تقرّر الأمر ، يا بوريس . ومنذ وقت طويل .

– فكّري جيداً . ليس هناك من يُجبرك على شيء . وأرجوك ألاّ تقولي لي : « لو كان كارلوس ، لأراد أن.. » – لقد مات . « لقد كلّفني التنظيم بـ ... » – اختفى التنظيم أو كأنه ...

– بعد يومين ، تكون ابنتي الصغيرة قد بلغت الشهر

التاسع تماماً . هل فهمت ؟ إنها مسألة بينها وبيني . حياة مقابل حياة .

كان بامكانها أن تقول أيضاً : انني اختار المسدس الصغير ذا الأخمص الخشبيّ ، لأن ملامسة المعدن ، منذ ذلك اليوم الذي توقّفت فيه ساعتي ، يسبّب لي القشعريرة . لقد اخترت أن أكون قاتلة لأنني أريد أن أعود مرةً أخرى بريئة ، مُغْفلة ، وبلا ماضٍ ، وهذا لا يعنيك . لأنه يجب عليّ ان أحبّ نفسي إذا أردت ان احبّ شخصاً آخر ، ذات يوم . لأن كارلوس لم يمت بعد . لأن الفدائيّ يجب أن يؤمر ويُقاد ، وانت لست من هذا الجنس . وقد كان كثير من الأجوبة تنتاب شفتيه ، ولكنه الآن قد سقط من الحبال ، وكانت هي صائمة : إنها متعطشة للكحول .

أخذت الأسلحة في حضنها ، تحت قميصها النيلون غير النافذ ، وانطلقا راكضين نحو السيارة . وبين رشقتيْن من المطر ، هزّت الريح ملاعق السندر الصغيرة ، والجلاجل البنفسجيّة لغصون الخلنج ، وكرات العرعر المزرّقة ، وكانا ينتزعان نعليهما من الرمل المبلّل ، في إيقاع ارتشافيّ رخو .

قالت وهي تحمحم في السيارة ، وقد استردّت كلّ مرحها :

— جوّ يحرّم حتى على الفرنسيّ الخروج من بيته ! أعِدْني بسرعة إلى غرفتي ، ولنذهب فنأخذ مشروباً ساخناً .

أو قدح ويسكي . سيتحسّن وضعنا في الدفء .

* * *

إنه الليل ، وحبّات البَرَد تسقط الآن على شرفة المقهى–المطعم . وكانت الحرارة قد عادت إلى قدميها ، وشفتيها ، تحت عاكس النور المعلّق بالمصابيح المزيّفة ذات المسرجة التي تزيّن الإسكملات . كانا يشربان نخب عودة الربيع ، ولكن بوريس ، الغارق في ظلّ سانح ومقعد وثير من الجلد المضرّب ، كان يفكر صامتاً في الأيام القادمة . أما أماندا فكانت تفكر في كل شيء إلاّ في المستقبل ، وتستغرق في اللحظة ، حالمةً بحاضرها في صوت منخفض . وقد انتقلا من الويسكي والجنّ إلى خمر الريسلنغ ، وكادا يفرغان زجاجتهما الثانية من «البوباردر» المؤرّخ . كان الكحول عندها يطلق الجروح والدمامل القديمة ويثير أجهزة الدفاع . وكان هو يتذوّق لذائذ الخَدَر المحسوبة . كان الخمر يُنقص من مساحته ، ولكنه كان يكسب في العمق ، مما كان يمنحه جانبيّة منخفضة وامكانيات انكفاء جيّدة . كان بعيداً . وكانت صورة اماندا تصله مهتزّة ، وصوتها كذلك . والحق انه كان أمام عينيه وجهٌ سمين ذو شارب قصير وسوالف . وجه مبتذل ومزهوّ لم يكن إلا وجه القنصل .

– هل يعجبك فستاني ؟.. أتجدني أقل قبحاً من هذا الصباح ؟ انا لا أعرف بعدُ إن كنت جميلةً ام لا .. اودّ

لو أعرف ذلك .. ربما كان بامكانك ان ترشدني .. الحقيقة أنني لم أعرف قط إذا كنت حقاً اروق لك ام لا .. أظنّ ان لا .. ولكنني أحياناً فضوليّة .. هذا المساء مثلاً ...

أزعج هذا الوابل بوريس . لم تكن لديه أية رغبة في الإجابة . لن يكون ذلك عادلاً . لقد ترك لها حرية اختيار السلاح ، فلتترك له على الأقل حرية اختيار الكلمات . كانت تخاف الصمت الذي يترك الحياة بلون البياض ، وكان هو يخاف تلك العبارات الصغيرة التي تبدو تافهة ، ولكنها في الحقيقة تمهر العقود والانفصالات ، وتختم مغلّفات القَدرَ التي يفضّل ان يتركها مفتوحة ، حتى لا يكون له أن يقرأها. أجل ، كانت جميلة ذلك المساء ، بقميصها الحريري الأبيض العاري الكتفين وبنطالها الضيّق من « الجرسي » الطريّ ، وشعرها المجنون وأجفانها الملتمعة . ولكن لم يكن بين الملاطفة والملامسات إلاّ خطوة عاثرة . وبعد ذلك ، يستقيم كلّ شيء . الملامسة ـ الكارثة ، والمسافة تُقطع بطرفة عين . كلمة أكثر مما ينبغي ... ويدٌ تنزلق ... إن هناك حركات وتمتمات تجري من تلقاء نفسها ، وعلى المرء ان يحاذر أيضاً أطراف الشفاه . وقد كان بوريس آلى على نفسه ، منذ البداية ، ان يُطبق شفتيه ، وان يعضّ على لسانه ، وسيفي بقَسَمه حتى النهاية .

ـ ليست هذه ساعة اصطناع دور المرأة المسنّة .. اسمعي . لماذا تطرحين علي اسئلة بليدة ؟

رأى يديها تتشنّجان على مسندي المقعد . وبؤبؤها يسودّ . وشعاع شفرةٍ يخترق نظرها . ثم كان البرق عن كثب :

– لأنني أحبّك ، ايها المغفل الصغير !

أثلجت صرخة الحقد دمه ، فتراجع ، مذعوراً . وفكّر بالمسدسين اللذين بقيا في السيارة .

– أجبني ... قلْ شيئاً ...

لا مجال ، على الخصوص ، للمناورة المزيّفة . حركة واحدة ، ويقع الخراب . كان مسمّراً ، مأزوماً . ولكنه مفرط التهافت ما يزال ، يبحث يائساً عن مخرج . كان بوريس ، اذ يلاحقه ما يتعذر إصلاحه ، يؤثر أن يلوذ بالفرار .

– ربما كنت تخاف ... ان تتلوّث .. معي ؟

تمتم : – لا . بل ان أتورّط .

وكان يودّ ان يشرح كلامه ، ولكنه لم يستطع . ولم يكن المطر السبب . بل تلك الأخلاط والسوائل التي لم يكن بدّ من ان تبتعثها تلك المجابهات في مسام المصارعين وغددهم وقنواتهم ، قبلْ وفي الأثناء وبعد . كان يودّ معها حبّاً جافّاً – هو وحده الجدير بها . بلا عرقٍ ولا دموع ولا قبلات مُسيلة للعاب ولا لُزوجات .

– لا ، لا ... افهميني . يجب أن تكوني شخصاً آخر ..

انت نفسك ولكن باسم آخر ، وماضٍ آخر ... إنني مفرط الحبّ لك ، إذا شئت ، ولست بما فيه الكفاية ...

في هذه المرأة المفرطة الجاذبيّة ، لم يكن يرى اماندا ، بل ميمي . وفي أسفل عنقها ، كان ذلك العِقْد من الجراح التي لم يَكُنْ يجرؤ على تلويثها . كيف تراه يجرّدها منه ، وكيف ينتزعها من كارلوس ، ومن ابنتها المولودة ميتة ، ومن تلك الأوسمة الفظيعة التي كانت تلتصق بجلدها ؟ إنه ، في الواقع ، هو الذي كان يدور على نفسه ، في ذاكرته ، كمعتقل في زنزانته . أما هي ، فكانت بسبيل أن تفرّ ، ولم يكن يعرف من الأمر شيئاً .

– وأنا كذلك ، أحسّني أصغر من أن أفعل ما عليّ أن أفعله ... ولكنّ هذا لا يمنع .

– تذكّري : كان كارلوس يقول : كريستينا ، ابيل ، في المعبد ، لا ، على الاطلاق .

– انت لست كارلوس ، وليس هو معبدك بعدُ . الأفضل أن تساعدني على الخروج منه ...

– ولكنه هو الذي يبحث عنك . لماذا تريدين ان تخبّئي نفسك ؟

أفرغت كأسها وهي تغمض عينيها ، ووضعتها على الطاولة بحركة خشنة . وكانت أخرى هي التي تحدّق فيه الآن ، من غير رقّة .

– اعذرني ، ولننسَ هذا كله . كنت ثَمِلة . وقد زال عني ذلك .

كان الصوت قاسياً . حاسماً :

– ولنَعُدْ إلى جدول الأعمال. يجب تصفية هذه القضية ، مرةً وإلى الأبد . وسيكون الأفضل باسرع وقت .

– كنا قد اتفقنا على يوم الاثنين .

– لماذا ننتظر ؟ إن الطير يمكن ان يطير .

– ليس كل شيء ناجزاً ، هذا ما كنت تقولينه أنت نفسك .

– سأعود إلى هناك منذ صباح الغد الباكر .

– كما تشائين ... سأكون هناك .

* * *

ذلك المساء ، تقلّب بوريس في سريره خمسين مرة ، وحيداً ، ذاهب السكر . كان يردّد على نفسه المشهد ، والكلمات ، والمواقف ، مؤاخذاً نفسه على نشازه واضطرابه وعجزه . حكايتهما الفاشلة منذ التقائهما في لندن ، وفي هافانا . لم يكن قطّ على المستوى . بمعاذير لم تكن لها أية قيمة . صحيح أنها كانت تنتمي إلى جنس « يجب أن اقول لك » . في حين أنه كان ينتمي إلى « أرجوك لا تقولي لي شيئاً سنتحدث في الأمر غداً » . ولكنه كان قد التمس دائماً تكيّفات مع اللاّمنعكس ، وكانت العواطف عنده تتذبذب

تحت ضوء مزيّف ، بين الأمس والغد ، في اضطرابات حاضر مبهم . أكانت غلطتها ، في إبّان الافتتان ، إذا كانت قد شهرت فانوسها في عينيك ، وهزّتك كشجرة خوخ آمرةً إيّاك ان تدلّها على الدرب الذي ينبغي ان تتبعه ؟ كما لو أن القدرة لم تكن في الاقتراح ، والعجز في الوعي ! والدليل : حين كانت تبقى خرساء ، جامدة ، كانت تأخذه الرغبة في تقبيلها . ولكن ما كانت تكاد تفتح فمها ، حتى لا يكون له بعد إلا ردّ فعل : ان يعطيها . او ان يثور . كلّ شيء ، إلاّ أن يأخذها بين ذراعيه . إن من لا يقول كلمة يوافق ، وكان قد حَسِبه مرتبطاً بها منذ لندن بعقد مُضْمر ، مقوداً آلياً من مدينة إلى مدينة ، ومن صمت إلى صمت . وهي : لا تنساق إلى التقبيل خشية أن يضمّها عائدٌ يتلاشى عند أول لمسة ، واضعاً من جديد الغيابَ في فمها . هو لا يحاول الضمّ خشية ان يعانق هاربةً ستعود إلى سيّدها — إلى كارلوس . أتراه إذن قد أخطأ بامتناعه عن ان يعكر ، وهو الدخيل ، هذا الحديث الثنائي بعد الوفاة ؟ أكان يُكنّ احتراماً مفرطاً للارستقراطية الصامتة للموتى ، هؤلاء الأشخـــاص المتحفّظين الرفيعي التربية ، على عكس تلك الغوغائية التي تشدّك من كمّك في كل ساعة لتنتزع من فمك ضمانات ، وأجور اعتبار ، واهتمام ، ومحبّة ، مثل اولئك الذين يرهقونك على الأرصفة بسؤالهم « أليس معك مئة فرنك ؟ » أم انه كانت تنقصه الجرأة واللاوعي اللازم لمواجهة الأحياء بلا

صعوبة، بلون بشرتهم ذات الدوائر العكِرة ولحمهم المفرط القِشدي ؟ لقد كوّن لنفسه صورة كائن نموذجيّ لا شبيه له . شعاراً للوفاء،ورمزاً متطوعاً . كان يريد « ايميلا » واضحة ومتميّزة كالفكرة ، جسماً يشبه فقط فضائلــه ، ويشبه أجمل امرأة : ذلك النداء الحميمي للشقاء الذي كان يستشعر فيه قدراً دينياً . وبالإجمال . كان ينكر عليها حق ان تحيا وان تكون سعيدة كالجميع . لم يكن يريد ان تُولد أخته الجميلة والفريدة . الجميلة لأنها فريدة . في صفّ شبيهاتها لحماً ودماً ، على غرار اولئك التي كان يجروء على ان يحبهنّ ، كلهنّ متشابهات ، مصبوبات في قالب كان يمحو ملامحهنّ ويشوّش وجوههنّ . لكم ودّ أن يستطيع ان يُطابق « ايميلا »ذات النواة النقيّة القاسية على « الأماندا » التي كان يتصوّرها لُبابيّةً جداً تحت قشرتها.ولكن إحساساً بالفحش عنيداً كان يمنعه من ذلك . ان الغائبين وحدهــم يملكون الجسم الذي يستحقون ، محاطاً بأجمل أعمالهم ، أو بأوفر عاداتهم مغزى ، او برنّة صوتهم التي لا مثيل لها . ليس هناك إلا الموتى الذين يتطابقون مع حياتهم . ما الذي كان يريده إذن ؟ جثة جميلة؟ لا . كان بوريس يحبّ بطلة، رافضاً أن يرى ان ليس هناك من أبطال حقيقيين إلاّ وهم أموات ، وقد دعا الله والملائكة الذين ليسوا في السماء ان يأتوا إلى نجدتهما حتى ينقضي الغد على مـــا يرام ، بحيث يستطيع أخيراً ان يشدّ إلى صدره « اماندا »مبرّأة ودافئة .

وعلى بعد كيلومتر في المدينة نفسها ، كانت ألوان ندم أخرى تعذّب أماندا . « لماذا أخذت المبادرة ؟ كان بامكاني على الأقل ان أقوم بالإخطارات المألوفة . إنني مسرفة ، منمرطة العنف — في الملاطفة كما في القيادة . حين يُحِبّ الانسان يُريد ان يُحَبّ ، ولكن لكي يُحَبّ لا ينبغي ان يقول إنه يُحِبّ . كان كارلوس مختلفاً . كان انساناً خارج المألوف ، بلا جبن ولا كبرياء ، يُحسن الاضطلاع ، بنفسه وبالآخرين . أما بوريس ، فهو كجميع الناس : إنه يهرب من نفسه إلى حدّ ان عليه ان يهرب من الآخرين . ماذا أفعل هنا معه ، يا إلهي ! فليأتِ الغد سريعاً !... ولتأتِ الرصاصات سريعاً .. ليصبحْ هذا كلّه من التاريخ القديم ! اريد ان اولد من جديد في جلد لم يُمسّ .. جديدةً كلياً ... ليس ثمة ما هو فريد ، وكل شيء جديد ... غداً ، سأكون امرأة كجميع النساء ، وسيكون ذلك للمرة الأولى . »

كان أرقها أقصر ، ذلك لانها كانت تمضي لاستقبال المستقبل ،من غير انتظار . يقال ان السير هو سقوط مؤجل . كانت تريد الآن ان تعدو حتى لا تسقط ، وان تقتل بسرعة لتبدأ من جديد حياتها بأبكر ما تستطيع .

قالت لنفسها وهي تغمض عينيها : «حكمة : لا يفعل المرء دائماً ما يريد» .

* * *

الساعة الحادية عشرة وست وخمسون دقيقة . كانت السكرتيرة مُنزعجة ومرهقة ، فغطّت الآلة الكاتبة بغطائها ، ودفعت كرسيها ، وذهبت تدقّ على الباب الذي اجتازته على رأس قدميها :

ــ اعذرني ، يا سيدي القنصل . انها ايضاً تلك الغريبة الأطوار ... تعرف .. عالِمةُ الاتنولوجيا الاسترالية . انها هنا منذ نصف ساعة ، وقد أعطيتها جميع بياناتنا ونشراتنا ، ولكنّها تلحّ ...

ــ قولي لها ان ترى ملحقنا .

ــ لقد ذهب ، يا سيدي القنصل .

ــ آن له أن يذهب ؟ ماذا تريد ، تلك المُزعجة ؟

ــ ان تعرض لك شخصياً مشروعاتها . تقول إن ذلك هامّ جداً ، وانها بحاجة إلى توصية موقّعة منك « لمعهد لاباز البلدي » .

ــ قولي لها أن تنتظر خمس دقائق .

ــ حسناً ، يا سيدي القنصل . هل وجدت « التلكس » الذي تركته هذا الصباح على مكتبك ؟

ــ من أجل هذا ، يجب أن افكر في الأمر . تستطيعين الانصراف .

انسحبت السكرتيرة الألمانية من غير أن تُخفي انتفاضة . لقد انقضى عليها اثنا عشر عاماً وهي تعمل هنا ، ولم يعاملها أيّ قنصل بالأمر . إن الموظّفة ليست خادمة .

– خمس دقائق ، يا آنسة . سيستقبلك القنصل .

كانت انكليزيتها تقريبية ، ولكن الأوسترالية العجوز لا تفهم الألمانية جيداً . وقد طلبت منها هذه العالمة الاتنولوجية المجنونة بعض الشيء ، بلغة اسبانية رُطينية ، الخـرائط والكراريس والوثائق المختلفة – فاجتازت المكاتب في كل اتجاه وهي تدفع الأبواب – باستثناء باب واحد مُنجَّد ، في آخر الممرّ .

نهضت اماندا ، وحطّت نظرة يقظة على تلك المحترمة المنزعجة الشبيهة برأس الأوزة ، ثم اتجهت إلى النافذة . كان شعاع ينعكس على الزجاج فيكشف بنتاً صغيرة تلعب بالدولاب في ممر من الحديقة . وتدحرج الدولاب نحو النهر ، واختفى .

– الا تريدين حقاً ان تنزعي سترك ؟ الجوّ جميل اليوم .

– لا ، شكراً . هذا الفصل ، كما تعلمين ... تيارات الهواء وزخّات المطر ...

كانت اماندا تكاد تختنق ، ولكن قدميها كانتا مثلجتين . دمية روسية حقيقية . كانت ترتدي من فوق معطفاً رجالياً مشمّعاً ، مشبكاً وذا حزام . وكنزة صوفية كستنائية ذات ياقة مبرومة وبنطالاً من مخمل أسمر . ومن تحت ، سروال لصيق وقميص من كتان بلون التراب ، لباسان شتوي وربيعي دُمج أحدهما بالآخر .

— انا آسفة ان أستبقيك بعد ساعات الخدمة . صدّقيني . لا تنزعجي من أجلي ..

— على أيّ حال . السيد القنصل يسكن هنا . وشقّته هناك ، في الخلف . أما أنا ، فسأنتظر حتى يدقّ الجرس . فأدخلك وأمضي . إذا سمحت بذلك .

— عفوك .

كانت الطفلة تبكي وتضرب الأرض برجيلها قرب الغار الورديّ ذي الزهور البيض ، وقد أتت مربّيتها توبّخها .

انفتلت مس بلابورن وراحت تذرع الغرفة . لا بدّ أن الاسترالية فقدت صبرها . اما اماندا ، فخمس دقائق لا تزعجها . لقد انتظرت أسبوعاً ، تسعة أشهر ، حياة بكاملها . شدّت كيسها إلى صدرها ودمدمت بصوت منخفض اغنية من حداثتها ، كما يتلو المرء صلاة ، حتى لا تسمع قلبها يخفق . إنها المرة الاولى التي ستطلق فيها النار على كائن حيّ ، وكل ثانية كانت تقرع في صدرها كنغم أبيض ، أو مستدير أو أسود ، لأنها لم تستطع ضبط خفقات الخوف . كانت في التنفّس بانتظام . ثلاث خطوات ، شهيق ، وثلاث خطوات زفير : على غير جدوى . ومرّت قاطرة مترو فغطّت الصمت ورجّت الزجاج رجّاً خفيفاً . كم دقيقة ستمضي قبل القاطرة التالية ؟ كان عليها ان تَعُدّ من قبل .

قرعة جرس .

فتحت السكرتيرة الباب . وتنحّت ثم أغلقته بهدوء خلف ظهرها .

كان القنصل جالساً خلف مكتب امين سرّ مختاريّة ، وقد رفع حاجباً ثم عاد يستغرق وهو يصفّر في القراءة المتئة لرقعة ورق طــويلة صفراء مغطّاة بأرقامٍ على أعمدة ، منشورة أمامه تحت مِرْفقة ورق ذات نشّاف. وكان متهلّلاً : لقد قرروا إذن استدعاءه إلى هناك . إلى اللباس العسكري . أخيراً ، عمل حقيقي . انتهى الندم ، والختم على السمات ، والسكرتيرات البليدات ، وهذه الزيارات الحرقاء . هاتيك النساء المسنّات ، ضغثاً على إبّالة . قال بالاسبانية :

— بمَ أستطيع أن أخدمك ، يا سنيوريتا ؟

ودلّها على مقعد ، حتى من غير ان يرفع رأسه .

تحرّرت اماندا فجأة مــن ضيقها ، فظلّت واقفة . تتفرّس فيه بصبر ، ودقة ، وبرقّة تقريباً . النظارات الملوّنة التي تخفي الحاجبين . الأنف الأفطس المحدّب الأطراف ، على الطريقة الهندية . السالفان الأسودان . « لقد تضخّم » . كانت تودّ لو أن هذه اللحظة تخلُد ، وان تكف الطيور في الخارج عن الطيران ، والريح عن الهبوب ، والطفلة الصغيرة . هناك ، عن البكاء . لقد ذهب الحقد ، مع الخوف . إن الماضي لا يثب على وجهها . بل هو بالعكس : يبتعد على مهل . كما لو أن هذا الرجل قد مات وانتهى الأمر ، وكما لو

انه لم يكن باقياً له إلا ّ ان تُجهز عليه ، ان تنجز فصلاً قد تم ّ وانغلق على نفسه . وصَغُر الطيف الكثيف في العين ، ومضى يضيع بعيداً في سريرة من اللامبالاة ، زمنٌ قبتاريخيّ لايعنيها بعدُ . وطرفت بعينها ، بكماء ، جامدة ما تزال .

اضطرب القنصل ، فرفع رأسه نحوها ، متسائلاً . وزرعت نظرها في نظره . أخيراً ! كانت قد أَقسمت على ذلك : في وضح النهار ، مواجهته ، بوجه مكشوف . ان تترك له الوقت ليراها ، ويسمعها ، ويفهم .

ابتسمت :

— نهارك سعيد ، يا عقيد !

انتصب بوثبة ، ممتقعاً .

— ماذا تقصدين ؟ من أنت ؟

كانت قد رفعت الديك بابهامها ، فأخرجت اليـــدُ المقفّزة المسدسَ من كيسها . لم تغادره بعينيها . كما في ميدان التدريب ، أمام لوحة التصويب . الساق اليسرى إلى الوراء ، والثِقَل على الساق اليمنى ، والقدمان مستويتان تمـــاماً .

تراجع الآخر متعثّراً ، والتصق بالجدار كما لو أنه كان يريد أن يغوص فيه ، وفأفأ من جديد :

— من انتِ ؟ ولكن من أنت ؟

اما هي . فقد تحرّكت تحت الماء . على مهل . في اطمئنان استشباحيّ يمنحها الإحساس بترديد مشهد سبق أن وقع ، وحلٌ عقدته معروف ، ويقتصر دورها فيه ، هي الممثلة التي لا أهميّة لها ، أن تنفذ حركاتها بجعلها أكثر مطابقة ودقّة .

– اسمي ايميلا وأنا زوجة ...

وذهب الانفجار بالكلمة الأخيرة . وتركت ثانيتين أو ثلاثاً تنقضي ، ضغطت على الزناد مرة اخرى ، وردّدت :

– كان اسمي ايميلا . وكنت زوجة كارلوس .

في مواجهتها ، حدق فيها بؤبؤبان زجاجيّان لحظة ، ثم غرقا في البياض .

ثوانٍ أخرى : وطلقة ثالثة . كما لو انها كانت تستطيع أن تتبع بعينيها الرصاصة ، عند كل طلقة ، بين الأستون وذلك الصدر . وقد انهار العقيد أنايا تدريجياً : مائلاً ، فعلى ركبتيه ، ويداه متشبثتان بالمكتب ، فمقعياً ، فمنطوياً على نفسه فوق الأرضية الخشبيّة – جنيناً سميناً ورمادياً متراكماً بلصق جدار أبيض . ونقلت المسدس إلى يدها اليسرى ، ثم أخرجت باليمنى من كيسها ورقة بيضاء مكتوباً عليها بأحرف بنفسجية كبيرة :

VICTORIA O MUERTE

SIEG ODER TOD

ووضعتها عند قدميه . قرباناً أخيراً .

إن في الشراسة القصوى شيئاً ما يتعلق بالحُلم . إن صنواً ما نفّذ هذه الحركات ، بدقة الحُلم الكثيفة التي عرفتها لتسعة أشهر خلت ، في الساعة نفسها تقريباً — ولكن من جانب الطريدة والذعر والذهول . إنها اليوم تعرف تماماً ما يفعله شخصها الآخر . إنها أخرى ، جميع الآخرين : كاراوس ، ماريو ، كريستينا ، توماس ، راوول ، الموتى والأحياء . الرفاق والمجهولون . رفاق الأرجنتين والتشيلي والبرازيل والاورغواي ، رفاق البلاد الأخرى وكل مكان . إنها المخنوقون بالماء ، المفلوجون ، المخصيّون ، المحطّمة طبلات آذانهم ، المغتَصَبات ، اللابسون الكاغولية طوال أشهر ، الهستيريّون ، الجامدون ، المختفون ، البلا— شهادة موت ، البلا—جسم . إنها الـ « آسفون يا سيدي ليس عندنا هذا الاسم في ملفّاتنا » ، الـ « سافر بلا شك إلى الخارج من غير إخطار » ، الـ « حاول الفرار في أثناء نقله » أو « لا نستطيع شيئاً ، أيتها السيدة ، إن رفاقه بالذات قد سلخوا جلده . » انها عشرات وآلاف . امرأة شابة مُغْفلة وغير قابلة للعدّ ، انتهت مغامرتها الفرديّة على التوّ بهذه الـ « لا » المتوحّدة ، التي لا رجوع فيها والجماعية . تتأمّل شاهدة قبرها ، ترفع رأسها ، تنظر إلى ساعتها : « الثانية عشرة وثلاث عشرة دقيقة . لهم النصر ولنا الموت . وقد وقع اليوم استثناء للقاعدة . واحد على الاقل . كان هذا يستحق الجهد المبذول » .

قَطَع نفسها عويلٌ وحشيّ . اصطفق الباب في ظهرها ، ووثب عليها شبح امرأة في صرخة طويلة ثاقبة . ليست هي السكرتيرة ، بل امرأة أخرى . وسال عرق بارد في ظهرها ، وسرعان ما قذفت بمسدسها . يجب ألاّ تقتلها . الا تقتل سواه . وغرزت الشرّيرة أظافرها في عنقها ، وحاولت أن تعضها ، وقلبتها أرضاً بسُعْر كلبة جريح . واستسلمت اماندا ، وقد أخذها الذهول ، من غير ان تبدي مقاومة . وسقط شعرها المستعار ، حالاّ شعرها الأشقر ، فأمسكت الأخرى ، المذهولة لمدة لحظة ، بخصلاتها تشدّها . وسقطت نظاراتها المزيّفة . زوجة انايا ! بالتأكيد! وتمالكت اماندا نفسها ، فتنفّست عميقاً ، وفاجأتها بركلة من ركبتها في بطنها ، وبحرف يدها ، عاجلتها بضربتيْ « كارتيه » على الوداج . وتتابعت الضربات ، ردود فعل تدريبي . واسترخت المرأة مغمىً عليها . نهضت أماندا وانقضّت على الباب .

كانت تتوقع ان تصطدم بالسكرتيرة أو بعامل آخر او بجيران . لم يكن على سطح الدرج أحد . وهبطت الدرج نهباً ، فعبرت الرواق ، وانفتح الباب بشكل عاديّ . توقّفت في أعلى المدخل لتستعيد نَفَسها وترتب مظهرها . كان الشارع هادئاً . قبالتها ، خرجت المربيّة والطفلة الصغيرة من الحديقة واتجهتا اليها كأن شيئاً لم يكن . وأبعد من ذلك

إلى اليسار . في زاوية الجادّة الكبيرة . كانت « الاوبل » . أمام الكنيسة ، مغلقة الزجاج . ورآها بوريس فوراً ، وهو على المقود ، متشعّثة ، بلا شعر مستعار ، وبلا كيس . أدار المحرّك ، ودسّ يده تحت نسخة مفتوحة على ركبتيه من جريدة « بيلد ام سونتاغ » ، فصلى المسدّس ممسكاً بـه ، مستعدّاً لما هو أسوأ . « سحقاً ، الاثنان » . ليس الأفضل بين السناريوهات الثلاثة : انها مُلاحقة ، ولكن تبقى لها حظوظ ، تقدّم بالسيارة ، مُطلقاً النار لكي يغطّيها . رقم ١ : لا يلاحقها أحد ، انها لا تركض ، انه ينتظرها من غير أن يفعل شيئاً . رقم ٣ : انها مصابة ، أو مُجمّدة ، او في وضعٍ لا يمكّنها من بلوغ السيارة ، إنه يُقلع على مهـل ويمضي وحده . ولكنه رآها تغلق الباب خلفها ، وتهبط الدرجات من غير استعجال ، متجهة نحوه بخطوة منتظمة ، شبه لامبالية ، يداها في جيبيْ مُشمّعها . التفت بوريس ، وتردّد ، وانفرج : « بالطبع . السناريو الصالح ، كان الرقم ٤ ، الوحيد الذي لم نفكر فيه » . سحب إصبعه مـن حامية الزناد ، ودسّ المسدس بين فخذيه ، تحت الجريدة ، وركّب في السيارة درجة الإقلاع الأولى .

* * *

استردّت اماندا الإيقاع الصحيح . دفعةً واحـدة . انها لا تمشي ، كما أنها لا تحلّق . بل هي تعبر العالم بخطى

طويلة . وللمرة الأولى منذ تسعة أشهر . روى هواء الصباح رئتيها . وتوقفت سيارة أجرة امام « الـ ١٢٩ » . لم تكن هي مستعجلة بعد . كانت منزوعة السلاح ، في ذلك الشارع شبه المقفر الذي كانت شفافيته تخفيها خيراً من أي حشد ، كانت تقيها بَرَكَةٌ مُشعّة ورشيقة من أيّ منطق ومن أي احتمال وقوع . وعبرت امام سيارة الأجرة . من غير كتلة في حلقها ولا فراغ في احشائها ، ولكن من غير أن تستطيع كذلك أن تشرح لنفسها ما الذي يحــدث ، أو بالاحرى ما الذي لا يحدث . « ماذا تفعل السكرتيرة ؟ والدومينيكيون في المقابل ؟ والجيران فوق ؟ إنني أحلم ، هذا غير ممكن : بعد ثانية ، سيصطفق باب « الـ ١٢٥ » في ظهري ، بعد ثانية أخرى ... » كانت كل ضربةٍ من كعب حذاء تُعلّمها معجزة . كان رأسها مستقيماً ، من غير أن تلتفت . وكانت تكنس الأرصفة بنظرها ، والسماء والبيوت ذات النوافــذ المغلقة ، والحديقة . وكان بخار متلألىء أزرق . فوق النهر . يلاعب الشمس . الجوّ جميل حقاً هذا الصباح ، وإن بها رغبة مفاجئة ان تقول صباح الخير لجمال الأشياء . صباح الخير . للسندر الأحمر هناك ! وانت ايتها الكرمّية عند الكنيسة ! صباح الخير يا سيدي . سائق سيارة الأجرة . صباح الخير يا عزيزتي الصغيرة « انتانسيداد » . كفى . جفّفي دموعك . لقد ذهب دولاب . وسيعود آخر ...

حين فتحت باب السيارة . داخلها شعورٌ بأنها تسمع أجراساً شفّافة فَرِحة . من المعبد القريب . ولا شك . الفصح عما قليل .

ــ انتهى الأمر . لنذهب .

ــ وأمتعتك ؟

ــ لقد قفزت عليّ زوجته . ولكن هذا لا يغيّر شيئاً . هيّا انطلق .

ــ كيف تحسّين نفسك ؟

هزّت كتفيها :

ــ مسنّة جداً . أو شابّة جداً . لست أدري .

انطلق بوريس نحو الشمال ، متنبّهاً كليّاً للجادّات ، وللمرآة العاكسة ، وللإشارات الضوئية . وكانت هي تلتزم الصمت . « إيّاك ان تطرح عليّ أسئلة . انا لست بعد في العمليّة . هذا لا يعنيني بعد . » وقد فهم هو ، فلم يُلحّ . وها هما داخل حديقة « اوهلسدورف » . لأن طريقهما كان يمرّ من هناك : مجرّد مصادفة . انها أكبر مقبرة في اوروبا يستريح فيها الموتى وسط الخضرة . لا صلبان ولا حواجز مشبكة . كان العشب ينمو على الشاهدات المحاطة لا بالسرو ولا بالأقحوان ، ولكن بالغار الورديّ والصنوبر والسندر على مدى النظر . هناك كان الأطفال يأتون للعب ، والأسر للتنزّه ، وفي الوسط تمرّ السيارات والباصات.وفكّر بوريس

« أية مذلّة ! إن الناس هنا يستطيعون على الأقل ان يموتوا بشكل طبيعي ، وبلا تشدّق ... »

قالت له : — أسلك هذا الدرب الصغير . انني أختنق . يجب أن أغيّر ثيابي .

لم يكن جلدها يحتمل بعدُ هذه الثياب المضحكة الكئيبة التي ارتدتها عند الفجر . إن المرء لا يحبس الربيع الى الأبد تحت معطف شتائيّ ... وبلمحة بصر ، من غير ان تهبط من السيارة ، انتزعت مشمّعها وصدريّة الصوف والبنطال . فلفّتها داخل كيس من ورق ذهبت تضعهُ في قعر سلّة عمومية ، على بعد عشرة أمتار . « هأنذي ! لقد رتّبت البيت . أحسّني نظيفة . سائحة حقيقية صغيرة في عطلة . تستعدّ للعودة إلى منزلها . » أحست نفسها كأنها محلولة القماط ، حرّةً أخيراً بحركاتها ، ممنوحةً للنضارة المشمسة ، مذوّبة في تشكيلة الخضرة المحيطة بها . غريبة عن كل الأخريات وشبيهة بهنّ . وكان بوريس يتأملها عبْر الدرّاءة . فيظنّ انه يرى امرأة مجهولة تخرج من غلافها . كانت مشيتها وجميع حركاتها تسبح في هالةٍ عجيبة ، لونٍ من التواضع السيّد يثير دهشته وقلقه .

وانطلقا من جديد ، فاستدارا حول المطار ، وقاما بانعطافة كبيرة ليعودا نحو الجنوب ، متجنّبين الوسط عن طريق « كيال » والنفق الجديد تحت « الإلب » ، حتى الطريق

المفضي إلى « هانوفر » . وبكمية وافرة من الحليب المزيل للمساحيق ، ومن الذرور الكامد ومن المراهم اللطيفة ، نظّفت اماندا وجهها ، ومحت آخر ظلال الأوسترالية ، وبرنقت شعرها ، وغطّت ببعض الصبغ خدشين أو ثــلاثة كانت تشنّع عنقها ، كلّ ذلك بثقة عالمة تجميل حقيقية ، ناشطة ومحايدة . وعادت ترتّب في محفظتها المِلْوق وفرشاة الجفون والمِرْقاش والأعواد والملاقط ، ونظرت إلى نفسها مرةً أخيرة في المرآة العاكسة ، والتفتت اليه باسمة ، وأوشكت أن تفتح فمها ، ولكن العبارة الغريزية لم تخرج . « أنا جميلة ، أعرف ذلك . فلماذا أسأله ؟ وهل عندي حقاً ما أسأله من بوريس ؟ ... »

بعد ساعتين ، بلغا هانوفر حيث تركا السيارة مصقولةً جيداً ومفرغة ، واتّجها في طريقين مختلفين نحو مرأب — موقف ، حيث كانت تنتظرهما سيارة أخرى ، من طراز آخر ، أكثر فخامة . واوراقها في علبة القفازات مع رزمتين من المفاتيح . وباستثناء مسدس « الوالتر » الذي احتفظ بــه بوريس ، تبرئة للذّمة ، لم يحملا أيّ أثر من المرحلة السابقة ، ليصبح كل شيء أمهامهما اكتشافاً ، منحةً مجانية ، مزيداً من حظوة . وعند الساعة السادسة عشرة ، سمعا في الاذاعة أول نبأ عاجل عــن الاغتيال ، ولكنهما إذ كانا يفضّلان كثيراً الحفلات الموسيقية على الطلقات النارية ، فقد غيّرا المحطة حتى لا ينزعجا ، فرافقتهما ، في جزء كبير مــن الطريق ، مقطوعة « الالآم كما يــراها القديس ماتيو » .

وكانت اماندا تقلّ كلاماً ساعة بعد أخرى . و تلك الرّقة الغريبة أراحت بوريس : لا تمهيد ولا استفزاز في هــذا الجانب أو ذاك . إن هناك سبعمئة وأربعة وثمانين كيلومتراً بين هانوفر وسالزبورغ ، ما عدا التوقّف من أجل التزود بالبنزين والتصليح ، وقد كان بينهما مثل هذه المسافة فيما بين مساء ذلك النهار وصباحه . ولكن ليس ثمة أشدّ فسقاً من الصمت ، وقد كان صمت اماندا ، إلى جانبه ، يغمر جميع المسافات . كان يردّ لها فماً وعينين وشقرة امرأة ، وكان ينتاب بوريس أحياناً شعورٌ بأنه يلامس جسمها العاري. كان جلده يرتعش للمرة الأولى . كان مفتوح العينين ، فاقد الصبر . فكان يبحث بطرف عينه عن نقائص جسميّة ، فيجد مثل هذه النقائص — تلك التجعيدة عند زوايا الفم ، ذلك الحنك الكبير بعض الشيء ، معصماها ذانك الذكريّان — ولكن ذلك لا يزيده إلا رغبة فيها .

اما تلك التي كان جسمه يتعرّفها أخيراً ، فقد كانت تحتضر ، مُشعّة مكتئبة كامرأة شابّة وضعت طفلها . كانت اماندا ، على مرّ الساعات ، قد ازدادات غياباً ، كانت منقلبةً على مقعدها ، ممتقعة ، منصرفة كلياً لنفسها ولتحسيرها ، وكانت قد بدأت عملها رويداً رويداً . كانت تخترقها حشرجات مُطلسمة ، وتشنجات ، فيما كانت لاتزال توجه اليه عينين ثابتتين بعيدتين تنظران اليه من غير ان ترياه . وأخذتها رعدة

وحشيّة . وها هي تشرع في تذكر حادثة القتل الصباحية .
كانت تنظر الى دم انايا يسيل ، هناك ، أمامها ، وكان الدم
الذي سال منذ تسعة أشهر هو الذي تكتشفه أخيراً بعيني الجسد .
دمها ودم طفلها ودم رجلها : جميع الدماء ممزوجة ، سوداء
بعدُ وحارةّ . وفهمت أن كارلوس لم يكد يموت الا هذا
الصباح ، وان ايميلا ماتت كذلك معه ، وانه كان ينبغي ان
تذهب ، بدورها ، بدم هذا العقيد لتعيه وتستردّ الحياة .
« هل يمكن للمرء ان يولد مرتين ؟ نعم ! بل ثلاثاً واربعاً
وأكثر ! ولكن ما أشدّ ما يُوجع ذلك ! كم يكلّف هذا ،
يا الهي ، وأيّ ثمن ينبغي دفعه ! » وسالت دموع على وجهها
فلم تمسحها . ربما لم تكن بعدُ دموعها هي ، وانما هي دموع
ايميلا التي لا تريد أن تسقط ، دموع اماندا الاوسترالية التي
تتشبث بالبقاء ، والجديدة ، ما عساها تدعى ؟ وفكرت :
« ها أنذي الآن خالصة من الديْن ! »

حين كانت ايميلا حاملاً من كارلوس ، في أوج السعادة ،
كان الموت قد ارتعش في أحشائها مرة أو مرتين . او اذا
لم يكن هو ، فقد كان نفَسَه وقُربَه . وحين وصلت اماندا
الى هامبورغ ، استشعرت القرب نفسه . رعشة النبع نفسها
في أعماقها ، وحتى هذه المرة ، كان شيء حيّ قد نما ونضج
على غير شعورٍ منها ، لينفجر الآن في وضح النهار . إنـــه
الخلاص ! كانَ الزمن أخيراً يكسر زجاجه . وكانت الحياة

تسيل من جديد فيها. وقد أخذت العقارب تدور من جديد، على نفسها. لم يكن لديها ايّ مستقبل مُبرق تبلغها إياه. ولا سِفرْ رؤيا آخر غير هذا بالذات. سِفر مرير وساخر، ما يُكشف لها فيه، في نهاية النهايات. ان الجمال في ما ينتهي يعادل الجمال في ما يبدأ، لأن النهاية والبـــداية هما الشيء نفسه. وإذن. فقد انغلقت الحلقة في نفسها هي أيضاً؟ إن الانعطافة الغريبة لعمليتيْ حَمْل وقَتْل، لحياة منتزعة ومستأنفة في غضون تسعة أشهر، كانت قد أدخلتها في الدارة الجوْفية الكبرى للنسغ والدم التي تُخضع لإيقاعها تنبُّت العواطف البشرية والنموّ الحيوانيّ لأفعالنا. ها أنّ القناصّة قد أصبحت جسدياً شريكة هـــذا التحوّل المبتهج القاسي المغذّي الذي يُسقِطُ في الثلج قرون الأيِّل البالغة نهايتها لينبت في العام التالي دَغْل آخر اكثر ارتفاعاً وكثافة... بعد الآن، لا يمكن ان يحدث شيء لهذه المرأة التي لم يسبق ان عرفتها. كانت متجذِّرة في أعمق طبقة ارضية من الحياة، وستواصل معركتها من بلدٍ الى آخر، من رجل الى آخر، واذا لم تذهب الى السماء، فتكون قد وجدت على الأقل دروب الأرض التي لا يمكن لأية حياة ان تضيع فيها والتي يساوي كلّ موتٍ فيها ولادة جديدة. لم يكن لأماندا ان تخاف بعدُ ما هو مقدور، فقد أصبحت هي نفسها هذا القدَر.

كانا قد اجتازا مونيخ، وكانا يدلفان الى سالزبورغ.

الليل ينجلي . ويوقف بوريس السيّارة على طريق مفتوح ، وينظر اليها ، مذهولاً . انها تتوجّع ، وترتعد من رأسها الى أخمص قدميها ، وهو لا يعرف انها كانت بسبيل ان تتحرّر منه ، كما من كل شيء آخر . وأن عليه ان يسيل ، هو أيضاً ، بعيداً عنها . ليشقّ هذا الجرح ويشفي هذه المرأة . ان تذهب بدم كارلوس الفاسد الذي ارادت أطول مما ينبغي ان تحتجزه فيها . مانعة إياه أن يسيل . وان يروي «اماندات» اخرى ، نساء أخريات قادمات . كيف السبيل الى ان يعرف اذا كانت الغصّات التي تهزّ كتفيها تريد ان تعبّر عن الفرحة او عن الألم ، ما داما الفرحة والألم كليهما ، وأن هذا التموج المضطرب يأتي من الطفولة ، من أعماق جسمها ، بعيداً في ما وراء وعيها ، ومن يدري ، من ولادتها بالذات ... ؟ كيف كان يمكنه ان يميّز ، في ما تحت هذا كلّه ، ضجة الغِمْد والبرُعم الخفيّة ، من الثلوج التي تذوب والأجنحة الململسّة للمرة الاولى ؟ وأخذها بين ذراعيه ، فآساها ، وهدهدها . فلم تجرؤ على دفعه :

— استريحي ، نامي . لسنا بعيدين عن الحدود .

— نعم ، إمضِ ! لنمضِ ! ولكني أريد ان أسوق في بلدي .

— لم تنظري الى نفسك . فلستِ في وضع مناسب . حقاً في المرة القادمة ، سنلعب وجه العملة أو قفاها . او بالأحرى

لا . سيكون دوري .

– أؤكد لك ، انا الآن أفضل .. سترى ...

جفّت عيناها ، وابتسمت له بلطف .

– ليس هذا بذي بال . لقد انقضى . اعذرني .

أجل، انتهى الامتحان . ستكون هناك امتحانات أخرى . وهي لا تزدهي . ومسحت خدّيها بظاهر يدها ، ثم سوّت جلستها . ذلك أنها استردّت مركز ثقلها ، وهي لا تنتظر بعدُ من أحدٍ تشجيعاً ولا تأنيبات . ستسير وحيدةً ، بعد الآن . من غير ان تستند الى أشباح – موتى – احياء ، او ناجين من الموت . انتهت السهرة المأتمية الطويلة التي كانت قد سمّتها وفاء والتي لم تكن الا تصلّب مفاصل . إن في ساقيها تنمّلاً ، رغباتٍ في القفز ،وفي الصعود وفي التزلج. إن جميع مسامها تنشد شمس المجالد اللاذعة . ووجهها الأزرق المشذّر ، الذي لا يطاق ، والذي يبهر العينين ويعاني الفراغ في الداخل . في رفقة رجالٍ جدد لا يطابقون بين القديمة والجديدة ، رجالٍ لن يعرفوا ابداً شيئاً عن اماندا ولا عن كارلوس ولا عن أنايا . رجال أبرياء ، معاصرو امرأةٍ بريئة تستيقظ على الحياة . إن المصيبة هي ذاكرة يعْمرها الغائبون . ومذاق السعادة يرجع اليها : ليس امّحاء الماضي ، بل هو نسيانٌ يسكنه الزمن . كبسمةٍ تحتفظ بسرّ الدموع ، حتى من غير أن تعرف ذلك . لقد

مات كارلوس . وهي لا تكنّ بعدُ حبّاً لبوريس . ولا هذه النفحات من الحقد، حين تجعله يدفع ثمن غلطته بأن لا يكون كارلوس . إنه بكل بساطة صديق يرجع إلى بيته وهو لا يعرف ذلك بعد ، والنظرة التي تلقيها عليه هي بلا طلبٍ ولا غضب : مجرّد نظرة مُحبّة .

استعاد بوريس اطمئنانه ، فترك لها المقود . وعند عبور الحدود ، أخرجت من جيبها بطاقة هويّة نمساويّة قديمة كانت كافية ، وانتهى الأمر . عمّا قليل ، يبزغ النهار ، وكانت قد بدأت تبرز . خلف « السالزاش » ، مرتفعات « مونسشبرغ » المزرّقة والجبال المجاورة . وأحسّت بتعبٍ هائلٍ يصعد فيها ، فأبطأت السير ، وتوقّفت عند منعطفٍ تنكشف منه المدينة كلّها ، ومن غير أن تقول شيئاً ، أدارت عينيها نحو بوريس ، فترةً طويلة . كان عليها ان تقول له . ليس هو بعدُ أخاً كبيراً يميل على أخته الصغيرة الجريح . يجب أن تقول له إن الخطط قد تغيّرت ، وإنها ليست بعدُ تلك التي وضع بوريس مشروعاً لإعادتها إلى النمسا الى بيتها، لتتزوّج ثانية زواجاً مُستَحَقّاً، وان كان متأخّراً. وأن القديمة قالت له نعم، متغلّبةً على خوفها من التورّط في مسكن خاصّ، ولكن الجديدة ستمضي وحدها. إلى الثلج. وإلى ما هو أعلى، لأن الدم المجهول الذي يجري في عروقها زاد يقينيّاتها عشرة أضعاف . لأنها تضطلع الآن بجسدها كمال الاضطلاع ،

بندَباته وشجّاته . من غير ان تفكّر فيه بعد . وأن الأجسام تسكن طبيعياً الخلود – باعتبار أن الموت ليس إلاّ ادعاءً ذهنياً ، وتبجّح انسان متوحّد . كان عليها ان تقول له إنها ستمضي من جديد إلى لقائه ، من غير تحدّيات ، ولا تعجّل ، وإنها كفّت عن أن تخاف رائحة الكيرش [1] والتربنتين [2] التي كانت تغمر جدران مقصورتها ، وزلاّجاتها القديمة المصنوعة من خشب الدردار ، وصدرياتها ذات الشرائط المضفورة وجواربها البيض التي لا بدّ أنها نائمة في الصوان ، ودروبها في الغابة ، وخفير الصيد الذي كان صديق أبيها . كانت قد بدأت تعرف ، في تلك اللحظة ، أن بوسعها ان تنتزع نفسها من ذلك الماضي ، على رؤوس قدميها ، من غير ان تُزعج أحداً ، من غير ضجّة إلاّ حفيف بطن ظبيةٍ يلامس الثلج النضر ، وغصن صنوبرةٍ يقطر عند اليقظة . لكي تمضي اكثر علوّاً ، متجدّدة ، إلى الجانب الآخر من العالم ، هناك حيث توجد جذورها الحقيقية . كان عليها ان تقول له إن لقاءهما الأول ، بعد سنوات من « الاتصالات » ، لن يتمّ .

ربما ستفعل ذلك . لأنه لم يكن ثمّة وقت طويل بعدُ قبل ان تركن السيارة امام محطة سالزبورغ ذات اللون الصلصالي :

---

(١) مشروب كحولي من الكرز .
(٢) صمغ البطم (م.م) .

« لن أغيب أكثر من ساعة . للقيام بزيارة لصديقة تعمل في السينما ، والأفضل ألاّ تـــرانا معاً ، ولكن كلاً منا يملك مفتاحه ، فلنغلق أبواب السيارة » ليس من وقت طويل بعدُ قبل ان يشتري بوريس بعض ثمار شجرة المحامي وحبّة اناناس من مخزن البقالة الباروكي الذي يتَصِل ببيت موزارت المولدي بمركز سالزبورغ ، وقبل ان يكتشف عند عودته ، وهدّيتـُه تحت ذراعه، هذه الكلمة الصغيرة على مقعد السيّارة مكتوبة بقلم بنفسجيّ :

« شكراً لكل شيء . لا تنتظرني . لن يكون هناك مرةٌ أخرى .

فيتوريو او ميورت

روث ( اسمي الشخصي الحقيقي ، سأحتفظ به )

ولن يبقى له وقت طويل بعدُ قبل أن يفتح الصندوق ويرى فيه محفظتها بأثوابها وعدّة زينتها وكيس سفرهـــا . وقت قصير جداً قبل ان يخفي بوريس وجهه بيديه حتى لا يرى أحدٌ ، ويـُلقي جبينه على مقود تلك السيّارة المفرطة السعة ، في ذلك البلد الذي ليس له فيه ما يفعله ، حاملاً مسدســاً لم يستعمله وسيذهب في المساء لــيرمي به إلى « السالزاش » . لا . ستخدعه مرة اخرى . لتنقذ نفسها . إن هذا شأنها . إلا ّان تريد أن تنقذه هو ، بألاّ تقول شيئاً،

لكي تضيع وحدها في ثلجها الأخير . من يدري ؟ ليس لها بعدُ من حسابات تقدّمها ، ولن يرسم لها أيّ رجل طريقها ، تلك التي تمتدّ من سهول « ساكس » إلى الهضاب الأنديّة العالية ، منعطفةً إلى ضيعة صغيرة وُلدت فيها من ضياع « كارانثي » . إنه مما لا يعني احداً ان تكون قد عادت إلى شفتيها ، في اللحظة نفسها التي أبعدت فيها وجه بوريس بحركة رقيقة وحازمة من يدها ، صارفةً كليّاً فمه عن فمها . عند الممرّات الجانبيّة لطريق سيّار تُرى منه مراقبُ قلعة « هوهانسالزبورغ » وأبراجها المثلثـة وهي تخترق السماء البيضاء – انه مما لا يعني أحداً ان يكون قد عادت إلى شفتيها في تلك اللحظة عبارة لـ « تشي » كان بوريس قد نغّمها لها ذات مساء على شرفة غرفتها في هافانا . وقليلاً ما يهمّها متى ولا أين ، ما دامت « ايميلا » أخرى ، غير مرئيّة ووفيّة ستنبت ذات يوم ، في موقع سقوطها نفسه ، كما نبتت هي نفسها تحت تلك الشجرة الكبيرة المتكلّسة ذات الجذور المعمّرة التي ما تزال تدعوها ، بصمت ، « الثورة » . إنه لا يعني أحداً ان تكون ، قبل خمسة أسابيع من عودتها إلى بوليفيا ، وقبل مئة وثلاثة عشر يوماً من مصرعها على يد الشرطة ، عند عتبة بيتٍ فرّ رجلان عبر بابه الخلفيّ – لايعني أحداً ان تختار ان تسمّي حبّاً ما كان يشدّها أبداً إلى الأرومة اللامتناهية لرفاقٍ سقطوا في الميدان .